من الشرق والغرب

الغرب والشرق

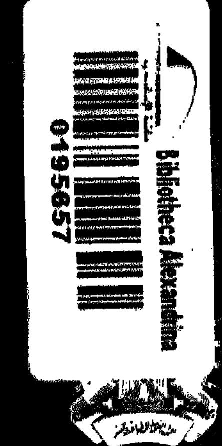
ثورات العرب

في سنة ١٩١٩

الجزء الأول - المقدمة

من الحروب الصليبية إلى حرب السويس

بقلم
محمد علي الغتيت





من الشرق والغرب

الغرب والشرق
من الحروب الصليبية الى حرب السويس

ثورات العرب في سنة ١٩١٩

الجزء الأول : المقدمة

بقلم

محمد علي الغتيت



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذا المؤلف هو ثمار لأكثر من عرس ، ثمار لدراسات عكفت عليها عشرات السنين ، ثمار لتأملات فى أحداث التاريخ منذ أن كان للعالم تاريخ معروف ، ثمار للمقارنات التى ابرزهـــا أمامى واقع للتاريخ فى مختلف حقبه وصورتها لى أحداثه التى مررت بها وأنا أطوف فى الماضى البعيـــد ، والأحداث التى مرت بى فى الحاضر الذى أعيشـــه ، ثم هو أخيرا ثمـــار لرغبة عمقت فى نفسى اتجهت بى فى حرارة لخدمة أمتى العـــربية ذات التاريخ الأمجد العريق فى اساسه وحضارته ، والحافل بما يشهد بعدالة العرب ، وبفطرتهم على الخير والعاطف الانسانى . ففى التاريخ شـــواهد لا يرقى اليها الشك نؤكد أن الأمة العربية قد أمدت العـــالم بأقوى أسس الحضارة الانسانية فى شتى ميادين العلوم والفنون والآداب ، وضربت فى الخلق الرفيع ومبادىء العدالة أروع الأمثال ، فكانت فى ذلك كله المنارة التى شع منها نور العلم والمعرفة وقت أن كانت شعوب الغرب تتخبط فى دياجير الظلام ، وكانت بلاد العرب المعين الذى تغترف منه طلاب الحضارة فى أنحاء العالم .

***

وانى لأقدم للأمة العربية هذا المؤلف فى وقت أشعر فيه بمدى حاجتها الى مثله ، وبمدى حاجتها الى تكاتف جهود أبنائها لاعادة بناء كل شىء فيها من جديد ، على ان حبى للأمة العربية لم تشبه عاطفة غير انسانية لأية أمة أخرى ، ولم يخالطه شعور ضد أى جنس غير عربى ، فليس معنى حبى واخلاصى لأمتى العـــربية أننى أكره الأمم غير العربية ، ولا أحسب أن

كفاحي وجهادي من أجل خدمةقضايا العرب واستخلاصي العبر والدروس التي تنفعهم ، لا أحسب أن هذا اللون من الكفاح فيه ما يشير من قريب أو بعيد الى الاساءة لغير العرب .

على انني اذ أقدم هـــذه المرحلة من مراحل مؤلفي ، فانني أرجو مخلصا أن تغدو أحداثهـــا ومآسيها في حبر كان وأن يقرأهـــا القارىء باعتبارها تاريخا للعبرة لا لاثارة الكراهية ، وآمل أن يمحو الزمن ما علق بالنفوس من رواسب سياســـــه الغرب ووسائله ازاء الشرق ... تلك الوسائل التي دفعت الشرق الى ثورته التي ظلت تتفاعل في مكامنها بالنفوس فتخبو وقدتها حينا وتشتعل حينا ، والغرب وحده هو المسئول عن هـــذه الثورات الثائرة ضده في الشرق ، لأن ساسته لم يحاولوا ازالة آثار سياسه طاغية التزمها الغرب ضد الشرق قرابة ألف عام من التاريخ ، اعتمادا من هؤلاء الساسة على ترديد شعارات السلام الزائفة من حين لآخر ، دون أن يدركوا أن السلام الحقيقي ، انما هو عمل مادي قبل أن يكون شعارات يتغنى بها مدعوها وتصريحات تذاع من الأفواه .. ثم تتلاشى في الهواء . وفاتهم أن السلام لا يتحقق الا بزوال آثار الاستعمار والسيطرة العدوانية التي فرضت على الشعوب وداست حقوقهم ، وغاب عنهم أن السلام كمعنى انما يتمثل في الشعور العميق الذي يســـود الشرق بالاطمئنان الى نوايا الغرب وخططه ، وان هذا الشعور لأعمق وأبعد أثرا من العمل المادي الذي يقدم عليه الغرب نتيجة لاكراه مادي بحكم الضرورة .

ان ساسة الغرب لم يدركوا أن اليوم الذي تختفي فيه غيوم الشكوك والريب في سياستهم ازاء الشرق وتحل فيه الصداقة المتكافئة محل السيطرة والتسلط والاستغلال ، هو اليوم الذي يشهد فيه العالم - حتما - فجرا جديدا لعلاقة الغرب بالشرق .

***

في المرحلتين الأولى والثانية من مؤلفنا تحدثنا عن الصراع بين الغرب والشرق وعدوان الغرب على الشرق ورأينا كيف نجح الغرب في تكتيل

دواه وتعبئتها ضد الشرق ... وبعد صراع دام ثمانيه قرون رايت كيف سيطر الغرب على الشرق تحقق بهذه السيطرة وصيه الملك لويس التاسع .

وبقى أن نبدأ المرحلة الثالثة والاخيرة من مؤلفنا « مرحلة جهاد العرب » وبعث قوميتهم وتحقيق وحدتهم وفيها نتناول علاقة الغرب بالشرق منذ نهاية الحرب العالمية الأولى الى أن تم للعرب تحقيق الأهداف التى من أجلها كافحوا وصابروا وقد رأينا أن نقف بهذه المرحلة عند حرب السويس لا باعتبار أن حرب السويس كانت نهاية مرحلة الجهاد والبعث ، بل باعتبارها نقطة تحول أساسى فى جهاد العرب وبعث قضاياهم ، وسنتقصى فى هذه المرحلة علاقة العرب بالاستعمار الغربى ، ولا سيما الاستعمار البريطانى والفرنسى باعتبار أن الدولتين قد تألفت منهما وحده متماسكة متحدة لا يمكن فصل سياسة احداهما عن الأخرى حينما نتحدث عن سياستهما العامة وعن الخطوط الرئيسيه لهذه السياسة ، ولكى تتسنى لنا سهولة العرض وابراز المقصد فاننا سنفرد للحديث عن الدولتين ومواقفهما من مجموعة الشعوب العربية التى سيطرتا عليها فصولا قائمة بذاتها من حيث التبويب مع قيام التلازم والارتباط بينها جميعا والى جانب ذلك سنعالج الاستعمار الايطالى والاسبانى فى باب خاص .

***

لقد درج بعض الكتاب على عرض قضايا العرب بوصفها قضايا مستقلة قائمة بذاتها كأنما كان العرب يعيشون فى دائرة مغلقة عليهم فلا أثر لمواقفهم فى تكييف الأحداث العالمية ولا أثر لهذه الأحداث على مواقفهم وعلى مواقف الغرب منهم ، وفى ذلك تقصير يلاحظ اذا ما كان قصد الكاتب مجرد سرد الوقائع ورواية الأحداث فى صورتها المحلية كما أنه يكون شديد الأثر اذا ما عمد الكاتب الى تحليل الأحداث وتتبع المقدمات حيثما وجدت وتقصى الحقائق أيا كان مصدرها طالما كان للأحداث أثر مباشر فى تكييف سياسه الغرب وتوجيه تصرفات سياسته ازاء الشرق العربى والاسلامى وما انتهى اليه ذلك كله من نتائج .

لهذا كان لزاما علينا أن تبدأ المرحلة الثالثة من مؤلفنا باستعراض

ما اسفرت عنه الحرب العالميه الاولى من الآثار الماديه والنفسيه بالنسبه للأوضاع السياسيه والاجتماعية والاقتصادية وبالقدر الذى يتصل بعلاقه الغرب بالشرق ثم بالأثر المباشر كذلك على مجريات الامور والأحداث فى تلك المرحلة الحاسمة لا بالنسبه لتاريخ العرب فحسب بل بالنسبه لتاريخ العالم بأسره • وان لهذا الاستعراض أهميه بالغه لان العالم اذا كان قد بادر فور انتهاء الحرب الى حصر الخسائر والمغانم المادية التى أصابت كلا من المتحاربين ، فانه قد عجز عن حصر الآثار النفسيه والسياسية والاجتماعية التى ظلت تتفاعل فى الشعوب حتى قيام الحرب العالمية الثانية ، فان تلك الآثار قد ازدادت حدة منذ نهاية الحرب العالمية الأخيرة ولا تزال حدتها فى تزايد حتى اليوم ومرد ذلك الى أن القيم والمثل والأوضاع التى كان العالم يعيش عليها والتى كانت تداعب خيال الشعوب سواء أكانت شعوبا متمتعة باستقلالها أم كانت خاضعة للاستعمار قد أصيبت بهزات عنيفه تأثر بها العالم أجمع فطورته وغيرته ، وتناول هذا التعديل والتطور تلك القيم وهذه الأوضاع فاستحالت الى قيم وأوضاع ومثل غير تلك التى كانت ملء أذهان الناس من قبل •• ويمكن القول بأن العالم حتى اليوم لم يستقر على الوضع النهائى لهذه القيم والمثل والأوضاع ، لأنها تهتز مع التطور الذى ما زال يحركها ويدفعها من حين الى آخر حتى تستقر فى النهاية فوق أرض قوية ثابتة •

***

لقد واجه العالم ظواهر من التطور ، تدعو الى التفكير والى تقصى الحقائق وتعرف امكانيات وقدرات الشعوب التى يعنى بأمرها المفكرون والمسئولون ، كما أنها تحتم علينا التعرف كذلك الى اتجاهات وامكانيات الشعوب المتربصة بمصائر الشعوب المهضومة الحق ، فان هذا التقصى وتلك المعرفة ـ هما وحدهما اللذان يدقان ناقوس الخطر قبل وقوع الخطر ويشيران اليه فى بداية ظهوره ، ويمكناننا من تحريه ؟ وبذلك يتسنى لنا أن نكيف تصرفاتنا ومسلكنا ازاء الأخطار التى تحدق بنا من كل ناحية ، ولا ريب فى أن أبرز ما يمكن استخلاصه من عبر الحرب العالمية الأولى

ودوسها ، لهى العبر والدروس التى تؤكد ان المبادىء الانسانيه والمثل العليا كانت الأنشودة التى يتغنى بها الاستعمار ليغرر العالم ويخدعه ؛ وكانت وما زالت مجرد شعارات زائفه يستخدمها الاستعمار كوسيله لتنفيذ مخططه التى تقوم على الفلسفه الاستعماريه الاستغلالية دون سواها .

ان محنه الحرب العالمية الأولى علمتنا أن الاستعمار لم يحد عن الهدف من سياسته ، ولكنه يطور هذه السياسة ويبدل من أساليبها حسبما تقتضى الظروف والأحوال ، كما أننا لا ننسى أن الذى يحكم التصرفات الدولية هى المصلحة المادية والصراع الدولى حول أوضاع يدافع عنها فريق يفيد من بقائها ووجودها ، ويهاجمها فريق رغبة فى القضاء عليها أو الحلول محل المستفيد منها .

ولقد وضحت هذه الصوره وضوحا تاما فى نهاية الحرب العالمية الأولى وفى مؤتمر الصلح الذى عقد فى نهايتها .

***

حرص الغرب طوال مدة الحرب على بذل الوعود والعهود لجميع شعوب العالم ، وحرص بنوع خاص ابتداء من سنة ١٩١٦ على كسب الدول المحايده الى جانبه كما عمد الى الدعاية المستمرة لأغراضه السلميه من الحرب لتحطيم الجبهة الداخلية فى ألمانيا وفى بلاد حلفائها ... لقد حرص الحلفاء فى ٣٠ من ديسمبر سنة ١٩١٦ على التجهر بأهدافهم من الحرب وتحديد موقفهم من قضيه السلام لأن الشعوب وقتئذ ، المحايدةمنها والمحاربه ، كانت قد بدأت تتطلع الى قضية السلام وانهاء الحرب وفى ذلك التاريخ أى فى ٣٠ من ديسمبر سنة ١٩١٦ وجه المسيو أرستيد بريان Aristide Briand باسم الحلفاء الى السفير الأمريكى فى فرنسا مذكرة ضمنها وجهة نظر الحلفاء فى قضية السلام فى العالم وكانت هذه المذكرة ردا من الحلفاء على مذكره مماثلة قدمتها ألمانيا للولايات المتحده .

وقد أعلن « أرستيد بريان » رئيس الوزراء الفرنسى باسم الحلفاء فى هذه المذكرة ، أن الحلفاء يحاربون من أجل حرية الشعوب ، وأكد أنه

لا محل للتفكير في عقد الصلح وتحقيق السلام ؛ وطالما أن ألمانيا لم تسلم من جانبها بحق الشعوب في الحرية وتقرير المصير ، وطالما أنها لا تقر مبدأ احترام الجنسيات ولا تسلم بما قررته الدول العظمى من حق الدول الصغرى في البقاء ، وما لم يتم الاتفاق على الأسس التي يقوم عليها القضاء على أسباب الحروب بين الأمم والشعوب واقتلاعها من جذورها الى الأبد ، تلك الأسباب التي ظلت تهدد البشرية والتي لا يتحقق للعالم الأمن والرفاهية الا بمحوها .

وقال « بريان » ان السلام لن يسود العالم الا اذا سلم العالم وسلمت الدول العظمى بحق الشعوب في التمتع بالحرية والاستقلال ؛ وفي البقاء وعملت على اقامة نظام يجمع هذه الشعوب داخل اطار منظم لتقضي في مشكلاتها وخلافاتها دون الالتجاء الى الحروب ، وأخيرا أشار أرستيد بريان الى وجوب تعويض الدول عما أصابها من أضرار نتيجة للحرب .

***

كان الرئيس ولسون رئيس الجمهورية الأمريكية متحمسا ومتحمسا لتحقيق السلام وتحقيقا لهذه الغاية راح يفاوض الحلفاء من جانب وألمانيا من الجانب الآخر . فبعث بمذكرة الى الحلفاء ليبينوا موقفهم ، فتلقى من أرستيد بريان مذكرة أخرى في ١٠ من يناير سنة ١٩١٧ جاء فيها ان الحلفاء على استعداد لتحقيق السلام وانهاء الحرب اذا ما جلت القوات الألمانية عن الأراضي التي احتلتها في فرنسا وروسيا والبلقان مع دفع التعويضات العادلة ، واعادة تنظيم القارة الأوربية على أساس احترام الجنسيات وكفالة الأمن والحرية للشعوب جميعها كبيرها وصغيرها بحيث يمكنها أن تطور نفسها اقتصاديا ، ووضع الحدود الاقليمية بما يضمن احترام الجنسيات وحماية الأمم من أي عدوان غاشم يقع في المستقبل ، كما سجل في مذكرته حرص الحلفاء على اعادة تنظيم العالم على أساس تقرير المصير واحترام رغبات الشعوب في تحرير الشعوب الأوربية التي تخضع لسلطان دول أجنبية عنها ، وكان يقصد بتلك الدول الأجنبية روسيا وألمانيا والنمسا ، ويهدف الى سلخ جزء من الأراضي الروسية والألمانية

لمصلحة ايطاليا والدول السلافية والرومانية والتشيكوسلوفاكية والبولاندية.

وقد تمسك أرستيد بريان فى مذكرته بتحرير الشعوب الخاضعه لتسلط الأتراك « الدامى » ومنحها الحرية والاستقلال وكان يقصد الشعوب العربية – كما دعا باسم الحلفاء الى ضرورة طرد الأتراك ؛ وقال عنهم فى مذكرته انهم غرباء عن الحضارة الغربية – عن أوروبا – وفى ختام مذكرته أكد أرستيد بريان أن سياسة الحلفاء لم تهدف يوما ما الى استئصال شأفة الشعب الألمانى والقضاء عليه سياسيا ، وأن سياسة الحلفاء كلها عدالة وسلام وحرية لجميع الشعوب .

***

وقد أكدت حكومات الحلفاء بعد ذلك فى مجالسها النيابيه ولا سيما فرنسا وبريطانيا أنها لا تبغى من الحرب غزوا أو سيطرة أو اخضاع شعب لشعب أجنبى عنه أو فرض سلطان ما أو حكم بالذات على أى شعب ، وأنه لا هدف للحلفاء من الحرب الا تحقيق السلام والحرية والرفاهية لشعوب العالم كبيرها وصغيرها وتنظيم شئونها داخل اطار عصبة تضمهم جميعا .

***

وفى ٨ من يناير سنة ١٩١٧ ألقى الرئيس ولسن خطابا فى الكونجرس الأمريكى أعلن فيه برنامجه لتحقيق السلام فى العالم وضمنه أربعة عشر مبدأ أساسيا ، وعرف هذا البرنامج فيما بعد – بالنقط الأربع عشرة – وبالاضافة الى تضمنه هذه النقاط من المبادىء التى سلم بها الحلفاء من قبل فى مذكرتهم المؤرخة فى ٣٠ من دبسمبر سنة ١٩١٦ – فان ولسون زاد عليها ما رأى أنه مكمل لها . ففى النقطة السابعة نص صراحة على تقييد السيادة العثمانية فى حدود المناطق التركيه البحتة ، وقرر الحكم الذاتى لسائر الجنسيات الأخرى التى كانت خاضعة للدولة العثمانية . وفى النقطة العاشرة أعلن ضرورة تسوية المشكلة الاستعمارية تسوية منزهة عن كل غرض .

كما طالب البرنامج بانشاء جمعية أو عصبة للأمم تتحقق فيها الضمانات

المتبادلة للاستقلال السياسى للشعوب كبيرها وصغيرها وكفالة السلام لأراضيها •

ولقد حرص الرئيس ولسون فى مختلف خطبه على أن يوضح هدفه من هذا البرنامج فقال انه برنامج أعد لمواجهة الأخطار التى تهدد الحرية السياسية والاستقلال الوطنى لجميع شعوب العالم ، وأكد أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تشترك فى القتال ضد ألمانيا الا من أجل أن نقضى على ذلك الخطر الذى يهدد البشرية بالسيطرة السياسية والتسلط العنصرى فى العالم كله •

***

ولقد كان لوعود الحلفاء ولا سيما وعود الرئيس ولسون بالذات أثر فعال فى نفسية الشعوب والقادة والساسة فى سائر أنحاء العالم • واعتمادا على هذه الوعود والمواثيق ، وبدافع الامل فى أن الحرب بين ألمانيا والحلفاء ستنتهى الى شروط فى الاطار الذى أعلنه الحلفاء بادر الجنرال لودندورف قائد الجيش الألمانى بارسال مذكرة فى الأول من أكتوبر سنة ١٩١٨ الى الحكومة الألمانية طالبها فيها بأن تشرع فى مفاوضة الحلفاء فى شروط الصلح ، وانضم اليه فى هذا الطلب الماريشال هندنبورج ، الا أن الساسة الألمان لم يطمئنوا الى وعود الحلفاء والى موقفهم من ألمانيا فتلكئوا فى الاستجابة الى طلب الجنرال لودندورف ، مما دفعه الى ارسال مذكرة أخرى الى الحكومة من مركز القيادة العامة للجيش الألمانى قال فيها : نحن الآن فى موقف مشرف ، الا أن العدو قد يتمكن من اختراق خطوطنا فى أية لحظة ، فاذا حدث هذا وعرضنا الصلح ، فانما يكون هذا العرض من جانبنا قد جاء فى وقت غير مناسب • وقد نبه الجنرال حكومته الى هذه الحقيقة ، لأنه كان مطلعا ــ تماما ــ على حالة القوات الألمانية العسكرية وعلما بحالة الروح المعنوية فى هذه الجيوش بعد أن بدأت الدعايات الواسعة التى أطلقها الحلفاء تؤثر فيها ولا سيما أن هذه الدعايات أفادت من الهزائم التى منيت بها الجيوش الألمانية أخيرا فى ميادين الجبهة

البلغاريه ، وقد كان القادة الالمان يهدفون من وراء مطلبهم هذا الى عقـــد الصلح مع الحلفاء قبل ان تنتقل المعارك الحربيه الى داخل ألمانيا •

وفي الثالث من أكتوبر عاد القائد الأعلى للجيوش الالمانية وطلب الى حكومته في الحاح الدخول فورا في مفاوضات الصلح • وفي الخامس من أكتوبر سنه ١٩١٨ لم تر حكومه ألمانيا بدا من طلب الصلح فبعثت في ذلك التاريخ الى الرئيس ولسون عن طريق الحكومة السويسرية تطلب الصلح على أساس شروطه التي أعلنها ، ولكن ولسون رفض الاستجابة لطلب ألمانيا وأصر على الشروط التي ارتضاها الحلفاء جميعا أساسا للصلح •

وعادت ألمانيا تلح في طلب الصلح ولكن الرئيس ولسون أعلن في ٢٣ من أكتوبر سنه ١٩١٨ باسم الحلفاء أنه يقبل اعلان الهدنة اذا ما أقره جميع الحلفاء على ذلك ، واذا ارتضت ألمانيا الخضوع لتلك الشروط التي اعلنها الحلفاء وفي طليعتها تعهدها والتزامها بما سوف يوضع من شروط وضمانات للحيلولة مستقبلا دون وقوع عدوان ألماني جديد • وأن يتـأكد العالم أن زمام ألمانيا لن يكون في يوم ما بيد أولئك الساسة الذين تسببوا في الكارثة التي حلت بالعالم وقبلت ألمانيا الشروط المملاة عليها وبهـــذا انتهت الحرب على الصورة التي أرادها الحلفـــاء لنهايتها بعد أن طحنت رحاها ثمانية ملايين زهقت أرواحهم في المعارك وبعـد أن خلفت وراءها ثلاثين مليونا من الجرحى والمشــــوهين وخلفت من الكوارث والدمار والخراب ما تنفطر له القلوب وما اكتوى بناره المنتصر والمهزوم على السواء واذا كان الانتصار قد خفف من حدة الآثار التي خلفتها الحرب في دول الحلفاء فان الهزيمة كانت تزيد من حدة هذه الآثار في ألمانيا بحيث كانت ألمانيا تشعر بمرارة المهزوم وبخسارة الخاسر ، وكان الجرح في كيانهـا المادي وفي كيانها المعنوي •

***

ولقد وقف الى جانب الغرب في تلك الحرب فريق عاونه ونصره وأخلص في موقفه هذا ، وعلى الرغم مما كان يعانيه هذا الفريق من استعمار الغرب ؛ فانه لم ينتفض على الغرب أو يتنكر له وأبى قادته وزعمـاؤه أن

يستغلوا ورطة الغرب في تسويه مشكلاتهم والتخلص من الاستعمار وتحديد موقف العرب منهم قبل أن يقدموا على معاونته ، أثر هؤلاء الساسة والقادة الا يستغلوا ورطة الحلفاء وحرج مركز الغرب من أجل تسوية مستقبل بلادهم السياسي تسوية واضحة نهائية ، آثروا سياسة المسالمةوالوفاق ، ومنوا شعوبهم بعهود الحلفاء ووعودهمومواثيقهم ، وكانت الأمة العربية بين هذا الفريق المخدوع •

***

اتجهت أنظار شعوب العالم كلها ، الى مؤتمر فرساى ، اتجهت اليه وكلهـا أمل فى السلام الذى فاضت به دعايات الحلفاء وتصريحاتهم وعهودهم ؛ غير أن الذين أوتوا نصيبا من الفطنه وبعد النظر كانوا يدركون أنه لن يكون مؤتمرا للصلح سوى فيه المشاكل بين المنتصر فى الحرب والمهزوم فيها ؛ وانما سيكون مؤتمرا يعقد بين المنتصر وأتباع المنتصر ، تجرى فيه المساومات وتوزع المغانم ، فمهزوم الحرب لن يكون طرفا على مائدة الصلح ، وانما سيكون سلعه على هذه المائدة ، وكان هـؤلاء البصيرون بالأمور يدركون ـ سلفا ـ أن الدول التى هزمت فى الحرب لن يكون لها دور فى المؤتمر ، اللهم الا دور التسليم والاذعان لما يملى عليها، وان جدول أعمال المؤتمر لن يتضمن اقرار حق الشعوبالمغلوبة والمهزومه فى الحياة وفى الحرية والاستقلال •

الفصل الأول
مؤتمر الصلح

« كليمنصو يتحدث عن الصلح والسلام ـ تصريح المارشال فوش ـ حلول المؤتمر »
« كليمنصو والدول القوية ـ مؤتمر الصلح يحدد مصير أوربا ـ المجر ـ تشيكوسلوفاكيا »
« يوجوسلافيا ـ بولونيا ـ دانتزج ـ خضوع ألمانيا لشروط الحلفاء ـ القيود ـ مؤتمر »
« الصلح والشرق العربي ـ نظام الانتداب ـ انقسام البشر الى معسكرات ـ العالم »
« بعد مؤتمر الصلح ـ موقف الدول المهزومة والدول المغلوبة على امرها ـ تطلعها الى »
« الكفاح ـ الرابطة التي قامت بينهما » .

***

كان من الطبيعي أن يحرص الحلفاء على تغطيه أغراضهم من المؤتمر ويعلنوا بادىء ذي بدء أن المؤتمر مؤتمر سلام • ومن أجل هذا الغرض وقف المسيو كليمنصو Clémenceau, يعلن في جلسة افتتاح المؤتمر أن غرض الحلفاء من عقده انما هو تحقيق السلام على أساس من العدل والأمانة والنزاهة • paix de justice et de probité, ويقول بأنه من هذا المؤتمر سيلتمع في شعوب العالم كله بريق الأمل في السلام والحرية وان العالم قد تحمل عبء أخطار جسيمه واجتاز محنة قاسية ، وعاني آلاما مبرحة ؛ وذاق مرارة الآمال الخائبة ؛ ولكن هذه المآسي والنكبات قد شكلت في النهاية ذلك الموكب العظيم الذي يتحرك نحو السلام ترمقه من السماء نظرات مقدسة ترسلها أعين الموتى ونظرات الضحايا الذين افتدوا حق الشعوب في الحرية والاستقلال ، وان العالم كله يتطلع الى مسير هذا الموكب المقدس وينتظر ظهور الانسان المطهر الذي يخرج من الموكب •

وقف كليمنصو يقول ان هذا السلام الذي أتاحه الله لنا بمعجزة يجب أن نشكله بأيدينا بعد أن رأيناه بأعيننا ؟ » يجب ألا نحول نظرنا عن

طيف هذا السـلام ولابد أن نجعل طيفه ماثلا دائما امامنـا يلازمنا فى تفكيرنا ، لكى نستطيع ان نحقق الى جانب معجزه كسب الحرب ، معجزه أعظم وأكبر : معجزة السلام .

ولقد عاد كليمنصو بعد المؤتمر فتحدث عن موقفه هذا ، تحدث عن خطابه الذى افتتح به المؤتمر فقال : أجل لقـد ألقيت خطابى ، وكلى ـ اذ ذاك ـ أمل فى تحقيق معجزة السلام ، ولكن الانسان لا يستطيع أن يحقق من المعجزات الا القدر الذى تسمح به طاقته . عـلى أن ما يمكن تحقيقه من المعجزات لا يتم على الصورة المثلى الا اذا نقينا أنفسنا مما تراكم فيها من آثار الماضى فسيطر على تفكيرنا وأثر فى غريزتنا ، بحيث لم يكن فى امكاننا ، التغلب على الصعاب التى كانت تواجهنا آنئذ ، قبل أن نتخلص من هذه العوامل النفسية العميقة التى تتحكم فى تفكيرنا وتوجه آراءنا .

***

ولقد كان كليمنصو صادقا فى هذا الذى قاله ، لأن الظروف والعوامل كانت كلها تقطع بأن الغرب يواجه فى مؤتمر فرساى لحظة من اللحظات الحاسمة فى تاريخ البشرية ، لحظة لم يسبق للبشر أن واجه مثلها . ولقد كان على الغرب أن يدرك أن مصيره قد أصبح متوقفـا عـلى سـلوكه وكان على ساسـة الغـرب اذ ذاك أن يحولوا آثار الحرب البشـعة الى دوافع فى أنفسهم توجههم صوب التعقل والحكمة ، وتعلى كلمة الضمير فمن الخراب والدمار الذى منيت به البشرية بعد الحرب العالمية ، ومن أنات الثكالى ، ومن دموع اليتـامى ، ومن آلام المشردين بلا مأوى ، من هذه المآسى التى خلقتها الحرب ، كان جديرا بالغرب أن يلتمس منهـا العظة وأن يدركه الندم ، وأن ينبعث فيه نبل العواطف الانسانيـة فيخط فى سجل التاريخ صفحة انسانية جديدة ، يكتب كلماتها بأحرف من النور . يبدأ عهدا تختفى فيه الآلام والمظالم ، وتسوده حرية الشعوب ويغمره سلام دائم أساسه يقظة الضمير الانسانى .

كان على العالم الغربى « وعلى بريطانيا وفرنسا بنوع خاص » أن يتسامى عن شهوة التسلط والسيطرة والأحقاد وأن يتجـرد من نزعاته

الاستغلالية ، وأن يطرد من حياته الفكرية تلك الدوافع التى تأصلت فى أعماق ساسة الغرب وقضت على أمل البشرية فيهم ، والتى لم يتناولهـا كليمنصو الا من حيث كونها دوافع من آثار الماضى فحسب ؛ وأبى أن يتعرض الى أسبابها والى جذورها ومقدماتها ؛ لم يشأ أن يقول ان هـذه الدوافع انما هى نتيجة للفلسفة الاستعمارية التى اعتنقها الغرب ، تطبيقـا لمبادىء هذه الفلسفة •

***

استهل مؤتمر الصلح أعماله ببيانات وخطب تتناول المبادىء والمثل العليا وتدعو اليها ولكن سرعان ما كشف الحلفاء عن حقيقة أغراضهم وأهدافهم من هذا المؤتمر وهذه الأهداف التى سبق ان وضحها فى التصريح الذى أدلى به الماريشال فوش Foch عنـد اعلان الهـدنة وقال فيه : ان الحلفاء حاربوا من أجل أهداف محدودة • ثم أشار الى هـذه الأهداف فقال : ان النتائج التى سيجنيها الحلفاء من الحرب هى التى ستـوضح وتعين أهدافهم •

لقد انتهى مؤتمر فرساى الى حلول لم تكن فى اطار التصريحات والوعود والمواثيق التى أخذ الحلفاء بها أنفسهم ، بل انتهى الى قرارات تثبت سلطان فرنسا وبريطانيا أساسا على حساب تلك المبادىء التى أعلنهـا الرئيس ولسن ، وتتنافى وتلك المثل العليا التى طالما تغنى بها الحلفاء من قبل ، والعهود التى قطعوها على أنفسـهم • وقد اتخذ المؤتمر قراراته لتقضى على ألمانيا أولا وقبل كل شىء •

ذلك كله كان موقف المؤتمر من المانيا ، أما موقفه من القضـايا التى كانت تتعلق بحقوق الشعوب فان تلك الحقوق على حد ما ورد فى محاضر المؤتمر ذاته ، قد عالجهـا المؤتمر بنوعين من الحلول : حـلول جزئية solution partielle, وحـلول مؤجلة solution différée, ويقول كليمنصو انه كان على المؤتمر بعد المقدمات العامة والمبـادىء أن يواجه المشاكل القانونية ، مشاكل الحقوق المادية للحلفاء الذين تمكنـوا

من استرداد سلطانهم وسيطروا على أعمال المؤتمر ، تلك الحقوق التي وضعت أمام الحلفاء المنتصرين ، متاعب ومصاعب لا حدود لها وعجزت مختلف القوى عن التغلب عليها •

ويقول كليمنصو : ان هذه الحقوق كانت تترجم بمطالب ، وبالمزيد من المطالب ، ثم بالمزيد من الضمانات وانه لولا خوف الحلفاء من أن تستعيد المانيا قوتها ، وتعاود الانقضاض من جديد على أعدائها المنتصرين وتزج بالعالم في أتون حرب أخرى لما اتفق الحلفاء الذين جمعت بينهم الحرب وجمع بينهم النصر ، أولئكم الحلفاء الذين كان همهم الأكبر تحقيق توازن القوى على أساس من الحذر والحرص أمام احتمالات المستقبل ومفاجآته التي لم يكن بوسع أحد أن يتكهن بها •

يقول كليمنصو : ان الحلفاء قد تغنوا بشرف الاضطلاع بأعباء تحقيق السلام « ولكن هذه الاعباء التي تلقيناها عن آبائنا سنورثها لأبنائنا وهم بدورهم سيخلفونها لأولادهم وان كانوا سيعجزون جميعا عن وضع حدود لهذه المسئوليات • »

ثم يستطرد كليمنصو فيقول : كان لابد للعالم من أن يعيش حتى ولو ظلت مشاكله وأموره معلقة اذ أن شيئا ما لا يمكن أن يتحقق الا نتيجة للتطور ، فان أول ما ينبغي تحقيقه من أجل الحياة هو ان نحدد في حاضرنا كل الأمور المشروعة التي نأمل تحقيقها مستقبلا ، لأن من شأن هذا التحديد ان يرسم في ذات الوقت مصيرنا ، ولقد كان هذا هو واجبنا في مؤتمر الصلح لأن الحرب قد أثبتت لنا أنها أداة للسيطرة بقوة السلاح ، وكان علينا أن نقدر أيضا ان مؤتمر الصلح قد يؤدي الى تسخير الشعوب واستعبادها ، وذلك لأن مشكلة الانسان الأزلية هي الدفاع عن النفس ومقاومة كل تجمع ضدها ، وكل عدوان محتمل يقتضي أن يعد الانسان العدة لدفعه ، ويهييء نفسه للرد عند ما تصارع مختلف القوى بعضها بعضا •

وقال ان أقوى الدول وأفضلها هي التي تثبت يقظتها وحسن

استعدادها للدفاع عن نفسها ضد كل مكروه يوجه اليها ، والتى تكون قادرة على معاونة صديقها اذا ما ابتلى بمحنة ، لأن ذلك الصديق سيلبى نداءها اذا استنجدت به لتجاوب مع شعورها . لقد كان مؤتمر الصلح دعوة جديدة ، دعوة لأن نريد من حماية أنفسنا ، لكى نقيم حراسا لا ينامون ولا يغفلون ، ونشعرون الآخرين بأننا أمة حريصة على أن تبادر برد العدوان ، وحريصة على أن تظل يقظة دائما حتى لا تفاجئها الأحداث ولا تخدعها الشعارات والوعود التى تخدر فيها نزعة الدفاع عن النفس .

تلك كانت فلسفة كليمنصو أقوى شخصيات فرنسا ورئيس مؤتمر الصلح ومن أكبر الزعماء فى تاريخ فرنسا الحديث ؛ تلك كانت الروح التى سيطرت على مؤتمر الصلح .

حدد مؤتمر الصلح مصير الشعوب الأوربية التى كانت فى حرب مع الغرب . فانتهت امبراطورية النمسا ؛ وفصلت المجر عنها ؛ وأصبحت مجرد دولة متحدة اتحادا فدراليا ومؤلفة من ست دويلات تتمتع كل منها باستقلال ذاتى ؛ ويسيطر عليها الحزب الاشـــتراكى ذو النزعة الشـــيوعية ، ورأس حكومتها وقتئذ المستشـــار « ماير » Mayer, وبدأت النمسا فى التحلل واستولت ايطاليا على جنوبى التيرول التى كانت النمسا تعتبره قلبها النابض فى الجنوب ؛ واستولت ايطاليا عليه وأغلب ســـكانه من الجنس الألمانى ؛ وتحللت امبراطورية النمسا ، تحللت تلك الدولة التى خلقتها معاهدات الصلح وهى النمسا الصغيرة الجديدة الممزقة والتى عجزت عن تدبير الغذاء لسكانها وعانت من ويلات الصلح ما لم تعـــان مثله فى تاريخها بأكمله .

***

اعترف مؤتمر الصلح باستقلال المجر واشاد الغرب ببطولة المجر التى أخضعها العنصر الجرمانى بعد أن تخلصت من السيطرة الاسـلامية فى أوائل القرن الثـــامن عشر ... وأقام مؤتمر الصلح جمهـــورية تشيكوسلوفاكيا فضمت عناصر من الشعب السلافى والشعب التشيكى فى ولاية بوهيميا ، واعترف مؤتمر الصلح بوجود الأمة التشكية وقـــام

الجمهورية التشيكوسلوفاكية التى أعلنت وجودها فى ٢٨ من أكتوبر سنة ١٩١٨ وكان بنيش Benesh, أول رئيس لها ، كما أنها قامت على أنقاض الامبراطورية النمسوية والامبراطورية الالمانية .

***

وبمقتضى معاهدات سان جرمان ، ونويى ، ونريانو ، أقام مؤتمر الصلح دولة ثلاثية تجمع الصرب والكروات والسلوفيين فى دولة جديدة أطلق عليها « يوغوسلافيا » وتوج عليها ملكا من أسرة كاراجورجيفتش Karageorgevitch واقتطع الحلفاء لهذه الدولة المنطقة الساحلية التى كانت جزءا من امبراطورية النمسا على بحر الادرياتيك والتى تشمل تريستا Trieste وفيومى Fiume وقد أصبحت فيما بعد منطقة يدور حولها الصراع بين تلك الدولة الجديدة وبين ايطاليا .

***

ولقد حرص مؤتمر الصلح على تقوية نفوذ رومانيا ، فأقام رومانيا الكبرى ، وضمت بسارابيا وترانسلفانيا ، وبلغ تعداد سكان هذه الدولة سبعة عشر مليونا من الأنفس ، وأعاد الحلفاء الدولة البولونية الى الوجود، ولكى يدعموا وجودها عقدوا أحلافا بينها وبين الغرب .

لقد كانت بولونيا من قبل هدفا للمغيرين ؛ فتارة كانت تقع فى قبضة روسيا : وتارة تقع فى قبضة النمسا ؛ ثم اقتسمتها فيما بعد المانيا والنمسا وروسيا ، وظلت الأمة البولونية فى صراع لا ينتهى ضد الدولة التى تغتصب أراضيها وتخضعها لحكمها ، وظلت تنشد الحرية والاستقلال أزمانا طويلة الى أن تحقق لها هذا الاستقلال فى نهاية الحرب العالمية الأولى ؛ غير أن الوضع الجغرافى لتلك الدولة الجديدة بصورته التى جاءت نتيجة لقرارات مؤتمر الصلح قد ضم اليها جانبا من البلاد التى كانت فيما مضى تخضع للحكم الروسى البحت ، كما ضم اليها بلادا كانت ألمانيا تعتبرها جزءا لا يتجزأ من الأراضى الألمانية ، بل ان أخطر من كل هذا ، ان ممرا أرضيا أقيم كفاصل يفصل المانيا الغربية عن بروسيا الشرقية التى أصبحت جيبا تحاصره الأراضى البولاندية ؛ واتخذ ذلك كله

من أجل تمكين بولندا من الحصول على منفذ الى بحر البلطيق في ميناء دانزج Dantzig. وقد ترتب على هذا الوضع وتسبب هذا الممر في وقوع أحداث خطيرة ، وكان من الأسباب الجوهرية التي تذرع بها فيما بعد هتلر فاستباح لنفسه الهجوم على بولندا ، مما كان الشرارة الأولى التي أشعلت نار الحرب العالمية الثانية .

***

أما المانيا فان مؤتمر الصلح فرض عليها شروطا سياسية ألزمها التنازل عن أراض لمصلحة كل من فرنسا وبلجيكا ولكسمبورج ، فاقتطعت منها منطقة السار الغنية بمناجم الفحم ، وآلت غالبية هذه المناجم الى فرنسا كجزء من تعويضات الحرب ، ووضعت المنطقة تحت الحكم السياسي لعصبة الأمم على ان يستفتى السكان في مستقبلهم السياسي بعد خمسة عشر عاما على شريطة أنه في حالة ما يسفر الاستفتاء عن رغبة السكان في العودة الى أحضان أمهم المانيا فان لفرنسا أن تحتفظ بملكية هذه المناجم كما اقتطعت من ألمانيا أراض ضمت الى الدولة التشيكوسلوفاكية الجديدة وأراض ضمت الى بولونيا . ولقد أجبر مؤتمر الصلح المانيا على التنازل عن جميع مستعمراتها في آسيا وافريقية ، وأرغمها على الاعتراف بالحماية الفرنسية على مراكش وبالحماية البريطانية على مصر والتنازل عن كل ما كان لها من امتيازات في سائر البلاد التي يسيطر عليها الغرب .

ان مؤتمر الصلح نظم مستقبل ألمانيا عسكريا وقيد حريتها في تكوين الجيش وفي اقامة القلاع والحصون ، وحد من حريتها في انشاء الأساطيل البحرية ، ثم فرض عليها تعويضات الحرب لمصلحة الحلفاء .

***

اما شعوب الشرق والشعوب المغلوبة على أمرها في سائر العالم والتي أخضعها الاستعمار لسلطانه ، فلا مؤتمر الصلح ولا ميثاق عصبة الأمم اعترف لها بالسيادة أو أعلن تحريرها وحقها في الاستقلال ، بل ان المؤتمر وميثاق عصبة الأمم قد أبقيا الأوضاع القائمة ، وكل ما استحدثه

المؤتمر فى هذا الشأن هو نظام الانتداب الذى نصت عليه المادة الثانية والعشرون والذى استحدث ليكون اسما جديدا للاستعمار المقنع . ولقد قسم ميثاق عصبة الأمم البلاد المغلوبة على أمرها ، الى بلاد متخلفة ؛ وأخرى فى طريقها الى التقدم والتطور ، ووضع لكل منها نظاما للانتداب يتدرج تحت وصاية الغرب وسيطرته .

***

وهكذا لم يرق الغرب الى مستوى الانتصار الذى أتيح له ، فلم يدرك تبعات المنتصر وفرض نفسه وصيا على العالم يرعى مراحل تطوره وقيما على الشعوب تلزمها أن تأتمر بأوامره وفرض الغرب ارادته وسلطانه على الشعوب المهزومة ، وعلى الشعوب التى غررت بها وعوده وانخدعت بعهوده ومواثيقه .

وغاب عن ساسته ان اغراق المنتصر فى اذلال المهزوم ، وان التغرير بالشعوب المغلوبة على أمرها ، بعد أن مناها الغرب بوعوده خلال سنى الحرب ؛ غاب عن هؤلاء الساسة ان سياستهم هذه تغرس من جديد بذور الحقد وكراهية سائر البشر لهؤلاء المتصدرين للغرب .

لم يفطن الغرب الى أن هذا العتو والطغيان فى سياسته سيخلق بينه وبين سائر الشعوب هوة عميقة لا يمكن أن تملأ فراغها الجهود التى تبذل يوما ما لسدها ، هوة تقف الشعوب على جانبيها منقسمة الى معسكرات متخاصمة متحفزة أبدا الى القتال والى الحرب التى تتحول بفعل هذه السياسة الغاشمة الى وسيلة لا مفر منها لحماية وجودهم وكفالة بقائهم .

***

انتهت الحرب ، وقام مؤتمر الصلح ثم انفض ، وأمكن للدول الاستعمارية وعلى رأسها فرنسا وبريطانيا أن تنفذ خططها ، واطمأن قادتها وساستها الى استقرار الأمر لهم . وكانت الاوضاع التى خلقها مؤتمر الصلح من شأنها ان تدعو الشعوب المهزومة ؛ والشعوب المغلوبة على أمرها وقادتها وزعماءها الى استعراض أوضاع بلادهم على هدى من الوعى

الذى بعثه فى هذه الشعوب مفكروها وفلاسفتهـا ومؤرخوها فاندفعوا الى الكفاح والجهـاد ضد المصير الذى أعده لهم الغرب ، ولكى ينالوا حقهم الطبعى فى العزه والكرامه .

كان لزاما على تلك الشعوب والامم ان تتحرك وان تعمل : فتحركت لتثور ضد حكامها ، ثم ضد نظمها ، ثم ضد الغرب . وهكذا خلق الغرب ذاته رابطه ضده ضمت الدول التى هزمت فى الحرب ولا سيما المانيـا والدول التى أصابتها خيبة الأمل بعد مؤتمر الصلح وتنكرت لها بريطانيا وفرنسا وأهملت مطالبها فى المؤتمر ، ومن بين هذه الدول ايطاليا واليابان اللتان لم تنسيا موقف الغرب منهما فى مؤتمر الصلح ؛ بل ظلتا تذكرانه حتى قيام الحرب العالميه الثانية .

كما جمعت هذه الرابطه الأمم المغلوبه على أمرها والخاضعه لسلطان فرنسا وبريطانيا ، تلك الشـعوب التى تبين لها مدى خداع بريطانيا وفرنسا واستغلالهما ، ثم اصرار الدولتين على تثبيت سلطانهما عليها . ضمت هذه الأمم والشعوب رابطة لم تبلغ مستوى التحالف ولا العهود والمواثيق ولكنها كانت الرابطه التى جمعت أعضاءها وحدة الخصومة ، وألف بينها عدوها المشترك ، ولم تكن هذه الرابطه تعنى أن الشعوب المغلوبه والخاضعه لسلطان الغرب رضيت لنفسها ان تستبدل سلطانا سلطان آخر بل كان جهادها وسعيها فى سبيل حريتها واستقلالها ...

***

اطمأنت فرنسا وبريطانيا الى أن الأمر قد استقر لهما ، واتجها الى التوسع الاستعمارى فى ابسع صوره ، وفاق اندفاعهما ما كانت عليه خططهما فى الماضى ، وحرصا على الانفراد بجميع المزايا ، بل ان الدولتين قـد تنكرتا لحليفتهما الكبرى الولايات المتحـدة الأمريكية تلك الدولة التى دخلت الحرب الى جانبهما فى أحرج لحظات تاريخهما وفى أدق مراحل الحرب بالنسبة لهما ، بحيث لو لم تدخـل الولايات المتحدة الامريكية الحرب لكانت الحرب قد انتهت بهزيمـة بريطانيا وفرنسا وانتصـار المانيا ...

الفصل الثاني

الحرب ومسئوليتها

« المطالبه باعادة تأهيل الشعب الالماني ــ المطالبه بمحاكمه القادة الالمان المسئولين عن »
« الحرب وضحاياها ــ بريطانيا وفرنسا تجاهلتا ضحايا استعمارهما ــ لم يرتفع صوت »
« لمحاسبتهما ــ رد الالمان ــ بريطانيا وفرنسا لاتدركان ان مانعمتا به من خيرات لم يكن »
« الا على حساب ارواح اهدرت وحقوق اغتصبت ــ الحديث عن الانتصار لا عن الحريق »
« لوندورف انقذ المانيا » .

***

بينما كان مؤتمر فرساي منعقدا للبحث في شروط الصلح ، شرع الساسة والكتاب في فرنسا وبريطانيا يطالبون باعادة تأهيل الشعب الألماني واقتلاع جذور التمرد والثورة على النظام الأوروبي نفسه ، وحمله على اعتناق النظم الديمقراطية التي يراها الغرب ملائمة له ومحاكمة مجرمي الحرب المسئولين عن ضحايا فرنسا وبريطانيا من القتلى والجرحى ، وعن الدمار والخسائر التي أصابت الحلفاء .

***

كان الساسة في فرنسا وبريطانيا يطالبون بذلك في ذات الوقت الذي اتسع فيه النطاق ببضنهم الاستعمارية حول أغلب شعوب افريقية وآسيا ، وكان الضحايا من الاحرار في تلك البلاد يسقطون صرعى تحت وابل من رصاص جنودهم ؛ وتتخرب مدنهم وديارهم دون أن يرتفع صوت لنجدة الضحايا أو لمساءلة الدوليين عن تلك الجرائم التي دأبتا على ارتكابها والاسترسال فيها .

ان أحدا من ساسة فرنسا وبريطانيا ومن كتابهما ومفكريهما لم يحاسب الدولتين عن مئات الحروب الاستعمارية التي اشعلتا نارها طوال

القرين التاسع عشر والعشرين • ومن الغريب ان بريطانيا وفرنسا اللتين لم تجدا من يز ... بسـا اقترفتا من الفظائع الدامية فى معاملة الشعوب كانتا هما الدولتين اللتين ارتفع صوتهما ليؤاخذا ويحاسبا الشعب الالمانى عن جرائم الحرب وكأنما الحرب لاتكون جريمه وعدوانا الا اذا أوقدت نارها المانيا ؟ اما الحرب اذا شنتها بريطانيا وفرنسا فانها خير وبركه •

وطالبت الدولتان برءوس الصفوه الممتازة من قادة الجيوش الالمانيه والعلماء الذين أعدوا أسلحة الحرب ورجال المال والصناعة الذين موّلوا المجهود الحربى الالمانى ؟ طالب الحلفاء بتلك الرءوس التى كان القضاء عليها بمثابة القضاء ــ تماما ــ على المانيا ؟ فما كانت المانيا فى حقيقتها وفى قوة كيانها غير أصحاب هذه الرءوس الجبارة •

***

انبرى الكتاب وأهل الفكر فى المانيا وقتئذ كما انبرى المنصفون من الكتاب فى بلاد الحلفاء ذاتها ليقولوا للفرنسيين وللانجليز • ارجعوا الى فلاسفه وكتاب فرنسا وبريطانيا ، ارجعوا الى الساسة وأهل الفكر فى الغرب ارجعـــــوا الى داروين Darwin, والى لامـــارك Lamarck, فكلاهما نادى بنظرية التنافس من أجل البقاء ، التنافس الذى يقضى حتما الى الصراع والى الحروب •

تحدى هؤلاء المفكرون بريطانيا وفرنسا وتحدوا دعوتهما الى ماأسمتاه محاكمة مجرمى الحرب ، وسألوا الساسة أصحاب هذه الدعوة •• ألم يناد الفيلســـوف الفرنسى بســكال Pascal, بآرائه التى تقول ان الوجــود الانسانى انما يستند الى القوة ، وأنه بالقوة وحدها تحل المشـــاكل التى تعترض حياة الانسان ؟ وألم يقل الفيلسوف الفرنسى برودون Proudhon, ان الانسان انما يلتقى بنظيره فى الوجود ، أى بأخيه الانسان ، لكى يتصارعا على السيطرة على العالم وليتنافسا فى سبيل البقاء ؟ وألم يقل الجنرال شيرمان Shermann, ان الحـــرب شر لابد منـه وأنهـــا باقية ــ حتما ــ مابقى الجنس البشرى ؟ وألم يقل الفيلســـوف المــــؤرخ فرارى Ferrari, ان الحرب هى العماد الرئيسى للحضارات التى توالت عبر التاريخ ؟ •

أجل ، لقد قال هؤلاء المفكرون المسمون الكبير في هذا الصدد ؛ فذكروا فرنسا وبريطانيا بكل ما يدحض حجة الدولتين ؛ ذكروهما حتى بتوراة اليهود التي مجدت الحروب فقالت : ان الحروب مقدسة وأن الرب يبارك الحرب ؛ وامعانا من اليهود في تقديس الحروب ؛ أطلقوا في بعض عهودهم على الرب اسم (ساباوات) Sabaoth, وتعريبه (اله الجنود) •

لقد قال العادلون النفاة من المفكرين ، لساسة بريطانيا وفرنسا ارجعوا الى الحروب الصليبيه لتروا كيف شهرت فيها الكنيسه السيف في وجه العرب والاسلام ، وكيف رفعت فيها الكنيسه المحاربين الى مصاف القديسين والى مراتب أولياء الله في الارض ، وارجعوا الى ماقاله الجنرال الفرنسي باردان Bardin, من أن الكنيسه تمجد السيف كأداة ووسيله مسيحيه ومن ان القانون لايحل الا بعد أن تحل السيف فيحد السيف – وحده – بحرم القانون •

وتساءل الكتاب ألم يقل مونتسكيه Montesquieu, الفيلسوف الفرنسي ان الشعوب التي تهزم وتغزى اراضيها هي تلك الشعوب التي انهارت أنظمتها وساد الفساد فيها ولم تعد للقوانين احترامها واستبد حكامها بأمرها ؛ وانه لمن الخطأ أن يقال ان غزوها والحالة هذه ضد مصالحها ؛ فان مثل هذه الشعوب لاتخسر شيئا نتيجه لغزوها مادام أن حكامها قد عجزوا عن اصلاح أمورها •

ان الغازي حينما يدخل اراضي شعب بوسيلة أو بأخرى يبدأ في العمل على تخفيف الظلم الذي حاق بالشعب من حاكميه ؛ وأن الغزو من شأنه أن يحطم الأنظمة التي تحد من تطور الشعوب ثم انه يضع هذه الشعوب تحت وصايته أمه أفضل وأصلح !

ارجعوا الى ماقاله ماكيافيل Machiavel من أن انهيار وقيام الامبراطوريات عبر التاريخ انما هو سنة الحياه وهو تعبير عن الحقيقة الخالده وهي احلال الصالح محل الطالح ، وبقاء الحكم للقوة وحدها ، وان

الحق فى خدمة القوة ، وان تلك هى الحقيقة التى تطلب ثابتة عبر التاريخ، وأن الذى يتمرد عليها انما هو انسان لم ينطق الى آثارها النافعة ابدا ،وان الحرب المقدسة ذات الغايات السامية لهى الحرب التى تنشب بين من يملك ومن لا يملك ، بين من فقدت حريته ووسائله وبين من سيطر واوتى الوسيلة . ان مثل هذه الحرب لتعد حربا من أجل استرداد الحقوق التى انتزعت أصلا ، وحربا فى سبيل الشرف والاستقلال .

ارجعوا الى تاريخ فرنسا وبريطانيا البعيد ، والى ماقام بينهما من حروب دامت قرونا واجيالا ، ارجعوا الى حرب المائة عام ، ارجعوا الى جان دارك ، والى حروب الملك لويس الرابع عشرولويس الخامس عشر ؛ ارجعوا الى حروب الثورة الفرنسية ، والى حروب نابليون ، ثم اذكروا ذلك الصراع الذى احتدم بين فرنسا وبريطانيا من أجل التسلط والسيطرة على موارد العالم فى آسيا وافريقية وأمريكا ، فانه على الرغم من هذه الحروب لم تدرك فرنسا وبريطانيا أن مجال النشاط السلمى فى سائر أنحاء العالم فسيح أمام الجنس البشرى ، ولكن الاستعمار وحده هو الذى حال دون انتفاع البشرية فى العالم كله ، هذا العالم الذى مازال فى حاجة الى الأبدى لتزرع أراضيه ، ولتصلح واتصنع لتوفر لجميع سكانه الغذاء والكساء ، ولتحقق لهم الأمن الاقتصادى والاستقرار السياسى ، على أساس من العدالة والحرية .

لم تدرك فرنسا وبريطانيا وسائر الدول الاستعمارية انها بالحرب وبقوة السلاح قد حرمتا شعوبا فى سائر انحاء العالم حريتها وفرضتا عليها الخضوع لهما بقوة الحديد والنار ، واغتصبتا خيرات اراضيها فأشاعتا فى الشعوب الذل والهوان والجوع ، فى حين اختصت خيرات هذه البلاد فرنسا وبريطانيا .

لم تدرك فرنسا وبريطانيا أن ماتنعمتا به لم يكن الا على حساب الحرية والحقوق التى أهدرت ، وعلى حساب الأرواح التى أزهقت فى العالم كله ولم تشعر الدولتان بأنهما حيثما تحدثتا عن قضية الحرية والسلام وعن

حقوق الشعوب فانما كانا نعبان هذا النصر في الحرب الذى توج رأسيهما بأكاليل الغار ، تلك الأكاليل التى صبغتها الدماء ، لادماء اعدائهما فحسب؛ بل ودماء الملايين من ابناء الشعوب التى كانت ترزح تحت الحكم البريطانى والفرنسى ، من هؤلاء الذين ساقتهم الدولتان — سوق الانعام — الى ميادين الحرب دون أن يكون لهم فى خوض معاركها مصلحه وبلا ثمن •

من هذه الدماء الزكية صبغت فرنسا وبريطانيا أكاليل الغار ، وأحرزتا الانتصار ، وفى زهو المنتصر ونشوه الظافر ، راحت الدولتان تتحدثان عن عظمه انتصارهما الزائف فى الحرب العالمية الأولى •

وليت هؤلاء المتشدقين بهذا الانتصار ، تذكروا تلك العبـــارة التى قالها الجنرال الامريكى جرانت Grant فان فيها أعظم وأصدق وصف للانتصار الحقيقى ، فيقول جرانت ان أمجد الانتصـــــارات لهى تلك التى تحقق فى سبيل السلام ، وليست الانتصارات التى تحرز فى ســـــاحات القتال •

لقد تحدثت فرنسا وبريطانيا عن مسئولية الحرب وعن تعويضـــات الحرب ، وعن معاقبة مجرمى الحرب ، تحدثتا لأن الانتصار حالفهما وكانت ولم تزل حجتهما حجة المنتصر أيا كان جنسه أو كان لونه •

***

ولقد تمكنت فرنسا وبريطانيا من فرض ماشاءتا من شروط الصلح أما معاقبة من أسمتهم الدولتان مجرمى الحرب ، فقد عجزت فرنســـا وبريطانيا عن فرض هذه العقوبة على الرغم من الحمله التى قام بها ساستهما وكتابهما من أجل الأخذ بمبدأ المحاكمة ، ولم يحل دون محاكمه القــواد الالمان فى الحرب العالمية الأولى انصراف انجلترا وفرنسا عن هذه المحاكمة واقتناعهما بفساد هذا الرأى وانما الذى حال دون ذلك هو مبادرة الجنرال لودندورف Luddendorf بطلب الهدنة قبل أن تغزو جيوش الحلفاء المانيا وتنتقل المعارك الى اراضيها فتم بذلك للحلفاء السيطرة الفعليـــة

السلطان السياسى على الأراضى الالمانيه جميعها ويقوموا بأنفسهم باتخاذ أي اجراء من محاكمات أو غيرها • ولولا بعد نظر لودندروف لما اضطر الحلفاء الى ترك محاكمه المسئولين عن الحرب القضاء الالمانى نفسه الذى لم يتخذ اى اجراء من جانبه ، ولشاهدت نهاية الحرب العالمية الاولى قيام الحلفاء بمحاكمة القادة والساسة الالمان الذين اعتبرهم الحلفاء مسئولين عن الحرب •

الفصل الثالث

الشعوب المهزومة والشعوب المحكومة

« مهزوم اليوم هو عدو الغد ـ الثار والانتقام ـ البحث عن مثل جديدة وقادة »
« جدد ـ الحرب كانت أزمة كبرى ـ طبيعتها ـ العالم يتحدث عن أسباب الحرب »
« ـ الأسباب الجديدة ـ سيطرة فرنسا وبريطانيا على مصادر المواد الاولية واحتكارهما »
« لاكبر جانب من التجارة العالمة ـ موقف الشعوب المحرومة ـ الاستعداد للعدوان »
« يخلق الاستعداد لصد العدوان ـ الثوره الفكرية ـ الغرب يلبس القوة مسوح »
« العدل ـ الاقوى يفرض قانونه ـ الثورات الوطنية السياسية والاجتماعية ـ »
« الحرب ذاتها كانت ثورة ـ الساسة والمفكرون يحذرون الغرب من مصيره ومصير »
« الاستعمار ـ شيخوخة الغرب ـ تحذير الغرب من وضع المانيا الجغرافي ومن »
« حبسها داخل حدودها ـ وقوع الحرب متى تهيأت لها الاسباب ـ تعبئة القوى في »
« الشعوب المهزومة والشعوب المغلوبة على أمرها ـ أثر تنكر الغرب للمبادىء والعهود »
« والمواثيق ـ العالم يندفع من مظالم الى مظالم جديده ـ قرب انتصار الشعوب »
« الملونة ـ انهيار سيادة الجنس الابيض » .

***

تلك كانت العقلية وتلك كان المفكر الذي سيطر على ساسة فرنسا وبريطانيا وكتاب الدوليين في نهاية الحرب العالمية الاولى ، وفاتهم ان مهزوم اليوم هو عدو الغد ، وان الصلح المفروض لايحل مشكلة السلام وأنه ليس في مصلحة المنتصر ، وليس في مصلحة المهزوم ، أو سائر الشعوب على السواء ان نفرض شروط الصلح على المانيا وحلفائها المهزومين وأن يلزموا بتنفيذها على مافيها من القسوه .

ولقد كان ذلك كله بالاضافة الى شيوع الحديث عن مسئولية الحرب سببا في تحفز النفوس منذ نهاية الحرب العالمية الأولى واستعدادها للانتقام والثأر ، انتقام الاعداء المهزومين من أعدائهم من المنتصرين ثم انتقام فريق من المنتصرين من شركائهم في النصر الذين انفردوا بكل المزايا ، وكذلك

أصبح الشعور بالرغبة فى الثأر والانتقام يسود الشعوب المغلوبة على أمرها لتنقص من حكامها وزعمائها الذين تولوا قيادتها وأصبحوا رمزا لهزيمتها ، وكان فى هذه الشعوب شعور جامح الى الثورة على النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى أدركوا أنها كانت سر ما لحق بهم من فشل وهزيمة .

كان لزاما على تلك الشعوب ان تبحث عن قادة جدد ، وعلى أنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية جديدة ، وكان لزاما عليها ان تبحث عن مثل جديدة . وفيما كانت هذه هى الحال فى الدول المتحاربة سواء المهزومة منها أو المنتصرة ، فان الحال أيضا لم يكن أقل سوءا واضطرابا فى الشعوب التى غدر بها الاستعمار الفرنسى والبريطانى وسيطر عليها وأخضعها لسلطانه ؛ بعد أن كان قد وعدها بالحرية والاستقلال ، فان تلك الشعوب ، لم تكن — بطبيعة الحال — راضية ، ولم تكن أحسن حالا من الشعوب المهزومة ، ومن ثم فقد أخذت تتطلع — بدورها — الى الخلاص ، والى التحرر من نير الظلم .

كل هذه الشعوب — جميعا — تحولت بعد الحرب العالمية الاولى ، الى مراجل تغلى وأصبحت تتلفت حولها لتجد السبيل الى الخلاص والى القصاص ، والى الانتقام ، فكان السبيل الى ذلك امام الشعوب جميعا ، هو : الثورة .

***

لقد أدرك العالم أنه كان من الممكن أن تؤدى الحرب الى هلاكه ، وأنه خرج من أزمة كبرى سقط خلالها أبناء ذلك الجيل فى ساحات الحروب ودمرت دول بأسرها ، ثم تمخضت الأزمة عن شعور يجرف العالم نحو الحياة التى كان ممكنا أن تباد فى الحرب الطاحنة لولا معجزة السماء ، وقد كان هذا الشعور الذى يمثل رغبة ثائرة قلقة مشتركة فى العالم كله سائدا وشبيها ، الحلفاء فيه والاعداء ، المنتصر والمهزوم على السواء ولعل هذا كله كان الظاهرة التى سبقت التطور فى تلك المرحلة من حياة البشرية الطويلة ، وهى مرحلة تميزت بما وقع خلالها من الأحداث

العظام التي تناولت مختلف أوجه الحياة في سائر المجتمعـــات من حيث جوهرها ، وان من عاصر احداثها ووعاها ؛ رأى كيف بدأ الطـــريق الى انتصار المثل العليا والمبادىء القويمة ، وشهد نمو الوعي الانساني في الشعوب فان اتجاه العالم الى مراجعة نفسه والى الكشف عن الاسباب العميقة التي أدت الى كارثة الحرب العالمية ، هو الاتجاه الذي يكفل البقاء ويجنبـــه الفناء الذي أوشك أن يبتلعه ، ويضع عينه على طريق السلام فيمضي فيها .

***

اندفع العالم يبحث ويتحرى من جديد اسباب الحرب العالمية الأولى وبدأ الساسة ورجال الفكر في جميع أرجاء العالم يراجعون تلك الاسباب التي حرص ساسة الحلفاء على تسجيلها وتثبيتها في الاذهان عند عقد الهدنة وتوقيع معاهدة الصلح .

ثم انتهى هؤلاء المفكرون والساسه الى اعلان الأسباب الجديدة التي هداهم اليها تفكيرهم والتي عليها قامت الحرب .. فقالوا ان الحرب لاترجع الى اسبابها الظاهرة التي كانت السند في اعلانها ، بل انهـــا ترجع الى أسباب جوهرية عميقة ظلت تتفاعل ببطء ، خلال سنوات عديدة وأجيـــال متعددة ، اسباب نبعت من التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي في سائر انحاء الارض ولكنها تركزت بنوع خاص في عدد قليل من الدول التي اصبح مصير العالم مرتبطا بارادتها ورهن تصرفاتها ، اذ أنه وضـــح ان سيطرة هذه الدول على مصادر المواد الأولية واحتكارها لأكبر جانب من التجارة العالمية قد خلق شعورا بالضيق لدى الدول التي حرمت هـــذه الخيرات والتي عجزت برغم تفوقها العلمي والصناعي عن الحصول عـــلى المصادر التي يمكن أن تغذي صناعاتها ، كما حرمت الاسواق التي تستهلك انتاجها الصناعي .

كما تبين أن الدول التي تسيطر على مصادر المواد الاولية للصـــناعة وتهيمن على التجارة العالمية ، تشتري ـ بحكم هذه الســـيطرة ـ بأقل الأسعار وتبيع بأغـــلاها فان بيدها مصـــادر المواد الأوليـــة ؛ وبيدها أسواق الاستهلاك ، فكانت تجارتها تزدهر دون أن تقوى غيرها من

الدول على منافستها فى ميدان التجارة العالمية • وكان من شأن هذا الوضع ان تلجأ بعض الدول الى الهبوط بمستوى الأجور فيها ومن ثم الهبـــوط بمســـتوى المعيشة لكى تقوى على منافسة المنتجات الأجنبية التى تتمتع بالامكانيات والمميزات التى هيأها لها الاستعمار •

وعلى ضوء هذه المعرفة والتجارب أدركت الشعوب ـ تمـــاما ـ أن العالم منقسم قسمين ؛ شعوب مسيطرة مستغلة ، وشعوب مغلوبة على أمرها تسلب أموالها وخيراتها لينعم بها المستعمر والمسيطر •

ووضح ان الشعوب التى تمكنت من السيطرة والاســـتغلال ليست مستعدة اطلاقا للتفريط فيما ملكت من مغانم وخيرات وامتيازات فهى ضنينة بما فى يدها من ذلك ؛ لاتنزل عن شىء منه ولا لاصحابه الذين سلبتهم اياه ولا لغيرهم من الدول المنافسة من أجل السيطرة والاســـتغلال ؛ كما أن الدول المسيطرة المتسلطة أغرقت فى اتجاهها وأسرفت ؛ وكان ذلك كله مدعاة لما أصبح يعتمل ـ اذ ذاك ـ فى نفوس الشعوب المحرومة من الشعور بالضيق شعورا متسما بالعنف فى الاتجاهات الفكرية وبالعنف فى العمل •

وبدأ الشعور بالظلم الاقتصادى والظلم الاجتماعى يثقل نفســـية الشعوب التى تبين لها أن مشاكلها وقضاياها لايمكن أن تحل داخل حدودها وأن حلها لابد أن يكون خارج حدودها ، لان هذه المشاكل والمظالم ليست الا أحد آثار السياسة الاستعمارية فى العالم وآثار الاحتكارات الدولية التى راحت تغلق الاسواق فى وجه بعض الدول التى باتت تؤمن بأن استسلامها لهذه الأوضاع يعرض مستقبلها ومستقبل أبنائها للهلاك وبأنه مامن سبيل للتفادى من هذا المصير الرهيب سوى الالتجاء الى قوة السلاح • غير ان مجرد الالتجاء من مثل هذه الدول الباحثة عن الحياة الى الاستعداد والتهيـــوء لتفرض وجودها بالقوة ؛ مجرد هذا الاتجاه كان من طبيعته ان يقـــابل فورا باستعداد مماثل بل باستعداد أعنف وأقوى واسرع تبادر به الدول المسيطرة المستغلة لتصد الهجوم عليها ولتحبط خطة منافسها •

***

تلك كانت أبرز الاسباب التى بدأ العالم يتحدث عنها بوصفها الجذور

الحقيقية العميقه للحرب بغض النظر عن الأسباب والتعللات التى حرصت الدول على تسجيلها ضمن الوثائق الرسمية السياسية وباعتبار انها الاسباب الرسمية للحرب .

اذن فقد كانت النزعة الاستعمارية ، وكان تنافس الدول الكبرى على سلب حقوق الامم والشعوب المغلوبة على أمرها والتى سيطر عليها الاستعمار هى كل أسباب الحروب .

وبالرغم من اتضاح هذه الاسباب وكشف هذه النزعة ، ظل حكام الغرب مصرين على تغطيتها وحجبها وراء الاسباب الكاذبة التى تمادوا فى الحديث عنها بوصف انها كانت اسباب الحرب العالمية . وفى غمار الحديث عن هذه الاسباب أسرف الحلفاء فى اثناء تلك المرحلة فى قطع العهودوبذل الوعود التى تنكروا لها فيما بعد ، وفاتهم ان تصريحاتهم وعهودهمووعودهم للشعوب ايام الحرب العالمية انما هى سلاح ذو حدين ، فكما يمكن الخداع بها يمكن أيضا أن تؤلبعليهم الشعوبالمخدوعه ، ويمكن أن تخلق ثورة فكرية تتجه الى القضاء على هذا النوع من السياسة القائمة على الخداع ، وهذا هو ماحدث بعد نهاية الحرب العالمية الاولى فان هذه الثورة الفكرية انبعثت وظلت تتفاعل فى النفوس ومضت ــ على الايام ــ فى مجراها الطبيعى الذى أدى الى تطورات مادية وثيقة الصلة بكل ما ألقى من تصريحات الحلفاء خلال تلك الحرب ، وبكل مابذل من وعود وعهود ، ثم بالاوضاع الظالمة الكريهة التى آلت اليها مصاير الشعوب بعد الحرب العالمية ، تلك المصاير التى أكدت لأصحابها أن الآمال التى بعثتها تصريحات الحلفاء ووعودهم ، لم تكن الا سرابا ، ومن هنا بدأ العامل النفسانى ــ كقوة ــ يلعب دوره فى مجاهدة العابثين الساخرين من عقول الأمم والشعوب . وما من شك فى أن هذا العامل يشكل فى الشعوب طاقة روحية تتضاءل الى جانبها الطاقة المادية .

***

ان الحرب العالمة الأولى انتهت بهزيمة المانيا وحلفائها ، وتمخضت عن النزعة الاستعمارية ، ومكنت فرنسا وبريطانيا من اقرار القوة والباسها

ثوب الحق لتفرضاها على الشعوب فرضا بحيث أصبحت القوة متى كانت في مصلحتهما هي الحق •

وبينما كانت بريطانيا وفرنسا سادرتين في سبيلهما هذه في نهاية الحرب ، كانت هناك دول وشعوب تتجه الى نزعات سياسية واجتماعية واقتصادية فرضتها عليها التجربة ، بعد ان تبين لها ان بريطانيا وفرنسا اللتين انتصرتا في الحروب وسيطرتا على مصير العالم قد داستا كل قانون وكل مبدأ أخلاقي ، وبعد أن بدا لهذه الشعوب أنه لاأمل في أن تصبح الأخلاق ويصبح الحق أساسا للعلاقات الدولية ، وبحكم التجربة استقر في يقين هذه الامم التي ذاقت الأمرين من عدوان الاستعمار ، ان الأقوى يفرض قانونه ، ويجعل من مطامعه حقوقا مقررة ، فان الدول القوية اندفعت في سبيل التوسع الاستعماري ، بحيث لا يتوقف توسعها الا حينما تعترض سبيله دولة في مثل قوتها أو أقوى منها ، فاذا أزالت هذه العقبة وأمنت على خطتها التوسعية انقضت على غيرها ملتمسة لعدوانها سندا أو آخر من سند القوة أو قانون الغاب ، ثم اتخذت من وضعها العدواني حقا دوليا تستبيح به استعمارها لغيرها •

ان الحرب العالمية الأولى تمخضت عن آثار شملت العالم كله ، وعن ثورات تبلورت فيها المبادىء السياسية ومختلف النزعات الاجتماعية والاقتصادية ، وعن ثورات وطنية ضد العدوان الأجنبي وللتخلص من الاحتلال ، ولكن دون أن تمس الثورة الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في البلد الثائر • لقد خلقت الحرب العالمية الأولى ثورات شاملة وخلقت أوضاعا ، وخلقت نظما ، وخلقت دولا جديدة في أوربا •

***

ويمكن القول بأن الحرب العالمية الاولى كانت في ذاتها ثورة عالمية قامت بها الدول والشعوب بعضها ضد البعض الآخر ، أعني انها كانت ثورة قامت بها دول ضد أخرى ، ولم تقم بها لمجرد الكسب المحلي ، وانما من أجل تغيير الأوضاع الدولية في مختلف أنحاء العالم • وكانت ثورة باعتبار ان الدول المتحاربة كانت في هذه الحرب فريقين ، فريق حمل سلاحه من

أجل ان يغير اوضاعا يفيد منها الفريق الآخر ومن أجل ان ينزع منه مافى يده وفريق يعتبر ان مافى يده حق له ، وان الأوضاع القائمة حقوق ترقى الى مستوى القانون ، ومن ثم فقد اعتبر العدوان على هذه الحقوق وعلى تلك الاوضاع ، تمردا على القانون وثورة ضد سلطانه قام بها الفريق المعادى فى صورة حرب .

وكانت الحرب العالمية الاولى ثورة نشبت بسبب ان دولا حاولت ان تنتزع لنفسها من دول أخرى مزايا انفردت بها ، أو على الاقل تشاركها فى هذه المزايا بالرغم من ان هده المزايا اكتسبها الفريق المعتدى عليه عن طريق العدوان على الآخرين ، فهى ثورة بصرف النظر عن الباعث عليها لأن هذا الباعث لم يكن اذ ذاك محل بحث ، ولأن هذه الدول وقد امتلأت قوة وثقة واعتدادا بالنفس وبالامكانيات ، فان الواقع المادى فى نظرها كان يدفعها صوب التوسع المادى .

ان الحروب فى عهدنا الحديث قد أصبحت ثورات امم ومبادىء ضد أمم ومبادىء أخرى ، لأنها أصبحت حروبا شاملة لاتقتصر على الجيوش المتحاربة ، بل تمتد الى العالم بأسره ، ومن ثم فان العالم بدأ يدرك ان الصراع بين الاجناس وبين الانظمة أمر واقع وانه يحتم تكتل الاجناس وتكتل الأنظمة والمصالح على أوسع صورة ، لأن الدول التى كانت تملك الاموال وتسيطر على مصادر المواد الاولية وتجهد لتحقيق النمو الاقتصادى والصناعى برغم ما بينها من عوامل التنافس تعمل هى ايضا على التكتل لمواجهة الدول المعادية التى تنافسها وتحاول انتزاع ما بيدها من خيرات ، كما أن الدول التى صدمتها الأحداث وخلفت لها خرابا ووبالا ، اوعلى الأقل لم تحقق الحرب آمالها العريضة ، هذه الدول خرجت من الأحداث التى منيت بها بالعبرة التى دفعتها الى الثورة على أوضاعها الداخلية من أنظمة حكم وقواعد سياسية واقتصادية واجتماعية .

***

لقد كان العالم فى نهاية الحرب العالمية الاولى يتجه فى معظم البلاد الى الثورة ، تلك الثورة التى سنوضحها للقارىء ولكن سنتصدى لها فى نطاق

الدول ذات الصلة بتاريخ الشرق وفى تكييف تصرفات الغرب ازاء الشرق، فضلا عما كان لهذه الدول من صلة مباشرة بما وقع من أحداث فى الشرق فيما بعد، وهذه الدول هى روسيا والمانيا وايطاليا وتركيا . سنعرض الى الأحداث التى وقعت فى هذه الدول، ونتحدث عن ثوراتها على الاوضاع التى كانت قائمة، ثم نستعرض وضع الولايات المتحدة الامريكية وموقفها من الحرب وحالة بريطانيا وفرنسا بعد الحرب، ثم نستعرض بعد ذلك ثورة الشرق العربى ضد الاستعمار .

وقبل أن نختم هذا التمهيد يتعين علينا انصافا للحق ان نشير الى أن الغرب لم يحرم وقتئذ الساسة المفكرين الذين نبهوه الى المصير الذى ينتظره وينتظر الاستعمار على المدى القصير او الطويل، فقد أجمع هؤلاء المفكرون على ان تطور الامور بالنسبة للاستعمار سيحتم على الغرب ان يتنازل عن سيطرته، وقالوا ان الطريق الحتمى الذى سيتعين على الغرب المضى فيه هو : أولا، الاستجابة الى مطالب الشعوب المغلوبة على أمرها بمنحها المزيد من الحكم المحلى .. ثم المزيد من الحكم الذاتى .. ثم المزيد من الاستقلال ويقول اللورد سيدنهام Lord Sydenham ان الاستعمار يخضع فى هذا الشأن الى تطور مرير وحكم قاس، ولكن هذا امر حتمى بحكم التاريخ.. ولقد دفعت الامبراطورية الرومانية وجودها وكيانها ثمنا لهذه الحقيقة، وربما نقضى هذه الحقيقة على الغرب ذاته . ويختم لورد سيدنهام اعترافه بهذه الحقيقة المريرة فيقول محدثا الغرب .. اذا سلمنا لاى شعب بأى مطلب لم يكافح فى سبيل الحصول عليه ولم يدفع من أجله ثمنا باهظا، فان هــذا الشعب سيستخف بنا ويستهين بقدرنا ويصبح هو والاجيال القادمة من ابنائه اعداء لايذكروننا الا بالسوء .

لقد سجل الكتاب والمفكرون أن السلام وأن الحرية فى مواثيق الحلفاء ووعودهم لم يتجاوزا مجرد الكلام والحديث عنهما، وان اخلال الحلفاء بوعودهم ومواثيقهم هذه أفقد العالم ايمانه بالقيم الروحية، وان الغرب ذاته سيكون أول ضحايا المبدأ الذى أقره العالم، مبدأ القوة التى اصبحت سند الغرب ووسيلته لتحقيق مطامعه فى سائر أنحاء الارض .

لقد حذر الكتاب فى الغرب دوله ونبهوهم الى أن فى تنكرهم للمبادىء تحديا لأولئك الذين وثقوا بهم واطمأنوا الى عهودهم ومواثيقهم ، وان ذلك يجعل منهم ــ حتما ــ اعداء لمن خدعوا بمواثيقهم ، ويفقد العالم ايمــانه بالمبادىء ذاتها .

حذر هؤلاء الكتاب الغرب وقالوا لساسته ان شريعة الغاب هى التى ستسود ، وان الشعوب المهزومة والمغلوبة على أمرها والمحرومة لن تقف عند حد المطالبة بحريتها ، أو تحقيق رخائها ، ولن تقف عند حد المطالبــة بالعدالة واحترام الحقوق ، ولكنها ستتخذ سبيل الغرب ذاته وتنهج نهجه ، وتسعى لا للحصول على حقوقها فحسب ، بل للسيطرة ولكى يتحقق لهــا السلطان على غيرها ، وعلى هذه الصورة فان العالم سينتقل من مظالم الى مظالم جديدة ، ومن آلام وكوارث الى آلام وكوارث جديدة .

نبهوا الغرب الى ان الشعوب التى خابت آمالها ستتجه حتما الى قادة وزعماء ينادون بالمثل والاهداف التى تتطلع اليها هذه الشعوب ، سيلقون بأزمة قيادتهم الى زعماء يشيعون فى العاصفة التى تهب فى وجه الغرب قشعريرة الخوف والاضطراب ، الخوف الذى يفقد الغرب جل المزايا التى يسعى الى تحقيقها والتى تعتبرها تلك الشعوب حقا مسلوبا منها ، فى حين يعتبر الغرب ان ذلك من الشعوب ما هو الا ظلم يقع عليه لانتزاع مزايا ينعم بها فعلا .

نبهوا الغرب الى انه غريب عن مشاعر أولئكم الذين يتطلعون الى العدالة والى الحرية والى استرداد الحقوق لأن حريته لم تسلب ولم يعم الفقر شعوبه بسبب ان أمما أخرى سلبتها خيراتها ، بصر هؤلاء المفكرون ساسة الغرب بالانحلال الذى دب فى المجتمع الغربى وبما ســيقابله فى المعسكرات الأخرى من تعبئة للقوى المادية والمعنوية تعبئة تؤدى ان عاجلا أو آجلا الى صراع آخر ، وبأنه الى أن يقع ذلك الصراع سيخيم عــلى الشعوب شعور الاضطراب وعدم الاستقرار فيحرمها نعمة السلام وراحة النفس ، ولن تطمئن الشعوب الى مثل هذا السلام وانما ستعمد ــ حتما ــ الى توفير أسباب القوة التى تحميها من العدوان .

وكتب المفكرون يذكرون الغرب بأن المانيا بحكم وضعها الجغرافى مقضى عليها بالتحرك أبدا وبالسعى الى توفير المجال الحيوى لأبنائها شرقا أو غربا ، المجال الحيوى لصناعتها ولتجارتها ونشاط شعبها ، والا قضى عليها بالفناء وانها لن ترضى بما أعده الغرب من خطط لتجميدها فى مكانها ، وأن انفجارها كالبركان العنيف سيكون هو الرد على خطط الغرب ، وانها لن تقبل أن تقف مكوفة اليدين فى حين ينقسم الغرب خيرات وثروات العالم ، وان ثورة الشعب الالمانى الدائمة ضد وضعه الجغرافى وموقف الغرب واصراره على حبس هذا الشعب داخل حدوده هى الاسباب العميقة لهذا العداء المستحكم الذى اشعل نار الحرب العالمية الأولى وسيكون دائما السبب فى اشعال نار حروب أخرى تدور رحاها فيما بعد متى تهيأت لها الأسباب ، وان المانيا المهزومة ستظل ابدا ذلك المارد الجبار الذى كبله خصومه فى قيد من حديد ، ويوم ان يحطم المارد قيده سينقض عليهم غير مبال بما سينزل به أو بخصومه من دمار وخراب .

***

ولم يقف جهد الكتاب والمفكرين على تحذير الغرب من نتائج سياسته ازاء المانيا وازاء من خدعهم وتنكر لهم من حلفائه ذاتهم ، بل حذروه ايضا من المصير الذى ينتظر الاستعمار ، بل ينتظر مستقبل الجنس الأبيض ذاته .

بدءوا يتحدثون عن حكم التاريخ فى تطور الجماعات والشعوب والاجناس . بدءوا ينذرون الغرب بأنه وصل الى مرحلة الشيخوخة فى الوقت الذى بدأت تنهض فيه أجناس أخرى من انهيارها الذى أعقب فى سالف الازمان شيخوخة سابقة لها ، فدار الزمن وعادت من جديد فتية شابة تتطلع الى حقها فى الوجود والبقاء . والى حقها فى النمو والتطور ، وهى حقوق لن تحصل عليها تلك الأجناس الا على حساب الغرب .

وجهوا نظر الغرب الى ان الثورات الوطنية ستفسح الطريق امام قوميات غلبت على أمرها فى الماضى ، قوميات تضطلع ببعثها وبالدفاع عنها سواعد فتية قوية مستميتة مؤمنة ، شديدة التعصب والاندفاع سيكون لها

خطرها الداهم على مستقبل الغرب الذى يتعين عليه ان يهيىء نفسه ليواجه مواقف من الذل والهوان ، لم تألفها أجياله الحالية التى رأت سيطرة الغرب على آسيا وافريقية ، وان كان على الغرب الا ينسى أنه سبق أن قامت امبراطوريات فى آسيا وافريقية وسيطرت على أوربا وعلى أنقاض الامبراطورية الرومانية وبيزنطة . وعليه ألا ينسى أن نجمه لم يتألق الا بعد أن تألق نجم الغرب وعمت حضارتها أوربا وكانت مصدر نهضتهم ، وذكر المفكرون الغرب بدنو ذلك اليوم الذى ينهزم فيه الغرب امام الشعوب الملونة ، وأن الصراع بين الشعوب البيض سيتحول الى صراع بين الجنس الابيض والشعوب الملونة التى أخضعها الغرب لحكمه وسلطانه ، وان الشعوب الملونة فى طريقها الى تحقيق حريتها واستقلالها ، وان نظرية بقاء الاصلح سينعكس تطبيقها ويتحول لمصلحة تلك الشعوب ، وعندئذ تنهار بدورها نظرية سيادة الجنس الأبيض وصلاحيته دون سواه لقيادة العالم .

ولقد كتب فى ذلك سلفان ليفى Sylvain Lévy, العالم الفرنسى يقول ان ما يشاهده الانسان من الشرق هو تحلل اوربا وانهيارها ، أما الكاتب الفرنسى اندريه جيد André Gide. فقد كتب يقول : يخيل الى اننا نشاهد نهاية العالم ، نهاية حضارة ، نهاية ثقافة ، وعلينا أن نعيد تدبر الموقف بأكمله .

ولقد كان ـ حقا ـ على الغرب ان يعيد تدبر الموقف لانه كان يواجه ثورة العالم كله ضده .

الفصل الرابع

الثورات

« الثورات ذات طابع شامل ـ طبيعتها وقوتها وتطورها ـ ثورة الكنيسة ـ الثورة »
« ضد الملوك ـ الامة مصدر السلطات ـ اثر الثورتين الانجليزية والفرنسية في تطوير »
« نظام الحكم ـ الحق في الحرية والمساواة ـ الغرب وثورات الشعوب ـ الشعوب »
« وانتزاع حقوقها ـ مراحل الثورات ـ نجاح الثورات وفشلها ـ التغيير هو رمز الثورة »
« ـ الاساليب الثورية » .

***

ان الثورات من أحداث التاريخ الكبرى ، ولقد أصبحت فى عصرنا هذا تحمل طابع الشمول تبعا لما يطرأ على طبيعة الشعوب والجماعات من وعى وتطور ، وما تلتزمه الهيئات الحاكمة من مبادىء وقوانين .

والثورة حركة تنبعث بين مؤمنين بمبدأ وبعقيدة ، وقوتها تستند الى قوة العقيدة والمبدأ الذى تنادى به . والثورات تحدث تطورات سريعة لامعة حتى ولو كان طابعها وقتيا ، فان آثارها تصل الى اعماق الجذور التى تعيش عليها البشرية منذ أقدم العصور ، فالثورة هى التى تمد الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بالحيوية . ولقد عرف العالم أول ماعرف الخضوع لرب الاسرة ، وعندما تعددت الأسر وتكونت الجماعات وواجهت صورة من الحياة المشتركة ، استقر الأمر الى الاقوى والأشجع والأحكم من بين ارباب لأسر ؛ فكان هذا الاتجاه أول صورة من صور الزعامة . ولقد تعرض ماكيافيل لتفسير التطورات السياسية التى حلت بالمجتمع فقل : ان هذا النوع من الزعامة الذى يستند الى التأييد الشعبى ظل قائما طالما حافظ المسئولون عنه على تقاليد وسيرة السلف الصالح ، بحيث كان اذا تخلف هؤلاء عن هذه التقاليد وهذه السيرة ، انبرى اليهم رجل جديد ليصادر السلطة التى انحرفت .

ولقد انتقل العالم من هذه الصورة البدائية للحكم الى صورة أكثر وضوحا وأوسع نطاقا عندما اتسعت قاعدة القبيلة ونشأت الامارات والممالك فى التاريخ القديم • ويقول « ماكيافيل » ان الامارات والممالك التى قامت كانت تستند الى نظام حكم يمارس فيه الأمير أو الملك سلطته ويعاونه فى ذلك عبيد وان كانوا يرتدون ثياب الوزراء والحكام ، وكان الحكم فى هذه الحالة للامير والملك منفردين • اما الصورة الاخرى فقد كان الحكم فيها لأمير أو ملك تناظره الطبقة الارستقراطية التى استمدت وجودها من ذات المنبت الذى استمد منه الامير أو الملك وجوده ـ فينازعونه السلطان ـ وفى كلتا الحالتين يقول « ماكيافيل » انه كان متعذرا على الملك أو الأمير أن يحتفظ بالحكم طويلا •• بل كان لامناص له من مواجهة الثورة •

وقد تطورت النظم السياسية فى الممالك والامارات ولم تعد كلمة الملك أو الأمير هى القانون الذى يعلو على حقوق الشعب وعلى حق الوطن ، ولم يعد الأمير أو الملك هو الدولة ، فطاعته فرض مقدس على الرعية • غير ان التطور الذى تم لم يكن لمصلحة الشعب بل كان لمصلحة الطبقة التى كانت تنازع الملك أو الأمير السلطان ـ الطبقة الاقطاعية ـ ويصفها « ماكيافيل » فيقول : انها تلك الطبقة التى كانت تعيش فى الكسل والخمول ، ويكفل لها ما تحصل عليه من دخل ، ولكى يأمن الأمراء أو الملوك جانبها رفعوها عن مستوى عامة الناس ومنحوها الاراضى والقصور والاموال والرعايا ، رفعها الملوك ليستعينوا بقوة سواعد أفرادها وربطوا مصيرهم بمصيرهم مستغلين جشعهم الدائم ونهمهم للمزيد من الثروة وللمزيد من السلطان وقد انتهى الأمر بهذه الطبقة الى حالة من الخمول والكسل فعاشت عيشة فاجرة دون ان تتكلف مشقة السعى وراء الرزق •

كان من الطبيعى أن تثور تلك الطبقة على الأمراء والملوك كلما تبينت تراخيهم فى الاستجابة لمطالبهم ، فكانت ثورات على حقوق الملك ، ثورات ضد الطاعة والولاء للملوك • ثورات على حساب الشعوب •

وعندما اعتنق الامبراطور الرومانى قسطنطين الدين المسيحى واستقر

الأمر رأى ان يسيطر على الديانة المسيحية ، فأدمج الكنيسة فى الدولة ووضع لها الانظمة الادارية التى حولت رجالها الى موظفين رسميين ، بل انه ذهب الى أبعد من هذا فجعل لنفسه رياسة وتوجيه المؤتمرات الكنسية والى هذا الاجراء الذى عمد اليه الامبراطور قسطنطين ترجع اقامة اول كيان للكنيسة ، ثم أخذ فى التوسع فيه على مر الزمن ؛ وقد ازداد هذا الكيان قوة وفاعلية عند انهيار الامبراطورية الرومانية ، اذ رأت الكنيسة ان تبتدع نظرية وراثة الباباوات للسلطتين الدينية والمدنية عن عيسى عليه السلام .

وكان هذا التخريج الذىألبسته الكنيسة الطابع الدينى المجرد ،من حيث واقع الامر ، مجرد تقليد للخلافة الاسلامية التى سبقت فى الوجود التاريخى حكم الكنيسة المدنى ومحاولتها للسيطرة سياسيا على المسيحيين كافة ، وحرصت الكنيسة على اقتباس نظام الخلافة برغم افتقارها الى ذات المصادر الدينية التى اعتمد عليها الخلفاء فى ممارسة سلطانهم . فمنهذه الزاوية كانت ثورة الكنيسة على الأمراء والملوكمرحلة من مراحل تطوير المجتمع الأوربى ، ولكن محاولة تحكم الكنيسة فى المسيحيين كافةبالرغم من عدم تجانس جميع الشعوب الاوربية قد باءت بالفشل مما دعا الى تمرد المسيحيين انفسهم على سلطة البابا ، فكانت الثورة الدينية وما تلاها من حروب ظلت تمزق أوربا حوالى قرن من الزمن ، ولما فقدت الكنيسة سلطانها الدنيوى واقتصر سلطان البابا المدنى على نطاق محدود من الاراضى فى ايطاليا ذاتها ، تحفز الملوك للعمل على تثبيت سلطانهم ضد النبلاء وضد الكنيسة ، فهبت ثورة الملوك ضد النبلاء والاشراف وضد الكنيسة ، وبلغت هذه الثورة القمة فى القرن السادس عشر ، وكان من شأن نجاح الملوكفى ثورتهم ان يقروا المبادىء التى رأوا انه لاحياةللملكية بدونها فجعلوا الملكية حقا يتوارثونه باعتبار انه حق شخصى ، ذلك الحق الذى شبهه « ارنست رينان » بحق الانسان فى التملك المادى ، وعندما رتب الملوك حقهم على هذه الصورة استقر فى اذهانهم انهم مصدر كل السلطان وأصبح أساس

الملك هو حق التاج فى السيطرة على الناس وعلى شئونهم من أمـــوال وأرواح .

***

وقد كان من شأن هذه الأوضاع ان اندفعت الشعوب بتأثير من انتشار الوعى فيها الى الاتجاه المناقض لحق الملوك ، فأدركت انها وحدها ، وليس التاج مصدر السلطات ، وقد ساعد على تثبيت هذا الوعى مسلك الملوك ذاتهم الذين جعلوا الدولة فى اشخاصهم ، فهم يتصرفون فيها دون رقيب أو معقب . ولقد عن للشعب الانجليزى ان يثور عندما توافرت فيه عنـــاصر الثورة ، فثار وتزعم ثورته كرمويل ، وأدت هذه الثورة الى تطور نظـــام الحكم ، فلم يعد بوجهه القـــديم ، بل عاد يستند الى أسس جديدة هى الاعتراف البطىء المتدرج بأن السلطان للدولة وليس للملك ، وبأن الامة هى مصدر السلطات ، وتبعا لذلك اصبح مبدأ فصل السلطات حقيقة واقعة ، حقيقة تحركت ببطء ، ولكن بخطا ثابتة حتى استقر الامر عليها .

***

ولما هبت الثورة الفرنسية تنادى بمبادىء الحرية والاخاء والمساواة وقضت على الملكية واجهت فرنسا أبشع صور العنف والصراع الداخلى ، ولكنها نجحت بالرغم من ذلك فى تحقيق وحدتها الوطنية قبل ان تحقق المبادىء التى قامت عليها ثورتها ونادت بها ، ذلك انه كان متعينا على فرنســا وقتئذ ان تواجه أوربا المتحدة ضد المبادىء التى كانت تنادى بها الثـــورة الفرنسية ، ولقد أتاح تكتل أوربا ضد هذه الثورة لنابليون فرصة القبض على زمام السلطان ، فخضعت فرنسا لحكمه فى حين تولى نقل مبادىء الثـــورة الفرنسية جنود نابليون فحملوها معهم الى سائر البلاد الاوربية ، واذاعوها حيثما تنقلوا ، فاذا بها تتحول الى رمز لحقوق الانسان ينادى بها فى كل مكان .

***

وقد اجمعت كل هذه الثورات على ان اول حقوق الشعوب هو حقها فى الاستقلال ، وفى الكرامة ، وفى العزة الوطنية ، وان الثورات فى أوربا ،

في تطبيقها للمبادىء التي نادت بها ، قد مهدت الى تطوير المجتمع الاوربي ، لانها عندما نادت بالحرية كان واضحا للشعوب أنه لاحرية دون مساواة؛ لانه بغير هذه المساواة يكون المجتمع قائما على اساس التبعية ، تبعية بعضه للبعض الآخر ، اذ ان معنى هذه التبعية في المجتمع الواحد انه لاحـــرية لافراده •

ولما كان تحقيق المساواة عملا من أعمال الدولة لايمكن ان يقوم به غيرها ؛ فان الشعوب اتجهت اليها في ذلك وحملتها العبء لتحقيق المساواة وكفالة الحريات وطالبتها بالتدخل لحماية الحريات عن طريق المساواة بين الأفراد ، بحيث لاتكون مواقف الحكومات مواقف سلبية أمام حرية يطغى فيها القوى على الضعيف ، لأن الحرية المتروكة لاتحمى الضعيف من طغيان القوى ، وانما الذى يحميه هو القانون •

ولم يكن ممكنا أن تتدخل الدولة على هذا النحو ، ويتم هـــــذا التطور الا بالكفاح لأن النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية لها حياة ولها بداية ولها مراحل نمو وتطور ولها نهاية ، وهي تخضع في ذلك لجميع القوانين التي تحكم الحياة ، فالحياة تمر بمراحل نمو وتطور حتمية لأنهـا مراحل ضرورية وأساسية ولاغنى للشعوب عنها • ولهذه المراحل ســير يتأثر ويتكيف سرعة وبطئا بمختلف العناصر التي يتكون منها الوعى ، ومدى ادراك الشعب لحقوقه ازاء النظم القائمة والأوضاع المقررة ، واذا لم يساير النظم القائمة تطور الوعى والسرعة التي ينمو بها ، حدث حتما رد الفعل الذى هو النتيجة الحتمية مهما طال المدى لتجاهل الحقـــائق المتعلقة بتطور الشعوب ونمو الوعى الوطنى والسياسى والاجتمـــاعى والاقتصادى فيها •

ان تجاهل هذه الحقائق ، أو ادعاء القدرة على التغلب عليها أو اضعاف اتجاه السير فيها في الشعوب والأمم هو ـ وحده ـ الذى يحدد الخـط الذى تسير فيه الأحداث •

***

لقد تبين لنا في مختلف مراحل التاريخ ولا سيما في نهـاية الحرب

العالمية الأولى ، أن بريطانيا وفرنسا زعمتا القدرة على التغلب على ثورات الشعوب والأمم ، كما تصور أعضاء الأسر الحاكمة في بعض الدول التي غلبت على أمرها في تلك الحرب أنهم قادرون على معالجة الأوضاع الداخلية بأنصاف الحلول ، ولكن الواقع كان قاطع الدلالة على بطلان هذا الزعم ، فأنصاف الحلول قد أكسبت اصحابها فسحة من الزمن فتوهموا أنهم حققوا كسبا في حين أن هذا قد زادهم قلقا على قلق ، ودفع عملية التطور في سرعة أقوى من السرعة التي كانت تسير بها ، سرعة محمومة غير مستقرة ، تمهد لما وراءها من عنف الهزات لأن التاريخ لم يسجل لشعب من الشعوب أنه حقق لنفسه الكرامة الوطنية واحتفظ باستقلاله وصانه ، وكسب حقوقه السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، لم يسجل التاريخ أن شعبا حقق ذلك كله بالوعود ، استنادا الى قواعد الأخلاق وحدها والسلوك الانساني . بل ان التاريخ قد أثبت أن هذه الحقوق لابد أن تنتزع انتزاعا من الأسر الحاكمة التي تتجاهلها ، ومن المستعمر الذي يغتصبها ، فكلاهما حليف ، وكلاهما عدو للشعوب ، وهما يمثلان الأنظمة التي تعمل على الاعتداء على الشعوب وسلبها حقوقها ، وكلاهما يجتذب حوله مصالح ترتبط بوجوده . ومن الطبيعي أن هذا النوع من الأسر الملكية الحاكمة كان يعتبر الشعوب ملكا للأسرة الحاكمة . ومن ثم فلا يمكن القول بأن قيام نظام الحكم الملكي يتفق ومصالح الشعب ، ويعبر عن ارادة الأمة ، أو أنه والشعب يربطهما مصير واحد . وان التاريخ لحافل بما يقطع تماما بأن مثل هذه النظم كانت العدو الطبيعي للشعوب ولحقوق الشعوب لأنها تقوم على أساس هذه الحقوق وفي ظلها ينحرف الحكم ويواجه الشعب حكاما يمارسون السلطة لمصلحتهم ومصلحة أسرهم على حساب حقوقه ، وعلى حساب مصلحته .

***

ان الشعوب في مجموعها تتميز باتجاهها الى تحقيق مصير أفضل يحدوها أمل في ان يقودها في سبيلها هذا ذوو الكفاية عقلا وخلقا من ابنائها ليطوروها وفقا لتقاليدها وعاداتها وعقائدها ويسخروا موارد الدولة لخدمة

الشعب متجردين عن الغرض والهوى فى حين ان الانظمة التى كانت قائمة فى نهاية الحرب العالمية الاولى كالنظام القيصرى فى روسيا ونظام الحكم العثمانى فى تركيا والحكام الذين نصبهم الاستعمار فى شتى البلاد كانت كلها أنظمة فاسدة ، فالحاكمون فى ظلها كانوا بحكم وضعهم وبحكم اتجاهاتهم ومصالحهم بعيدين عن الشعب لا يرتبط مصيرهم بالشعب بقدر ما يرتبط بالاستعمار ، وكان طبيعيا ان يتحرك وعى الشعوب حيال مبادىء تلك الانظمة وهذه الاوضاع التى قامت اساسا على تجاهل حقوق الشعوب واغتصابها ، وكان من شأن امعان حكام هذه النظم فى العدوان على الشعوب التى يحكمونها ان انكشف الستار تدريجيا عن مساويهم ، وكان ذلك من أقوى الدوافع التى تحمل الشعوب على الكفاح من اجل التخلص من هذه النظم فى حكمها ، وهذا واجب على الشعوب لانه يتعين عليها ان تحرص على مستقبلها وازدهارها ؛ وان تجتهد لكى تتجنب كل ما يؤدى الى هلاكها .

وعلى أية حال فان الملوك لم يكونوا - يوما ما - رمزا للتعبير الفعلى عن حاجات الشعوب ولا رمزا على أمانيها ، وحتى تلك النظم التى قامت فيها الملكية نتيجة المبايعة ، تبين انها انتهت بتخلى هؤلاء الملوك عن الرسالة التى ألقيت عليهم ، فاغتصبوا السلطان وتجاهلوا أركان المبايعة التى كانت فى حقيقتها عقدا ربطهم بالشعب ، فلما أخلوا به استحقوا الاقالة ، لانه لايجوز لواحد أن يتمسك بحقوق له مترتبة على الالتزامات عليه ويتجاهلها أو يتنكر لها أو يعتدى عليها اعتمادا على سلطان القوة الذى وضعه الشعب فى يده ، فحتى مثل هذه الملكية التى قامت على المبايعة قد انحرفت عن رسالتها وأصبحت فى تعداد أعداء الشعوب فى نهاية الحرب العالمية الأولى .

***

قلنا ان لكل ثورة بداية ونهاية ، نهاية لبداية وجدت فى اللحظة التى يبدأ فيها الانحراف والاعتداء على حقوق الشعوب ، وان هناك رابطة منطقية وحتمية بين البداية والنهاية ، أما ما يتخلل الفترة التى تنقضى بين البداية والنهاية ، فانه هو ما يحشوه الزمن من التطورات والأحداث التى تغذى التاريخ .

وقلنا ان كل انتقال وكل تطور من وضع الى آخر لا يتم دون التغلب على مقاومة ، وكل دفع الى الأمام ينتج عنه احتكاك ، كما وأن التقدم لايتم الا بالقضاء على العقبات التى تعترض طريقه ، فما كانت الثورات الا انتفاضة قوية ضد اوضاع يجب ان تزال ، وهى انتفاضة يحدوها دائما الأمل فى حياة أفضل ومستقبل أفضل ، والثورة الناجحة هى التى لاتقف عند حد التخلص من الوضع الذى كان قائما قبل ان تقوم ، أى التى لاتقف فى منتصف الطريق ، والا حفرت قبرها بيدها ، ولابد لكل ثورة من فلسفة ذات عقيدة ونظريات ومبادىء تكون اساسا للعمل ، على ان هذه المبادىء والنظريات لاتثمر مالم تجد من يعمل على تثبيتها وتحويلها الى حقيقة واقعة راسخة فى القلوب ، متأصلة فى اعماق أفراد الشعب ، بحيث تتحول الى عقيدة تسترخص فى سبيل الدفاع عنها النفس والمال والولد •

والثورة تبدأ بعمل عنيف تقوده ثلة تكون بمثابة الرأس المفكر والمدبر للأمة ، وتتوقف قوة الثورة على قوة الدفع التى تستمدها الامة من قيادتها الثورية ، وبدون هذه القيادة تصبح الأمة جسدا بلا رأس ، وتغيير شكل الحكم واسم الحاكم لايعتبر ثورة ، فالثورة هى ذلك التغيير الذى يكون وراءه فلسفة وعقيدة ، كما انها وليدة نقص يحس به المجتمع ويندفع بقوته الى التفكير فى صورة لحياته ونظمه أفضل من تلك التى يعيشها ، وبقدرما تتسع دائرة هذا الاتجاه الفكرى فى الشعب ، وبقدر شمولها لعامة الأمة وخاصتها يمكن تحديد ما يمكن أن تبلغه الثورة من مراتب السمو فى رسالتها •

ان الثورات هى الحركات العنيفة فى حلقة التطور للأمم والشعوب وتتوقف درجة العنف فى هذه الحركة على السرعة التى يسير بها التطور فكلما قلت هذه السرعة زادت قوة الثورة ، لأن الفارق بين ماهو قائم من أوضاع وبين ما يرجى من الأوضاع كلما اتسع مداه أصبح العنف والقوة والشدة عناصر هامة من عناصر الثورة ، كما وان عنصر القيادة المؤمنة الواعية عامل اساسى فى حياة الثورات التى تبدأ بها الشعوب ، لأنه بدون هذه القيادة لادوام للثورات ، بالرغم من انه لايتصور قيام ثورة بدون شعب ،

فى حين ان فى استطاعة القيادة المؤمنة الواعية ان تحرك الشعب وتقوده الى الثورة ، وذلك يوضح مهمة القيادة فى الثورات بالرغم من أن سند الثورات هى الأمة ، فانه لاثورة بدون قيادة . وقد تبين فى العصر الحديث ان نجاح الثورات يعوزه دائما تأييد الجيش أو على الاقل تأييد عناصر هامة منه ، ويمكن القول بأنه لا أمل لنجاح ثورة ما لم يكن الجيش سندا لنجاح الشعب فيها .

***

ونجاح الثورات مرهون بسلوك الحكومات التى تنحرف عن ادراك واجباتها نحو الأمة ، لان هذه الحكومات تتجاهل دائما الحقائق المحيطة بموقفها ، فهى بهذا لاترى دنو النار منها ، ولولا انحرافها هذا الذى يحجب عن عينيها الحقائق لرأت النار تقترب منها ، ولفطنت الى ما يوشك ان يقع ولتجنبت التعرض لغضبة الشعب وثورته ، وعالجت موقفها فى الوقت المناسب ، ولا يختلف وضع الاستعمار بالنسبة للشعوب المغلوبة على امرها عن وضع تلك الحكومات ، بل ان وضع الاستعمار فى هذا الشأن أشد وضوحا وموقفه أشد خطورة ، لأن دوافع الثورة ضد المستعمر أشد وأقوى منها ضد الحكم الداخلى الفاسد . والثورات ضد الاستعمار أدنى الى النجاح لأنها تلقى من الشعب تأييدا واستماتة ، فى حين لا يجد المستعمر من يسانده غير قوة سلاحه ، وذلك ضرب من القوة لابد ان يسقط يوما ما ، ويخر على الأرض الغريبة عنه التى يعيش عليها وسط شعب معاد له وبين اخطار تهدده ساعة بساعة ، فاذا وجد المستعمر مساندة من العناصر الرجعية ومن الحكام المستبدين الخونة ؛ كان ما وجده من ذلك بمثابة السراب الخادع الذى لاينتهى الى غاية ، وكان هذا العون الرخيص كجسم بلا روح ، وما أسرع ما يتخلى أعوان الاستعمار عن المساعدة ، بل ما أسرع ما ينقلبون عليه ، متى لاحت فى الافق بوادر نجاح ثورة الشعب ضده ، ومتى توافرت أسباب النجاح للثائرين فى ثورتهم . على ان تهيئة الشعب للثورة ثم قيامه بها لايكفى لنجاحها مالم تكن الثورة قائمة على أساس مدروس ، وما لم تقترن بأعمال قد تبدو فى ذاتها قليلة الأهمية من ناحيتها المادية ، الا أنها

بطبيعتها تخلق الجو المناسب للدفع الثوري المباشر الذي يحرك الثـورة ويمدها بأسباب الحياة والقوة • ومع توافر هذه العناصر الضرورية لنجاح الثورة ، فلابد لها من عنصر الحماية من الفوضى ، ومن الانحراف بعـد قيامها ، فهما الثغرتان اللتان يحاول ـ دائما ـ اعداء الثورة التسلل اليهـا منهما ليقضيا عليها وعلى المبادىء التي نادت بها • فالرجعية والاسـتعمار يتربصان ـ دائما ـ بكل ثورة ولا يكفـان عن البحث عن أي من هاتين الثغرتين •

والثورات تحتاج ـ دائما ـ الى قيادة قوية حاسمة مبصرة • وتحتاج الى زعامة قوية وبقدر ما تحتضن الثورات عبقرية العبقري ، بقدر ما تكفل لوجودها السلامة والبقاء وتكفل لمبدئها النجاح •

وعندما تهب الثـورات تبدأ الانظار تترقب ما تحدثه من الانقلابات المادية التي تعتبرها الشعوب رمزا للثورة والتي تتناول أول ما تتنـاول شكل الحكم ، أما الانقلابات الأساسية التي تتناول النواحي الاقتصـادية والاجتماعية ، فان تحقيقها يحتاج الى بعض الوقت والمشقة ، ويحتاج الى ضم الصفوف وتكتل الجهود حول قيادة الثورة ، وهذا التكتل وذلك الضم لا يمكن أن يتحققا الا اذا آمن الشعب تماما بالمبادىء التي تنادي بهـا الثورة ، وأصبحت لها في نفسه مكان العقيدة القوية والايمان الراسخ ، وما من شك في انه بقدر ما يكون قد حاق بالشعب من قسوة المظالم ، وعنت الحكم الفاسد ، والاضطهاد والتعسف والاستغلال يكون استعداد الشعب للايمان بمبادىء الثورة ، وتكون تهيئته لتحمل أعبائها والحفاظ على مبادئها تهيئة صالحة •

ان قسوة المظالم والفساد التي تسبق الثورات تمكن قادة الثورة من قيادتها وتوجيهها متى هبت في سهولة ويسر ، فسـياط الظلم كلما كانت قاسية ، كانت أدنى لأن تبيد وتتمزق ، ليحل مكانها زمام رفيق في يد زعيم يقود الشعب في ثورة ضد الظلم وضد الاستعمار •

***

أما الثورات التي سجل التاريخ انحرافها ، فانما سـجل أيضا في

الوقت نفسه أن هذا الانحراف لم يكن الا لأن قيادتها لم تكن فى مستوى رسالتها ، فلم تدرك أهمية المبادىء فى نجاح الثورات ، ولم تدرك خطر الانحراف عن الأهداف وأثره السيىء فى الشعور الثائر الذى لا يدوم بطبيعته الا بدوام أسبابه التى خلقته وأثارته ؛ وعلى أية حال فان فشل مثل هذه الثورات لا يعنى - اطلاقا - انها ماتت من حيث كونها ثورة ،بل يعنى انها اختفت لوقت ما ؛ فروح الثورة لا تموت ؛ ولكنها تبقى ما بقيت أسبابها ودوافعها ؛ تلك الأسباب والدوافع التى تكون دائما بمثابة الوقود المعد للاشتعال -حتما- فى الوقت المناسب ، ومن المؤكد أنالثورات الفاشلة ضد الاستعباد انما تأخذ من فشلها الغذاء الصالح لنجاحها حينما تعاود الانقضاض على المستبدين وقد زودت نفسها بزاد من التجربة التى أسفر عنها فشلها ، وألمت بالأسباب والوسائل التى مرت بها حتى تصل الثورة الى غايتها .

***

بقى أسلوب من أساليب الثورات لم تتناوله بعد ؛ ذلك هو الأسلوب السلبى لا الأسلوب الايجابى ، أسلوب القوة الذى أخذت به الثورات بصفة عامة فالثورة السلبية نوع من الثورات نادى به فلاسفة الهند من قديم الزمن وتحدث عنه الفيلسوف الفرنسى « لابوايس » LaBoêice منذ ثلاثة قرون ، ثم نقله عنه الكاتب الفيلسوف الروسى « ليون تولستوى » وهو اضراب الشعب جميعه عن التعاون مع الغازى المعتدى والملك الفاسد الذى يسخر قوى الأمة لاشباع شهواته وملذاته ، بحيث يشمل الاضراب جميع مرافق الحياة فى الدولة ، وعندئذ لا يجد المستعمر أو الملك منسبيل أمامه سوى الرحيل ؛ اذ أن نظام الحكم الغاشم لابد فى مثل تلك الحال ان ينهار ؛ ولابد للفوضى بكل مظاهرها من ان تشيع وتضرب أطنابها فى البلاد .

ولقد جرب الزعيم الهندى مهاتما غاندى هذا الأسلوب السلبى فى ثورة الهندكما طبقته مصر تطبيقا جزئيا ؛ حينما أضرب الموظفون عنالعمل فى سنة ١٩١٩ - وجماع القول فى مثل هذا اللون السلبى من الثورات ؛

ان نجاحه يحتاج الى وعى كبير في الشعب بحيث يشمل الاضراب عناصر الأمة ويعم مرافقها جميعا ، وعلى أن يكون الوعى فى الشعب قد بلغ الحد الذى يمكنه من تدبير شئونه ورعاية المضربين خلال فترة الاضراب مهما طالت ، حتى يمكن للمضربين ولسائر الأمة الصمود والاستمرار ، وحتى لا يتسرب اليأس الى النفوس فتضعف وتتخاذل وتنتهى الثورة بالاخفاق ؛ وللاخفاق في الثورات السلبية أثرفى نفسية الشعب يختلف عنهفىالثورات الايجابية .

* * *

فيما تقدم تحدثنا بايجاز عن مختلف المبادىء التى حكمت وكيفت وحللت الثورات باعتبارها ظاهرة وطنية وسياسية واجتماعية في حياة الأمم والشعوب ؛ وبقى أن نعرض لما وقع من أحداث فى أوربا خلال الفترة التى أعقبت الحرب العالمية مباشرة ، وهى الفترة التى نعنيها فى هذا البحث ، وسنبدؤها بكلمة موجزة عن الثورة الروسية .

الفصل الخامس

الثورة الروسية

« أسباب الثورة الروسية والممهدون لها ـ ثورة سنة ١٩٠٥ ـ دور الحركات »
« العمالية في الاعداد للثورة الدولية الاولى ـ الدولية الثانية ومؤتمر بازل عام ١٩١٢ ـ »
« دور لينين ـ دخول روسيا الحرب وهزيمتها ـ حكومة كيرنسكى ـ المانيا تعيد لينين »
« الى روسيا وتحول دون نجدة الحلفاء للقيصر ـ المانيا تهيىء بذلك أسباب البقاء »
« للثورة الروسية ـ حكومة الثورة في روسيا تذيع أسرار الحلفاء ـ مبادىء الثورة تهدد »
« كيان الدول الغربية ـ الثورة الروسية تعمل على تأمين وجودها » .

* * *

ان أحداث الحرب العالمية الأولى قد قدحت شرارة الثورة الروسية ، ولكن أسبابها ترجع الى العوامل الأزلية التى فصلناها فى الفصل السابق والتى تكونت على مر السنين والأجيال •

ولقد مهد لهذه الثورة فى روسيا رجال الفكر والقلم أمثال «ليون تولستوى » و «جوركى» و «تشيكوف» و «لينين» ـ فقد ساء هؤلاء ماكانت تعانيه بلادهم قبل الحرب من فسادشامل تناول كل مظاهر الحياة فيها، فالشعب كان مؤلفا من طبقتين : الطبقة الحاكمة والطبقة المظلومة ولاوسط بين الطبقتين ؛ وكانت الطبقة الحاكمة تعيث فى الأرض فسادا ، تبتز أموال الشعب وتحتقره وتستهتر بالقيم وتدوس عامة الشعب بأقدامها ؛ وتسوم الفلاح والعامل الخسف وسوء العذاب ، فالشعب كله كان بمثابة العبيد للحكام والاقطاعيين ، وكانت الهوة واسعة بين الحاكم والمحكوم وبين الاجراء والاقطاعيين ، سواء أكان الأجير فى الحقل أم فى المصنع ، وقد ظلت العدالة الاجتماعية تتردى فى روسيا مع مرور الزمن على هذه الصورة حتى انعدمت العدالة فيها وتحولت روسيا الى شعب من العبيد لقلة من السادة • وقد انتفض الشعب ضدالاستبداد فى ثورات تناثرت مع الزمن

اليابانية التى انتهت بهزيمة روسيا ، وكان طبيعيا أن تزيد هذه الهزيمة من
ولكنها فشلت كلها ولم يكتب لها النجاح • ثم نشبت الحرب الروسية
الاضطراب والقلق الذى يعانيه الشعب وأن تضاعف متاعبه وآلامه ومن شدة
غليان الثورة فى نفسه ، فأضرب العمال عن العمل فى عام ١٩٠٥ واتجهت
جموعهم الى ساحة القصر الامبراطورى ونادوا مطالبين بالحرية السياسية ،
وبالأجور العادلة ، وبتمليك الأرض للفلاح الذى يزرعها وباقامة نظام نيابى
يمثل البلاد تمثيلا صحيحا ، ورفعوا للامبراطور التماسا بهذه المطالب فما
كان من الامبراطور الا أن أمر رجاله فحصدوهم بمدافعهم ، فثار الشعب
وانضم الفلاحون الى العمال وعم العصيان وأكرهت الاحداث قيصر روسيا
على الخضوع منذ ذلك التاريخ المرة بعد المرة وأجبرته على الاعتراف للشعب
الروسى ببعض الحقوق ، الا أن هذا الاعتراف كان يجىء دائما متأخرا بحيث
لا يجد له صدى فى النفوس ولا يشبع رغبات الشعب وأمانيه • فراح النفور
يزداد فى نفس الشعب الروسى من حكامه ، وأخذ مناهضو الحكم القيصرى فى
بث الدعوة ضد نظام الحكم على أوسع نطاق • ويقول لينين ان كل شهر فى
الفترة التى انقضت بين عام ١٩٠٥ وثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ كان يعادل سنة
من التطور العادى من حياة الشعوب •

* * *

ولم تقتصر آثار ثورة روسيا عام ١٩٠٥ على النطاق المحلى وقتئذ ؛ بل
تعدته الى الطبقات الكادحة والشعوب المغلوبة على أمرها فى سائر أنحاء
العالم ؛ لا فى روسيا وحدها ؛ مما جعل ساسة الدول يعتبرونها نذير شر
للحكم القيصرى ويدركون أنه من المتوقع أن يمتد أثرها الى سائر البلاد
الرأسمالية والى جميع البلاد التى كان حكامها يتجاهلون وجود الشعب ،
وبالرغم من المحاولات التى كان يبذلها القيصر فقد فشلت حكومته من التقرب
حتى من الطبقات المتوسطة وعجزت عن تهدئة الشعب واستمالة الرأى العام
وتبديد مخاوفه ، وبدأ الشعب يدرك بوضوح أن الدولة الروسية بأسرها
مسوقة الى الدمار تحت وطأة الظلم والطغيان والفساد •

وبينما كانت مساعى حكام روسيا فى تهدئة غليان الشعب تبوء بالفشل؛ كان زعماء الحركات العمالية ماضين ـ بنجاح ـ فى تكتيل جهـود الطبقات العاملة والزراع ضد نظام الحكم القائم ، لا يكفون عن العمل فى هذا السبيل داخل روسيا ، وقد نشأت صلة بين حركتهم هذه وبين الحركات الاشتراكية المماثلة التى نشطت اذ ذاك فى أغلب الدول الاوربية ولاسيما فرنسا وبريطانيا وألمانيا ؛ تلك الحركة التى وجدت لها مؤيدين فى أوسـاط العمال وفى الأوساط المثقفة . وبدأ دعاتها يشعرون بقوتها وتمكنوا من عقد الاجتماعات الدولية بين حين وآخر ، وكان أول اجتماع من هذا النوع هـو الاجتماع الدولى الذى عمل على عقده كل من كارل ماركس وانجلز ، وقد عرف باسم مـؤتمر الدوليـة الاولى (First International) فكان الفاتحة لسلسلة من المؤتمرات التى أعقبته باسم الدوليـة الثانية فى كل من مدن « ستوتجارت » عام ١٩٠٧ ، « وكوبنهاجن » عام ١٩١٠ ، « وبازل » سنة ١٩١٢ ، وقد كان هذا الاجتماع الأخير من أخطر الاجتماعات لأن القرارات التى اتخذت فيه كانت على أكبر جانب من الخطورة والأهمية اذ أنهـا حددت واجب الطبقـات العـاملة حيال الحرب ، وبمقتضاها أصبحت الطبقات العاملة ملزمة بالسعى لتجنب نشوب الحرب، وملزمة باستغلالها اذا فشلت المساعى وقامت الحرب ، وباستغلال الأزمات التى تترتب على نشوبها للتعجيل باسقاط نظم الحكم الرأسمالى أى وفقا لتعبير لينين « تحويل الحرب الاستعمارية الى حرب أهلية تشنها الطبقات العاملة فى كل بلد ضد نظام الحكم القائم فيها »

ويقول لينين « ان الحروب فقدت طابعها الوطنى ولم تعد تهـدف الى حماية استقلال الدول بل أصبح هدفها استغلال وتسخير الآخرين »

وقد أوضح لينين وجهة نظره هذه التى تقول بأن الاستعمار هـو أخطر وأعنف مراحل الرأسمالية ، وتكهن بمصيره المحتوم فى مـؤلف وضعه وقتئذ عن الاستعمار .

***

كانت تلك هى الحالة النفسية للطبقات الكادحة واتجاهها العام فى

أوربا وكانت هده هي الحال في روسيا لما دخلت الحرب العالمية الاولى ، وكان من الطبيعي وشعب حالته النفسية على هذه الصورة ؟ ان يمنى بهزائم منكرة في مختلف ميادين القتال ، وكانت أبرز هذه الهزائم في موقعه « تانبرج » تلك الموقعة التى أنزل فيها القائد الالمانى لودندورف بالجيوش الروسية هزيمة منكرة ساحقة . وبدا واضحا أن روسيا بما ابتليت به من حكم فاسد ، وبما أصاب الجبهة الداخلية فيهـــا من الانهيار قد أصبحت عاجزة عن مواصلة الحرب في صف الحلفاء الغربيين الذين أوفدوا اليها في شتاء عام ١٩١٦ اللورد ملنر لدراسة الحالة فيها ، ولقد حسب الغرب ان في استطاعته معالجة الأمور في روسيا وإنقاذهـــا من الثوره ، غير ان محاولة بباسته لم تفلح ، فخاب ظنهم واندلعت الثورة الشيوعية في روسيا عام ١٩١٧ ، وسقط النظام القيصرى سقوط الثمرة التى تعفنت وأصـــبح لا مناص من سقوطها ، وترك سقوط هذا النظام فراغا مخيفا شمل روسيا وما كانت تضمه من بلاد ، وقد عجزت الطبقات التى اســـتغلت النظام القيصرى وتوارثته عن ايجاد بديل له يتولى شـــئون البلاد ، ولم تفلح الحكومة المؤقتة التي رأسها الأمير « لفوف » والتى كان أبرز أعضائهـــا « كيرنسكى » فى القبض على زمام الأمور وتجنب الأحداث التى راحت تتوالى ، وكانت هذه الحكومة هى التى مهدت بما أصدرته من قرارات الى بروز الاتجاه الشيوعى فى الثورة الروسية وتسلطه عليها وأتاحت له السيطرة النهائية على روسيا .

* * *

لقد كان الشعب الروسى وكانت الطبقات البروليتارية فيـــه تتـــابع جهود ونشاط لينين وأعوانه من المفكرين الروس الذى فروا من المعتقلات في سيبيريا واستوطن بعضهم ألمانيا كما نزح بعضهم الى فرنسا وسويسرا حيث راحوا يباشرون نشاطهم ضد الحكم القائم في بلادهم وضد الرأسمالية ولهذا فانه في مفاوضات الصلح التي جرت بين المانيا وبين روسيا عقب هزيمة الجيوش الروسية حرصت المانيا على أن يتم الاتفاق فيها مبدئيا على عودة اللاجئين الروس والسياسيين الى بلادهم ، وعودة الزعمـــاء الروس الذين كانوا

يعيشــــون فى المنفى لأوطانهم • وقد بادرت المانيا ـ فعلا باعـــادتهم الى روسيا لعلمها بذلك النشاط الذى كانوا يباشرونه ضد الرأسمالية ، ولعلمها بما سوف نسفر عنه الأحداث من قيام الثورة على أوسع نطاق ، وبمـــا يترتب على قيامها ونجاحها وانتشار المبادىء الشيوعبة وسيطرتهـــا عـلى روسيا بأسرها ، وكان ذلك كله فى رأيها بمثابة طعنة نجلاء نسددهـــا المانيا الى الكتله الغربية ، فى ذلك الوقت الدى كانت نقوم فيه الجيوش الألمانية بالحيلولة دون نجدة الحلفاء الغربيين لحليفهم قيصر روسيا وانقاذ نظام الحكم الذى كان يمثله القيصر • فكانت جيوشها ســـدا منيعا أمام الحلفاء ، ولم يكن دخول الولايات المتحدة الامريكية الحـرب الى جانب بريطانيا وفرنسا ليزحرح الجيوش والسياسة الالمانية عن موففها لحماية الثورة الشيوعية ، ومن أجل ان تهيىء لها أسباب النجاح والبقاء • فنجاح التورة كان هدفا مرسوما فى السياسة الالمانية ، لأنه كان يعنى فصل روسيا نهائيا عن الدول الرأسمالية التى يتنافى نظامها الرأسمالى والاســتعمارى بل التى تعادى سائر نظمها ـ النظام الشيوعى ـ الذى تقوم عليه الثـورة الروسية •

لقد أعادت المانيا « لينين » الى روسيا فى قطار مصفح ، فوصلهـــا فى ١٦ من ابريل عام ١٩١٧ وشرع فور عودته فى تزعم الحركةالعماليه وعمل على توجيه الثورة توجيهـــا بروليتاريا بحتا ، وتحويل الحكومة المؤقتة الى حكومة شعبية بروليتارية ، بل انه عمل عـــلى عقد صلح مع ألمانيا خلا من الاتجاهات الاستعمارية ومن التطلع الى أىغنم أو تعويض، فكان ذلك اتجاها واضحا الى تخلى روسيا عن قضـــية الحلفاء الغربيين وانصرافها عن جميع المزايا والمطامع التى ضمنتها لها الدول الغربية فى حالة انتصار الحلفاء على المانيا •

* * *

ولما تم هذا الصلح بين ألمانيا وروسيا ، اذاعت الحكومه الروســـية الثورية تلك الاتفاقيات السرية التى سبق عقدهـا بين الحكومة القيصرية وبين الدول الغربية لتقسيم العالم بينهم بعد أن يتم لهم الانتصار ، وكان

الغرض من نشر هذه الاتفاقيات هو فضح سر الغرب والكشف عن نواياه التى تتعارض الى أبعد حد ومبادىء الحلفاء التى كانوا يعلنونهـا للتغرير ولخديعة الشعوب ، وكان من بين هذه الوثائق السرية : الوثائق الخاصة باتفاقية « سان جان دى مورين » التى تضمنت تقسيم الدولة العثمانية بين الحلفاء الغربيين وروسيا •

ولقد سرد لينين المراحل التى مرت بها الاحداث والتطورات فى روسيا فى مؤلف له قال فيه : « ان ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ نجحت بفضل الوسيلة التى رسمت لها ، فاحداث هذه الثورة نفذت وفقا للخطة الموضوعة لهـا تماما ، والتى اتفقت مع تفكيرنا اتفاقا دقيقا » ويمضى لينين فيقـول : « كان علينا أن نكتل الشعب ضد الملكية وضد كبار الملاك وضد الاقطاع ، لكى تتسم الثورة فى أول الأمر بطابع البورجوازية الديمقراطية ، ثم لتنتقـل بعد ذلك من هذه المرحلة الى تطوير الثورة بمسـاندة الطبقات الكادحة والفلاحين والفقراء ، أى بمساندة الطبقات التى خضـعت للسـيطرة والاستغلال بتوجيهها ضد ما تبقى من الرأسـمالية ، أى ضـد الطبقة المتوسطة » •

***

كانت الثورة الروسية ثورة داخلية بكل معنى الكلمة ، غير أننـا اذا نظرنا اليها من ناحية المبادىء التى تبنتها وطبقتها ، أمكن القول بأنهـا كانت ثورة عالمية ، لأن العالم لمس فيها أول تطبيق واقعى علمى لمبـادىء كانت حتى ذلك التاريخ مجرد معان وأسطر تقرأ فى المؤلفات فحسب •

أما عن هذه المبادىء التى اعتنقتها روسيا ، ومدى مطابقتهـا لتعاليم ماركس وانجلز ومـدى تطويرها خـلال تلك التجربة الاقتصـادية والاجتماعية والسياسية ، فلا يعنينا التصدى لها فى مؤلفنا هذا الا بالقـدر الذى يوضح أثر النهج الذى نهجه الاتحاد السوفيتى والسياسـة التى اتبعها ازاء دول الشرق فى تلك الحقبة من الزمن التى نعرض اليهـا فى هذا المؤلف • لهذا تقول انه بمجرد أن استقر الحكم للثورة بدا من اتجاهات وتصرفات الاتحاد السوفيتى ما أكد صدق وقوة الفراسـة فى

السياسة الألمانية التى ساندت الثورة الروسية الشيوعية وهيأت لهـا كل أسباب النجاح • فقد بدا واضحا أن نشاط الثورة فى روسيا ؛ يمتد فى قوة الى خارج حدودها وان ذلك يؤرق الدول الرأسمالية ولا سـيما الحلفاء الغربيون • بدأت التجربة فى روسيا تؤكد ان زعماء الثورة يرمون الى نشر مبادئها فى سائر أنحاء العالم والى تشـجيع الثورات الداخلية لجميع الشعوب التى تخضع للغرب •

بدأ يتضح للغرب أن مبادىء الثورة الشيوعية الروسية تهدد كيـان الدول الغربية لأنها لا تهدف الى القضاء على الاسـتعمار فحسب ، بل الى القضاء على الرأسمالية فى جميع صورهـا • بدأ الغرب يدرك ان تلك المبادىء التى كانت حتى ذلك التاريخ مجرد نظريات قد بدأت تخرج الى التطبيق العملى ، وأن الطبقات الكادحة فى دول العالم قد أخذت ترقبها • بدأ الغرب يدرك مدى الخطر الذى يتعرض له ، وبدأ يدرك السر فى حماية الجيوش الألمانية للثورة الشيوعية فى روسـيا ، والحيلولة دون نجدة الحلفاء لروسيا القيصرية وتدخلهم عسكريا فى الوقت المناسب لحماية النظام الذى قامت ضده الثورة ، وهكذا فوتت ألمانيا على الغرب فرصـة القضاء على الثورة الروسية وهى فى المهد •

فالواقع ان المانيا كسبت من الحرب العالمية الأولى فصل روسـيا كلية عن المعسكر الغربى بل جعلت منها معسكرا ضد هذا المعسكر • هذا اذا اعتبرنا أن الاضرار بالعدو ـ هو فى ذاته كسب ، حتى وان لم يفـد منه عدوه نفعا ماديا •

****

ولقد أدرك القائمون على الأمر فى روسيا ، انه أصبح متعينا عليهم أن يعملوا على تأمين مستقبل النظام الذى أقامتـه الثورة وحمايته ، فى ذات الوقت الذى يعملون فيه على نشر المبادىء التى قام عليها هـذا النظام ، فكان طبيعيا أن يدرك المسئولون عن الثورة الروسية انه لابد من الاحتفاظ لروسيا بكيانها كدولة لها شخصيتها التاريخية ولها تقاليدهـا الدولية على الرغم من قيام النظام الشيوعى ؛ بمعنى ان هذا النظام لايمحو

من معالم روسيا القديمة الا نظام الحكم فيها ؛ ولا تندثر فيه تمـــاما الا شخصية ومعالم النظام القيصرى ـ ولا تنسى فى ظل الشيوعية الا الكلمات والاسماء والألقاب الســـائدة كالقيصر والامبراطور ـ الخ • فقادة الثورة الشيوعية عملوا بعد نجاحها على أن يستبقى نظام الحكم الجديد الدولة الروسية والسياسة والأهداف الروسية كما عرفت عبر تاريخها • وكل ما استحدثه بالاضافة الى ذلك هو ســـياسة الدعوة الدولية للنظام الجديد لأنها متى نجحت فى بلد حولته الى حليف لروسيا ؛ وربطت بينهما برباط المذهب الاجتماعى ونظام الحكم والعقيدة السياسية •

* * *

لقد خلقت ثورة روسيا للغرب عدوا رهيبا ، لا يخاف الغرب فيـــه قوته العسكرية ، وانما يخاف دعوته ومبادئه التى يعمل على نشرهـــا فى جميع أنحاء العالم ••• كما خلقت للغرب موقفا بالغ الخطورة ، فبـــدا ساسته يدركون تماما أنه لو كتب للشيوعية النجاح واســـتقر لها الأمر ؛ لقسمت العالم الى فريقين ولجعلت المبادىء الاجتماعيـــة عنصرا بارزا من عناصر الصراع العالمى ، على ان هذا الادراك من جانب الغرب لخطة الثورة الشيوعية لم يقترن بقدرتهم على مقاومتها عسكريا ـ كما اسلفنا القول ـ لأن جيوش المانيا ظلت تشغل الحلفاء وتقـــاومهم حتى شهر نوفمبر ســـنة ١٩١٨ ؛ فمكنت بهذا للثورة الروسية من النجاح والاستقرار ، وبدأت دعوتها فى التسلل بين شعوب الدول المتحاربة حاملة فى ثناياها روح العطف على الشعوب المهزومة وعلى قضايا الشعوب المغلوبة على أمرها والشـــعوب التى سيطرت عليها الدول الغربية ، وقد بدأت روسيا الشيوعية اتجاههـــا الايجابى فى هذا الصدد بمؤازرة ثورة تركيا وانتفاضتها ضـــد الحلفاء الغربيين ، واذا كان تقدير القادة والساسة الالمان قد صح بالنســـبة للنتائج التى أسفرت عنها الثورة الروسية فى روسيا ذاتها ؛ فان آثار هذه الثورة ما لبثت ان انعكست على المانيا ذاتها •

الفصل السادس

الثورة في المانيا وتعاليم لودندورف

« استسلام المانيا استجابة لوعود الحلفاء ـ الشعب الالماني ينفذ مطالب الحلفاء »
« ويثور ضد حكامه ـ الحلفاء يتنكرون للشعب الالماني ويحرمونه الامن والسلام ـ اذلال »
« الحلفاء للالمان ـ الثورة الالمانية تتجه الى الشرق ـ الى الثورة الروسية ـ الفوضى »
« تخالط الثورة ـ حكومة فيماد ـ نروى الحلفاء في العمل على القضاء على الوحـدة »
« الالمانية ـ لويد جـورج يفسر سبب التردد ـ كليمنصو والوحدة الالمانية ـ الحـلفاء »
« وتعويضات الحرب ـ تحرك العناصر الوطنية ـ رسالة الجنرال لودندورف الى الشعب »
« الالماني ـ برنامج لودندورف للنهوض بالمانيا ـ اودلف هتلر ولودندورف ـ مولد الحزب »
« الوطنى الاشتراكى » .

* * *

كان لما تحمله الشعب الألمانى من تضحيات خلال الحرب ، ولما بذله الحلفاء من وعود ، وقطعوه على أنفسهم من عهود ولا سيما ما تضمنته هذه الوعود والعهود والتصريحات المتكررة التي أدلى بها الرئيس ولسن وكانت كلها التزام بعدم المساس بالشعب الألمانى ؛ أو الحاق أى ضرر به ، أو التعرض لشئونه الداخلية ، كان لذلك كله أثر فعال فى تفكك الجبهـة الداخلية فى ألمانيا ، وكانت دعاية الحلفاء ترمى الى هذا التفكك ليكون هو وهزيمة الجيش الألمانى سـببا يحمل المانيا على التسليم وقبول شروط الحلفاء واسـتجابة لوعود ولدعاية الحلفـاء ونظرا لأن الشـعب الألمانى قد أحس فى أكتوبر سنة ١٩١٨ بأن المانيا على أبواب الهزيمة ؛ بل على أبواب الاستسلام ، فقد راح الشعب يتطلع الى قادته ويفكر فى المصير الذى انتهت اليه بلاده ، ويتطلع أيضا الى وعود الحلفاء . قال الحلفـاء للشعب الألمانى انك لست عدونا واننا لا نحاربك ، ولكن عدونا هو القيصر الألمانى وقواده وجيوشه والطبقة الحاكمة ، أولئكم الذين سـاقوكم الى حمل السلاح ضدنا . واذا تم لألمانيا التخلص من القيصر ومن القـواد

ومن الحكام ، واذا أصبحت ديمقراطيـــة على ذلك النمط الغربى ، فان الشعب الألمانى لم يلق من الحلفاء الغربيين الا تلك المعاملة التى سجلوها على أنفسهم فى عهودهم ومواثيقهم •

* * *

وكان لهده العوامل جميعا أثرها العميق فى نفسية الشعب الألمانى فثار ضد الامبراطور وضد الحكام ، وتوقع الشعب ان يجد من الحلفاء المعاملة العادلة الكريمة ، وأن يجد السلام والأمن والطمأنينة لمستقبله ، ولكنه لم يجد سلاما ولا أمنا ، بل انه عانى الأمرين من الحلفاء فقـــد فوجىء الشعب بما خيب أمله فى عهودهم ووعودهم ، وبدا واضـــحا أن الحلفاء يصرون على اذلال هذا الشعب ولا يفرقون فى نظرتهم لألمانيا كدولة وبين الحاكم والمحكوم وبين قادة الجيوش وافراد الأمة ، وتبين أن سياستهم تتجه الى اشعار المانيا بمرارة الهزيمة فى أقسى صورها من جوع واذلال وحرمان ، وتحميل الشعب الألمانى ذاته تبعـة الحرب كاملة من ناحيتها المادية والمعنوية • واذ بدا ذلك كله للشعب الألمانى وأدرك تماما خديعة الحلفاء له ، فانه اتجه فى عنف الى المعسكر الشرقى وكانت الثورة الروسية أقوى نبضات هذا المعسكر ، فبدأت الأوساط العمالية فى المانيـا تتحدث عنها وتشيد بما حققته من آثار ، وتناولتها أوساط المثقفين وراح الجميع يعملون على مناصرتها ، وشرعت القوات ذاتها فى التمرد ، واتسع نطاق الحركات التمردية فشمل الموانى الالمانية على بحر البلطيق فى «هامبورج» وفى « بريمن » و « لوبيك » ، وامتـــد العصيان الى مدن « هانوفر » « وليبزج » « وكولونيا » •

وبينما كانت القيادة الالمانية تفاوض الحلفاء فى شروط التســليم ، أجبرت الثورة فى المانيا الامبراطور غليوم على التنازل عن العرش فى ٨ من نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وفى ٩ من نوفمبر أعلن مجلس الريشستاج قيام الجمهورية الالمانية وتم تشكيل حكومة مؤقتة كانت العناصر الاشتراكية والعناصر ذات الميول اليسارية من أبرز أعضائها ، وقد خلع رجال هــذه الحكومة على أنفسهم لقب قومسير على غرار ما فعله رجال الحكومة فى

روسيا عند قيام ثورتها ، وشرعت الطبقات البروليتارية فى المانيا فى تكوين مجالس من العمال والجنود على نمط النظام الشيوعى تماما .

بدأت الحركات الثورية تعم المانيا ووضح أن الأمة تواجه الانقسام فمن جانب كان هناك اتجاه ثورى فوضوى وكانت هناك فئات كبيرة من العمال انضم اليها عدد لا بأس به من وحدات جنود البحرية الالمانية ومن الجانب الآخر كانت تقف الطبقات الروسية يسندهـا بقايا الجيش الألمانى المهزوم .

* * *

وقد عمل الحلفاء على زيادة الثورة الالمانية اشتعالا وعلى تغـذية الصراع بين الاتجاهات المتعارضة فى الشعب بحيث تكون الغلبـة أخيرا للاتجاه الملائم لمصلحة الحلفاء ؛ ورحب الحلفاء بزوال الحكم الامبراطورى وقيام النظام الجمهورى ، ولكن ساءهم ان يتولى رياسة الجمهـورية « ايبرت » Ebert ذلك العامل الاشتراكى . وكان الحلفاء يرمون الى أن يتـولى حكم المانيا هؤلاء الموالون لهم ممن كانوا قد لجئوا الى سويسرا خلال الحرب وأغلبهم كانوا يهودا ، غير أن خطة الحلفـاء فى تحقيق هذه الرغبة لم تفلح وزادت الفوضى وازداد الاضطراب ، وراحت العناصر اليهودية توجه الحركات الشيوعية ، فاستولت هذه الحركات على مقـاليد الحكم فى برلين وفى ولاية بافـاريا ، وقـام كارل ليكنخت Karl Liebkneckt, وروزا لكسـمبرج Rosa Luxembourg, باعلان الحكم البروليتارى فى برلين يوم ٥ من يناير سنة ١٩١٩ وشرعا فى تطبيق النظام السوفيتى ، وشهدت برلين مذابح لم تتوقف الا بعـد أن تدخل الجيش الالمانى بقيادة الجنرال نوسك Noske وزال الخطر الشيوعى فى برلين يوم ١٥ من يناير ولقى ليكنخت وروزا لكسـمبرج مصرعهما ، أما الحركة الشيوعية فى ذاتها فقد ظلت مسيطرة على بافاريا حتى مايو سنة ١٩١٩ .

* * *

وأدرك الألمان فى النهاية خطورة الموقف وتبين لساستهم وقادتهم

على اختلاف مذاهبهم ان الموقف يحتم عليهم العمل لانقاذ المانيا من خطر الثورة الداخلية وما سوف يترتب عليها من قيام حرب أهلية تدمر المانيا وتمحو شخصيتها من الوجود •

قد كانت الأحزاب الاشتراكية ضد الحركات الفوضوية التى كانت ترمى الى اجتذاب المانيا الى الانضواء تحت لواء القيادة السوفيتية ؛ ووقف ايبرت العامل الاشتراكى ورئيس الجمهوريه الالمانية فى صف الجيش داعيا للاحتفاظ بالمانيا الكبرى ••• وأجريت الانتخابات واجتمع المجلس الوطنى الجديد فى فيمار Weimar, فى ٦ من فبراير سنة ١٩١٩ وأعلن اصراره على بقاء المانيا الكبرى ، كما ثبت المجلس الوطنى العامل « ايبرت » Ebert, فى رياسة الجمهورية وتم تشكيل الحكومة التى تتولى مفاوضة الحلفاء وتوقع معاهدة الصلح •

أعلن المجلس الوطنى ميلاد الرايخ الثالث الذى يشمل دولة المانيا الموحدة بل ان العامل الاشتراكى ايبرت الذى أصبح رئيسا للجمهورية وقف يبشر بعودة النمسا الى أحضان الأمة الألمانية فى وحدة قوية متى سقط النظام الامبراطورى النمسوى •

* * *

وبينما كان الألمان يتمسكون بالوحدة ، كانت فرنسا تسعى للقضاء على وحدة المانيا ، تلك الوحدة التى كانت المحور الذى دارت حوله سياسة « بسمارك » والتى تقترن دائما باسمه ، تلك الوحدة التى أصر بسمارك على تحقيقها على الرغم من فداحة التضحيات والمتاعب والاعباء التى تحملتها بروسيا وارتضتها عن طيب خاطر والتى شرحها بسمارك تفصيلا فى مذكراته لأنه آمن بأن الوحدة هى أسمى أهداف الشعب الألمانى بل الهدف الوحيد الذى يكفل له البقاء •

وكان بسمارك يذكر الألمان دائما بهذه الحقيقة فيقول : « علينا نحن الألمان الذين يعيشون فى قلب أوربا أن نؤمن بضرورة تماسكنا وارتباطنا أكثر من أى شعب آخر ، اذ لا توجد حواجز طبيعية تحمينا من أعدائنا واذا أردنا ألا تذهب تضحياتنا عن الأجيال هباء منثورا ؟ واذا أردنا ألا

يكون مصيرنا الفناء ، فعلينا أن نتحد وان نقف جميعا متراصين كتفا الى كتف . »

كان واضحا أن فرنسا وبريطانيا تمعنان فى القضاء على المانيا كدولة عظمى بتسليمها للحركات الانفصالية ؛ أملا فى التخلص من كابوسها الجاثم على صدر الدولتين منذ عام ١٨٧١ . وحرصا من فرنسا على تحقيق هذا الهدف أصرت حكومتها فى مؤتمر الصلح على أن تدعى الولايات الالمانية التى أعلنت انفصالها عن الدولة الالمانية الى توقيع معاهدة الصلح بشخصيتها المنفصلة عن المانيا ، وتقدمت بهذا الاقتراح فى ٢ من مايو سنة ١٩١٩ ؛ ولكنه قوبل من الولايات المتحدة بالاعراض وعدم التشجيع .

غير أن فرنسا مضت فى خطتها وأعلنت اعترافها بقيام دولة «بافاريا» وأنشأت لها مفوضية فى مدينة ميونيخ وظلت فى الوقت نفسه تعترف بجمهورية « فيمار »

ولقد تمسكت حكومة الجمهورية الألمانية الاشتراكية بالوحدة الالمانية برغم هزيمة ألمانيا فى الحرب ؛ غير أن الحلفاء وضعوا فى مقدمة معاهدة الصلح نصا يخول دول الحلفاء الحق فى اقامة علاقات دبلوماسية مع مختلف الدول الأعضاء فى الدولة الألمانية ، وقد وضع هذا النص للتوفيق بين الموقف الذى التزمته فرنسا لتمزيق ألمانيا وبين مصالح الحلفاء المادية .

ويفسر لويد جورج موقف الحلفاء من وحدة ألمانيا ويكشف السر الذى من أجله لم يمض فى مجاراة فرنسا فى موقفها من تمزيق هذه الوحدة فيقول « اننا اذا سلمنا بالقضاء على وحدة ألمانيا ، وأقمنا بدلا من ألمانيا الموحدة دولا جديدة ، كان لزاما علينا أن نتنازل عن تعويضات الحرب من هذه الدول التى لا يمكن أن تفرض عليها هذه التعويضات الا بوصف أنها جزء لا يتجزأ من الدولة الألمانية ؛ واذا حملنا هذه الدول الجديدة نصيبها فى تعويضات الحرب ؛ فانها عندئذ تجد أن فصلها عن ألمانيا لم يفدها فى قليل أو كثير بل انه لا مصلحة لها فى الانفصال عن الوحدة طالما أن ذلك لا يحقق لها أى كسب . »

على أن المسيو كليمنصو رأى أن يعدل عن الرأى القائل بتمزيق الوحدة الألمانية ، وقال فى هذا الشأن انه من العسير على الانسان أن تمتد يده الى وحدة تأصلت فى النفوس وأثبتت قدرتها على البقاء . وقال : ان خير أسلوب لتيسير انفصال تلك الدول التى منها تتألف ألمانيا المتحدة هو تركها وشأنها بعد الهزيمة وعدم التدخل فى شئونها لعل وعسى أن يقع من الخلاف بينها ما يؤدى الى تفككها .

* * *

لقد خضعت ألمانيا الى الشروط التى أملاها عليها الحلفاء فى معاهدة الصلح .. جردت من مستعمراتها ؛ وحرمت جيشها وأسطولها واقترح الحلفاء فى أول الأمر تحميلها جميع نفقات الحرب ؛ أى أن تدفع ألمانيا جميع ما تكلفه الحلفاء فى خلال مدة الحرب جملة وتفصيلا مضافا اليها قيمة ما لحق الممتلكات والأموال الخاصة من الخسائر وقيمة التعويض المستحق عما لحق أشخاص الأفراد من الأضرار ، ولما انساق الحلفاء وراء هذه النظرية بلغت التقديرات عشرة آلاف مليار فرنك أى ما يعادل أربعمائة مليار من الجنيهات الاسترلينية . وأمام هذا الرقم الخيالى الذى لا يسع أية دولة فى العالم دفعه ، عاد الحلفاء فخفضوا هذا الرقم وجعلوه سبعمائة مليار فرنك أى ما يعادل ٢٨ مليار جنيه استرلينى ... ثم انهم لما لم يجدوا بعد هذا من الولايات المتحدةالأمريكية ارتياحا للمطالبة بهذه التعويضات على الصورة التى يتم بها تقديرها ، عاد الحلفاء مرة ثالثة الى بحث الأمر ؛ وانتهى البحث الى ترك تدبير التعويضات وتحديدها الى لجنة شكلت لهذا الغرض ؛ أطلق عليها « لجنة التعويضات » شريطة أن تدفع ألمانيا فور توقيع معاهدة الصلح عشرين مليارا من الماركات الذهب وترك للجنة التعويضات تحديد قيمة قسط تدفعه ألمانيا سنويا ، لمدة ثلاثين سنة ، على أن تبدأ فورا باصدار سندات بمبلغ مائة مليار مارك كما تقوم بدفع أى مبلغ اضافى تقرره اللجنة الدولية للتعويضات ليكون تحت طلب الحلفاء فى أى وقت شاءوا .

* * *

اطمأنت ألمانيا الى بقاء وحدتها ؛ الا أنها فى ذات الوقت أحست بقسوة الشروط والمطالب الباهظة التى فرضت وأمليت عليها فى مؤتمر الصلح وشعرت بما جلبته عليها هزيمتها فى الحرب من آلام ومتاعب فكان أول اتجاه للعناصر التى تتجه الى اعادة بناء ألمانيا هو التخلص من حكومة ايبيرت ، ومن أجل هذه الغاية قام الجيش الألمانى فى ١٣ من مارس سنة ١٩٢٠ بحركة للاستيلاء على الحكم ، فدخلت قواته برلين وأكرهت ايبيرت رئيس الجمهورية على الهرب هو ورئيس وزرائه ، وأقام الجيش حكومة جديدة .

وكانت هذه الحركة سببا فى اشتعال نار الثورة من جديد ، فأضربت طبقات العمال ووقفوا فى وجه الجيش ثم اتسعت موجةالاضراب فعمت كل أنحاء ألمانيا ، ولكن الجيش تمكن من القضاء على الحركات الفوضوية واعادة الهدوء الى البلاد ، الا أن الاستقرار لم يتحقق ، والثورة فى النفوس لم تخمد ، وقد خاضت المعركة وقتئذ العناصر الوطنية التى كانت حريصة على مستقبل ألمانيا ، تلك العناصر التى كانت الهزيمة قد أذهلتها فلم تفق الا على وخزات الألم فى مأساة شروط معاهدة الصلح .

***

هبت هذه العناصر لتعمل من أجل بعث النعرة الوطنية فى نفوس الألمان وراحت تذكرهم بأمجادهم ليستعيدوها ؛ وكانت دعوتهم فى هذا الصدد تقول بأنه اذا كان الحلفاء قد ابتغوا من الثورة فى ألمانيا تمزيقها والقضاء عليها فان العناصر الوطنية يمكنها أن تحول ثورة ألمانيا على نفسها الى ثورة على الحلفاء ، ثورة تمزق معاهدة الصلح التى أمليت على بلادهم وكان على الغرب وعلى الحلفاء أن يواجهوا هذه الدعوة التى تزعمها الجنرال « لودندورف » ثانى قواد ألمانيا بعد الماريشال هندنبورج ؛ تزعمها بقلمه وبعمله وقادها وهو اذ ذاك شيخ تقدمت به السن ، ولولا حكم الشيخوخة ، ما كان لألمانيا زعيم غير هذا الزعيم .

لقد كان هذا الشيخ .. « لودندورف » لا يفتأ يستحث الشعب الألمانى من أجل استعادة أمجاده ، ويذكره بوصية بسمارك ويقول للشعب

« : لاتدعوا روح الحزبية تتسرب اليكم وتسيطر عليكم وتدفع الأمة الى الانحراف فتحطم بيدها كيانها الوطنى ، وانى أشهد الله وأشهد التاريخ على أن الصراع بين الاحزاب يحطم فى الشعب هذا العمل الوطنى المجيد الذى أتيح لنا أن نعمله خلال تاريخنا العظيم ... »

كان يقول للألمان « ان تضحياتنا فى هذه الحرب العظمى لم تنته بالانتصار ولم تحقق لنا السلام والأمن ولم تكفل لنا الحرية وان ذيوع النظريات الدولية التى تنادى بالاستسلام والتخاذل وسيطرتها على ألمانيا هى التى ستقضى عليها فى ذلك العالم الذى تقف فيه الدول متأهبة للكفاح والصراع والتى لا يسمع فيها تقارع الأسلحة ». ناشد الألمان أن يبصروا بحقائق التاريخ وينظروا حولهم ليتبينوا ما ينقصهم على ضوء الواقع فى بلادهم وخارج بلادهم .

قال للشعب الألمانى انه فى حاجة الى اعادة تاهيله سياسيا وأن عليه واجبا وطنيا جسيما وان على رؤسائه وقادته عبئا باهظا لكي يستعيد الشعب الألمانى أفضل صفاته . كان لودندورف يقول للألمان : ان حياة الشعوب قوامها الكفاح والصراع ، وان الصراع سواء كان بين الأفراد او بين الشعوب أو الدول سيظل هو وحده الوسيلة القاطعة فى حسم المشاكل، وأن حياة الفرد اليومية لا تعدو أن تكون الصورة الصغيرة من الصراع الكبير بين الدول ، وأنه اذا كانت الافراد تتصارع فى سبيل الوجود ، وأنه اذا كانت الاحزاب تتناحر من أجل الحكم والسلطان فان الشعوب ستظل تتصارع فى سبيل البقاء والوجود . وأن ما حققه الانسان لنفسه من رقى وثقافة لن يؤدى الا لمجرد تطوير أسلحة الصراع ولن يقضى عليها لان الحكم النهائى انما يتكيف تبعا لطبيعة الانسان . وطبيعة الانسان هى الكفاح وهى الصراع أبدا ، وان زهو العناصر الشريرة بانتصارها وعجرفتها وخيلائها حينما يتاح لها النصر لما يحشد القوى على الوقوف فى وجه هؤلاء المنتصرين المتالهين لمساندة أعدائهم الذين ليسوا على شاكلتهم . على أن العناصر الطيبة الخيرة لا يتسنى لها البقاء والحياة ما لم تتحقق لها القوة التى تعينها على البقاء والحياة .

لقد ذكر الجنرال لودندورف الشعب الألمانى بما قاله الفيلد ماريشال « مولتك » Molthe من أن السلام الابدى حلم من الاحلام ، وليس حلما جميلا ، لان الصراع والكفاح والحرب جزء من النظام الأزلى الذى وجد بوجود العالم ، وفى الكفاح والصراع تتطهر النفوس وتتطور الصفات النبيلة فى الانسان ، تتطور الشجاعة والفداء والتضحية والتجرد والولاء والخضوع للواجب ونكران الذات الى حد التضحية بأغلى ما فى الوجود وهو الحياة ، وأن الجهاد والكفاح وحدهما لهما الكفيلان بالابقاء على وجود واستقلال وشرف الامم والدول .

قال الجنرال لودندورف للشعب الالماني ، بأن عليه أن يستبعد من مخيلته ومن نفسه تلك الاماني والاحلام التي يريد أعداؤه أن يبثوها فى نفسه ، ويلقنوه اياها ويثبتوها فى وعيه ، من أجل أن يقتنع فى النهاية بأن العالم مصيره الى سلام ابدى ، وأن الجنس البشرى مآله فى النهاية الى وئام دائم ، وأن أعداء الامس سيصبحون يوما ما أصدقاء أحباء ، يوم أن يتجرد العالم من النوايا العدوانية ، وينصرف تفكيره عن الاخذ بأسباب القوة • وحذر لودندورف الشعب الالمانى من الانسياق وراء هذه الاحلام حتى لا يعجز عن النهوض بمعركة التحرير والخلاص من الذل الذى فرضته عليه معاهدة الصلح التى جردت ألمانيا من كل وسيلة للدفاع عن نفسها ضد أى عدوان ليتمكن الحلفاء من املاء شروطهم عليها دون أية مقاومة ودون أن يجدوا من المانيا غير التسليم والاستسلام • كان لودندورف يؤكد للشعب الالمانى أن الحرب ستظل أبدا وسيلة القوى الوحيدة لفرض ارادته وتنفيذ سياسته ، كما أنها ستظل دائما الوسيلة التى لا وسيلة غيرها للشعوب التى لا تريد الخضوع للذل والخنوع للعبودية • وأن على الامة الالمانية أن تستهدف أول ما تستهدف تحقيق حريتها واستقلالها ورفاهيتها وتطوير صناعتها واقتصادها وأن تلك الاهداف لا بد أن يحول الحلفاء دون تحقيقها • وكان يذكر الالمان بخديعة الحلفاء لهم ويذكرهم بتلك الوعود والمواثيق الكاذبة التى غرر بها الحلفاء الشعب • كان يحذر الشعب من الآراء والمذاهب الانسانية التى ينادى بها الحلفاء ويمتدحونها ويدعون اليها فى الشعب الالمانى ، ويسمى هذا الاتجاه بنظريات لا يؤمن الحلفاء بها ، مع أنهم يريدون من الشعب الالمانى أن يعتنقها ويؤمن بها ، لأن ايمانه بها فى مصلحة الحلفاء وحدهم ، وليس فى مصلحة ألمانيا أبدا •

كان يقول فى هذا الصدد : أن الحلفاء ، يأخذون عنا خير صفاتنا وعلومنا وآرائنا ونظمنا ثم هم يحاولون أن يقدموا لنا بدلا منها ما ليس فى مصلحتنا ، وما لا خير لنا فيه من الآراء والمبادىء والنصح والتوجيه • ان دعايتهم لهى شر يقيم وسطكم ، وأنهم سيتهموننى بالعمل على الاثارة والاستفزاز ، لأننى أبين لكم هذه الحقائق ولكنهم — على أية حال — لن يتمكنوا من الحيلولة دون أن أؤكد لكم بأنهم ، يؤمنون بتلك الحقائق التى أنادى بها وبأن قادتهم أكثر خبرة بالطبيعة البشرية ولذلك كانوا أفضل منا •

وكان لودندورف يسأل الشعب الالمانى ، عما حققه منذ الهدنة وعما أفاده من تملقه الحلفاء وعما عاد عليه من الوقوف من الحلفاء موقف الخنوع والخضوع والاستسلام ، ودأب على مناشدة الشعب الالمانى من أجل أن يمضى فى حياته وفى خططه غير مبال بأعدائه • ولكى يواجه الموقف

بثبات ورباطة جأش وتحمـــــل المزيد من العذاب والآلام التي تمهد له الطريق الى الخلاص والحرية •

لقد نبه لودندورف الشعب الى أن هزيمة ألمانيا ترجع الى أن الالمان قد جانبهم التوفيق في تقدير قوة وامكانيات خصمهم ، والى أنهم لم يدبروا أمورهم على الصورة التي كانت تحتمها الظروف • وفي هذا كان يقول في خطابه للشعب : ان النجاح لا يمكن أن يكتب لشعب لم يحدد ــ سلفا ــ أهدافه ووسائله ، كما نبه الالمان الى ضرورة دعم وتقوية الجبهة الداخلية وتكريس الجهد من أجل البناء الداخلي ، وفي هذا كان يقول للشعب : ان هدفنا الاساسي يحتم أن تتركز جهودنا الى أبعد حد من أجل اعادة بناء الدولة ومن أجل كفالة أمنها وتثبيت وجودها وتجديد قواها وبعث روحها الوطنية ، وهو جهد يتطلب تركيز كل القوى وتوحيد جهـــــود الشعب الالماني بجميع طبقاته وحرفه ومهنه في جبهة موحدة يسودها شعور عميق بحب للوطن يسمو ويرتفع الى حد التضحية والفداء ، وبحيث تحرك هذه الجبهة فينا الوعي بواجباتنا نحو بلدنا وأمتنا قبل الشعور بحقوقنا قبل وطننا ، وبحيث تخلق فينا رغبة عميقة في الانتصار بعزم واصرار ، جبهة تؤمن بالله ، وجبهة هي الآن مجردة من كل سلاح ولكنها كانت ــ دائما ــ ذلك الجيش الذي قامت عليه ألمانيا ، جبهة يختفي فيهـــا الصراع بين الطبقات ، بين طبقة البرجوازية والطبقة العاملة ، ويختفي فيها الصراع بين أهل المدن وأهل الريف . جبهة تزول فيها الفوارق ، وتنعدم الريب والشكوك التي تضعف من ايمان وقوة الشعوب ، جبهة يعرف فيها قدر المجاهدين والمكافحين ، ولا تسمح للمستغل أن يثرى على حساب غيره في ميدان الجهاد ، جبهة بها ، وبقوتها يسود الشعب الالماني في كل الميادين الشعور بالبطولة والشعور بالنظام والشعور بالواجب ، جبهـــة تقوم على أساس التجرد من المظاهر الكاذبة ، وعلى الوعي الاقتصادي والاحساس النابعين بالوفاء والاخلاص للواجب ، جبهة اذا تحقق لها كل هذا كانت عماد عظمة ألمانيا مستقبلا •

وناشد الجنرال لودندورف الالمان أن يعيدوا تدعيم الاسرة الالمانية ، وأن ينموا في نفوس أبنائهم صفات التواضع وشعور الثقة بالنفس والقدرة على مواجهة الصعاب لكي يبتعد الشباب عن الخمول والكسل والاندفاع الى الملذات والشهوات فلا يقع الشاب أسيرها ويصبح عبدا لهـــا • ناشد لودندورف الشعب الالماني أن يحول الكارثة الى نصر ، وأن يحول أمجاد الماضي الى حقائق المستقبل وينسى الحـاضر ، وحذر الشعب من الاندفاع وراء النزعات الشيوعية ، ومن التقصير في بذل كل جهوده من أجل احياء الصناعة الالمانية التي وصفها بأنها عماد العظمة الالمانية والوجود الالماني • كما طالب بأن تكون الصناعة الالمانية مسخرة لخدمة القومية الالمانية ، لا

ان يكون هو المسخر لخدمة صناعة ليس فيها نبض قومى وطنى ولا هم لها الا الربح المادى فحسب . ناشد لودندورف الشعب أن يجعل التطور الصناعى فى ألمانيا جزءا من الكفاح الوطنى المرتبط بوجود المانيا وبكفالة عظمتها ، وطالب الامة باعادة النظر فى نظمها الدستورية بحيث تجعلها نظما لا تسمح للساسة الذين خلقتهم الاحزاب أن يحكموا الشعب الالمانى ، بل تجعل من الشعب حاكما للشعب ، حاكما يستند الى قوته والى نظم تنبثق من صميمه وتستند الى تمثيل جميع طوائفه وحرفه ، وفى ذلك قال لودندورف : نحن فى حاجة الى حكومة تقود الشعب لا الى حكومة تحكم وتمارس سلطان الحكم من أجل التسلط على الشعب ، نريد حكومة تكون هى قائد الامة حكومة لا تقيم وزنا الا لمصلحة الامة ولو عن طريق القوة ، حكومة تقوى على تأدية واجبها والزام تلك الطوائف المنشقة على اجماع الشعب والتى لا تسعى الا لمصلحتها الخاصة واجبارها على أن تؤدى واجبها فى خدمة الامة بأسرها ، حكومة تعرف كيف تسخر قوانا لخدمة الامة سياسيا فى الداخل وفى الخارج وتحقق لها الخلاص ولو أدى هذا للدخول فى صراع من أجل الحرية كوسيلة لا مناص منها لتحقيق أهدافنا فى السياسة الخارجية .

***

ولقد اعلن لودندورف برنامجه السياسى هذا ونشره فى مؤلف له عالج فيه أسباب الحرب ومقدمات وأسباب الهزيمة التى منيت بها المانيا ، وقد ترجم المؤلف الى مختلف اللغات ليحذر الغرب شعوبه من تلك الدعوة الجديده التى كان ينادى بها لودندورف الذى كان قد عاد وقتئذ الى المانيا والتفت حوله العناصر الوطنية ومن بينها تلك العناصر التى تزعمها جندى سابق فى الجيش الالمانى يدعى « اودلف هتلر » الذى رأى وسط هذه الزوبعة وفى هذا الجو المضطرب الذى كانت تعيش فيه المانيا ان يستجيب الى دعوة الجنرال لودندورف ، فألف حزبا اطلق عليه حزب العمال الالمانى ونظم هتلر حزبه على نمط عسكرى ؛ واشتمل الحزب فرقا للهجوم وظل يعمل على كسب الاتباع حتى تمكن من عقد مؤتمر له فى يناير سنة ١٩٢٣ ، وفيه ظهر اول استعراض عسكرى لتلك الوحدات التى شكلها هتلر .

ولما كانت العناصر الشيوعية قد تمكنت من التسرب الى بعض الحكومات المحلية فى المانيا ، فان العناصر الرأسمالية رأت ان تتكتل مع

الطبقات المتوسطة ، ووقف الجميع فى وجه الحركات المتطرفة ، وعملوا على مقاومة كل من تمكن من الوصول الى الحكم من الشيوعيين أو المتطرفين الذين يعطفون على الحركات العنيفة ، وتجاوب هذا الاتجاه مع دعـوة الجنرال لودندورف ، وما لبث الحزب الذى ألفه هتلر أن استجاب الى هذه الدعوة ؛ فحاول بتأييد من لودندورف القيام بحركة ثورية للاستيلاء على مقاليد الحكم فى ولاية بافاريا ، وقد سقط فى هذه المحاولة الكثيرون من الضحايا وانتهت بالقبض على هتلر وقضت المحاكم عليه بالسجن خمس سنوات وبحل الحزب الهتلرى وتحريم كل نشاط له ، تلك كانت الحالة التى انتهى اليها الامر فى المانيا بعد الحرب العالمية الاولى .

***

ولقد واجه الشعب الالمانى حالة صراع بين الطبقات الكادحة من جانب وبين الرأسمالية والطبقات العسكرية من الجانب الآخر ، وشهد الشعب الالمانى الحركة الشيوعية التى تنظم نفسها وتوطد مركزها وتزداد اتساعا وشهد الجيش حالة من القلق الدائم والخوف على مستقبل البلاد ، وخشى الشعب الالمانى من سيطرة الشيوعيين على البلاد بعـد ان ظلت الحركة الشيوعية فى توسعها .

وتفاقمت حالة التوتر والقلق القائمة بعد أن تصدت للشيوعية الحركات المضادة لها ولا سيما بعد ان نجح موسولينى فى اقامة النظام الفاشستى فى ايطاليا وجعل من الشيوعية العدو الرئيسى له ، واستمرت الحالة فى المانيا على هذه الصورة : الاخطار تتهددها والحلفاء الغربيون يتابعون سير الاحداث فيها بقلق واضطراب ويحاولون معالجة الاضطراب فيها بالمزيد من المعونات المتتالية لالمانيا ، وكانت الحركة التى بدأها هتلر والتى توقفت باعتقاله وسجنه قد عادت الى الظهور بعد العفو عنه فى ديسمبر سنة ١٩٢٤ ، حيث ألف حزبا جديدا حاول أن يضم اليه العناصر اليسارية الى جانب العناصر التى كانت تمثل الاحزاب التى تؤمن باعادة بناء المانيا من جديد ، ونشـطت حركة هتلر من جديد حتى بلغت الاصوات الانتخابية التى حصل عليها هو وحزبه فى انتخابات عام ١٩٢٨ عدد ٨٠٩ آلاف صوت ، ولكنه كان مازال

بعيدا عن الوصول الى مقاليد الحكم ، اما الاحزاب الشيوعيه فقد حصلت على ما يقرب من ستة ملايين صوت ، ولما سادت الأزمة العالمية فى العالم كله عام ١٩٣٠ ؛ بدأ سادة المانيا من الرأسماليين والعسكريين يدركون ان الازمة الاقتصادية التى لازمتها البطالة على أوسع صورة فى البلاد ستغذى الحركة الشيوعية وتمكنها من السيطرة نهائيا على المانيا ، ولم يجد هؤلاء جميعا من منقذ لهم سوى الحركة التى كان يتزعمها هتلر ، ومن اجل هذا فقد قام حلف نهائى بين الاحزاب الرأسمالية والاوساط الصناعية والطبقات المتوسطة وبين الحركة الوطنية الاشتراكية التى كان يقودها هتلر ، وكان هذا الحلف هو الاساس الذى استندت اليه تلك الحركة للوصول بهتلر الى مقالد الحكم فيما بعد .

***

هده نظرية سريعه الى ماحل بالمانيا من تطورات فى نهاية الحرب العالمية الاولى تلك التطورات التى هزت كيان الدولة وغيرت من اوضاعها السياسية . وجدير بالذكر ان الفلسفة التى نادى بها هتلر فيما بعد كانت قد بدأت ترسخ فى مخيلته منذ اللحظة التى بدأ يعمل فيها لاحياء مجد المانيا ، منذ اللحظة التى جمع فيها هذا الهدف بين القائد الكبير لودندورف وبين الجاويش البسيط أودلف هتلر ، منذ اللحظةالتى وقف فيها هتلرأمام المحكمة فى ميونيخ عندما حوكم عن محاولته الفاشلة والتى ذهب ضحيةلها الكثيرون من القتلى والجرحى . فقد وقف هتلر اذ ذاك يقول : انهيأبىأن يقف موقف العداء من جيش المانيا الوطنى ، لأن هذا الجيش هو جيش الشعب ، وانه سوف يأتى اليوم الذى يندمج فيه هذا الجيش بالشعب وتتحد فيه فئات الأمة المختلفة لتكون جيشا واحدا عظيما تحت علم الوطنية الاشتراكية .

ان الفترة التى قضاها هتلر فى السجن ، قد أتاحتله الفرصةللتفكير فيما انتهى اليه أمر المانيا ، وقد خلص من تفكيره الىنتيجةواضحةتتلخص فى قوله « اننى أشكر القدر الذى حرمنى الانتصار فى محاولتى الماضية للاستيلاء على الحكم ، تلك المحاولة التى فشلت ، لاننى لو نجحت فى

محاولتى تلك ، لكنت مضطرا الى الاعتماد على الطبقة البورجوازية بدلا من اعادة اقامة الرايخ الالمانى من جديد وكنا سنكتفى بتغيير لافتته الاجتماعية. أعنى مجرد تغيير فى العناوين والمظاهر لا التغيير الجذرى الذى آمله » .

وبالرغم من هذا ـ فان الاحداث قد اضطرت هتلر الى التعديل والتبديل فى نظريته وفى آرائه ليخرج فى نهاية الامر بتلك الفلسفة التى اعلنها فى كتابه « كفاحى » تلك الفلسفة التى رسم فيها مستقبل المانيا حسبما كان يتصوره ومن هذه الناحية تعتبر تلك المرحلة التى وقعت بين فشل هتلر فى محاولته الاولى للاستيلاء على السلطة ، وبين المرحلة التى وصل فيها الى السلطان والحكم ، مرحلة اعداد للثورة التى قام بها فيما بعد تلك الثورة التى كانت وليدة هزيمة المانيا فى الحرب العالمية الاولى .

الفصل السابع

الثورة الايطالية

« ايطاليا تواجه الازمات قبل الحرب العالمية الاولى ـ فشل ايطاليا في تحقيق »
« مطامعها الاستعمارية يدفعها الى أحضان الحلف الثلاثى ـ بريطانيا تتحرك لتدمير »
« الحلف الثلاثى ـ نتائج الحملة الليبية ـ ايطاليا تتخلى عن المانيا حليفتها ـ ايطاليا »
« تساوم الحلفاء الغربيين وتدخل الحرب الى جانبهم ـ الثمن ـ تنكر الحلفاء لايطاليا »
« ـ ثورة الشعب الايطالى ـ دانونزيو وموسولينى ـ ازمة مدينة فيومى ـ الحركة »
« الفاشستية ـ موسولينى وأهداف الثورة ـ موسولينى والحركة اليسارية ـ موسولينى »
« يزحف على روما » .

***

حينما حققت ايطاليا استقلالها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ؛ كان عليها ان تواجه حقيقةمرة ؛ وهىانها بلد برغم تحقيقهللوحدة الاقليمية والسياسية ، فقد كانت بلدا فقيرا يزدحم بالسكان ويهاجر منهم خارج ايطاليا نصف مليون سنويا ، فان عدد السكان ارتفع من ٢٥ مليونا عند تحقيق الوحدة الايطالية الى مايقرب من ٣٨ مليونا عند وقوع الحرب العالميه الأولى .

كانت ايطاليا تحاول ان تنمى صناعتها ، وتتوسع فى زراعتها ، ولكن تبين لها على الرغم من جهودها ، أنها عاجزة عن تحقيق الكفاية الصناعية بل عاجزة عن توفير العمل والغذاء للفائض من سكانها ، وكان من الطبيعى أن يعنى المسئولون فى ايطاليا بذلك الوضع السياسى الذى كان قد قسمأوربا على نفسها فجعل منها معسكرين ، الاول يضم فرنسا وبريطانيا وروسيا ، والآخر يضم المانيا والنمسا لتختار لنفسها فيه مكانا ، فاختار ساسة ايطاليا لبلدهم المعسكر الاخير الذى كان يمثل دول اوربا الوسطى المتخلفةفىذلك السباق الدولى فى ميدان السيطرة الاستعمارية واستغلال خيرات العالم ،

وموارده ، وكان ميل ايطاليا الى المانيا أشد منه الى النمسا ، وذلك لما كان متخلفا من آثار العداء التقليدى بين البلدين ، فالايطاليون لم يكونوا قد نسوا للنمسويين قسوتهم وعنفهم خلال الفترة التى احتلت فيها الجيوش النمسوية بلادهم وأذاقت الشعب الايطالى الأمرين .

وفى هذا الصدد يقول المؤرخ الايطالى فريرو Ferrero, ان الايطاليين كانوا معجبين بالمانيا لتفوقها فى العلوم والصناعة ، فاتجه اليها اساتذة الجامعات ورجال الصناعة ، واتجهت اليها الاحزاب المحافظة ، والاحزاب الاشتراكيه والأحرار ورجال الكنيسه والفلاسفة ورجال الفن ، ورأت ايطاليا فى المانيا مثلها الأعلى ، لأن الاخيرة كانت الصورة المثلى للتطور والتقدم العلمى كما انها كانت قد نجحت الى حد بعيد فى تنمية وتدبير ثروتها وتنمية تجارتها وتنظيم جيشها واسطولها وزيادتهما بصورة تسترعى اليها الانظار . وهكذا طبعت ايطاليا بالطابع الألمانى واصبح الايطالى يرى فى ألمانيا القدوة التى يقتدى بها فى كل اتجاه ، والمثل الذى يحتذى به دائما ، وكانت ايطاليا تأمل ان تعينها المانيا على تحقيق مطالبها الاقليمية فى النمسا ذاتها حليفة المانيا ـ اذ ذاك ـ تلك المطالب التى شملت منطقة تريستا Trieste, ومقاطعة الترنتو Trento والساحل الشرقى لبحر الادرياتيك ، وكلها مناطق كانت ايطاليا ترى انها حيوية لها كدولة ، واتجهت ايطاليا الى المانيا لكى يتساندا معا فى مواجهة الاستعمار الفرنسى البريطانى فى افريقية وآسيا ولكى يشاركا فرنسا وبريطانيا الاستعماريتين الأسلاب والمغانم ، فقد كان لايطاليا مطامع خاصة فى تونس ومراكش وفى الحبشة فشلت فى تحقيقها ، فاضطرت مكرهة الى القناعة بما ارتضته لها فى هذا الشأن كل من فرنسا وبريطانيا ، مما لم يشبع مطامعها الاستعمارية ، وقد رأت السياسة البريطانية ان تستغل تحرك هذه المطامع فى نفسية ايطاليا استغلالا وان كان فى ظاهره يرمى الى اشباع النزعة الاستعمارية فى سياسة ايطاليا ، الا انه فى حقيقته يهدف الى تدمير الحلف الثلاثى القائم بين ايطاليا والمانيا والنمسا ، وتحركت السياسة البريطانية لتعمل فى هذا الاتجاه ، فدفعت ايطاليا الى غزو ليبيا على الصورة التى شرحناها فى الجزء الثانى من مؤلفنا الذى عالجنا فيه

مرحلة عدوان الغرب ، ولقد نجحت بريطانيا في خطتها ضد هذا الحلف الثلاثي ، وان كان نجاحها لم يصل الى حد تدمير الحلف نهائيا ، غير انه اصبح حلفا ضعيفا قد تصدع بنيانه .

لقد كان الغرض من الحملة الايطالية التي قادها السنيور جيولوني ضد ليبيا ارضاء كبرياء ايطاليا وتغذية الشعور بالعظمة في الشعب والهاب حماسته ، كما كان جانب من هذا الغرض يرمي الى تحقيق منفعة لايطاليا ولكنها كانت في رأى الشعب الايطالي حملة فاشلة لم تحقق كسبا معنويا أو اقتصاديا أو سياسيا ، وقد شن الرأى العام هجوما على سياسة الحكومة بالنسبة لغزو ليبيا ، وتولت الأحزاب الاشتراكية قيادة وزعامة الحملات ضد هذه السياسة ، وظهر - آنئذ - فوضوى يدعى « بنيتو موسوليني » كان في طليعة من شهروا بحكومة « جيوفاني جيليوتي » وأمعنوا في نقد مسلكها ، ونددوا بحملتها على ليبيا .

***

نجحت بريطانيا في اضعاف الحلف الثلاثي وزعزعت ثقة المانيا في ايطاليا فلما اعلنت الحرب العالمية الأولى ودخلتها المانيا والنمسا ، كان الحلف الذي يربط الدولتين بايطاليا يعين على هذه ان تخوض الحرب الى جانبهما ولكن الدور الخطير الذي لعبته كل من بريطانيا وفرنسا للتأثير على العناصر الموالية لهما في إيطاليا ، كان من شأنه أن يجنب ايطاليا الدخول في الحرب في صف المانيا ، والتزمت موقف الحياد ، وكانت حجة ايطاليا في مسلكها هذا تنكر النمسا لمطالبها المشروعة في بلاد كانت تعتبرها ايطاليا من صميم بلادها .

وعلى هذه الصورة تخلت ايطاليا عن حلفائها ، ولم يكن باقيا امام بريطانيا وفرنسا الا أن تعملا بعد ذلك على استدراج ايطاليا لكي تتنكر لحليفتها المانيا . وتنقلب عدوا لها ، وتدخل الحرب معهما ضدها ، ونجحت خطة الحلفاء في هذا السبيل ، فوقعت ايطاليا في ٢٦ من ابريل سنة ١٩١٥ معاهدة لندن التي عقدت بين ايطاليا وفرنسا وبريطانيا ، وبموجب هذه المعاهدة السرية تعهدت ايطاليا بدخول الحرب في جانب الدولتين مقابل

الاعتراف بضم اقليم الترنتـــو حتى ممر « برنر » Brenner, وهو جــزء من منطقة التيرول النمسوى ، التي أصبحت حتى اليوم مصدر نزاع بين النمسا وايطاليا ، كما اعترف الحلفاء لايطاليا بحقها فى ضم مينـــاء تريستا والمنطقة المحيطة به ، وبحقها فى الاستيلاء على ساحل دالماسيا ومعظم الجزر الدالماسيه وجزر الدودوكانيز ؛ وفالونا والمناطق المجاورة لها وجزيرة ساينو وكذلك اباحت بريطانيا وفرنسا لايطاليا فرض حمايتها على دولة « البانيا الجديدة » التي قامت اذ داك فى البلقان ؛ وسلمت لها بالحق فى تملك ولاية أضاليا فى الأناضول كما ان اتفاقية سان جان دى مورين السريه التي وقعت فى ٢١ من ابريل سنة ١٩١٧ اضافت الى وعود الحلفاء السابقة لإيطاليـــا وعودا جديدة تمنحها جنوب غربى الاناضول بأسره .

***

لقد كانت هذه هى وعود بريطانيا وفرنسا لايطاليا ، وقد بذلت هذه الوعود على حساب النمسا تارة ، وعلى حساب السودان أو على حساب الحبشة تارة أخرى ، ثم على حساب الدولة العثمانية .

ولما وقعت الهدنة وانعقد مؤتمر الصلح عام ١٩١٩ . كانت ايطاليا تأمل ان تتقاضى ثمن انضمامها لبريطانيا وفرنسا وتنكرها وغدرها لحليفتيها المانيا والنمسا ، فاذا بها تفاجأ من بريطانيا وفرنسا بالتنكر والجحود ، اذ خذلتها الدولتان فى المؤتمر ولم توافقا على اغلب مطالبها الاقليمية فى النمسا على ســـــاحل بحر الادرياتيك ولا سيما ميناء فيومى Fiume, ومقاطعة دالماسيا ، مما أدى الى انسحاب الوفد الايطالى من مؤتمر الصلح فى ٢٣ من أبريل سنة ١٩١٩ ، وكان على رأس الوفد الســـــنيور اورلاندو رئيس الوزراء .

***

عاد رئيس الوزراء الايطالى الى بلاده ليجد الشعب فى انتظار ثمن دخوله الحرب فى جانب فرنسا وبريطانيا ، ثمن ٦٥٤ الف قتيل و٤٠٠ ألف مشوه ومليون من الجرحى ، ثمن الخسائر والخراب الذى عم شـــمالى ايطاليا حيث دارت المعارك الحربية فى أوسع وأفظع صورها ، ومن بينها

معركة كابورتو التى منيت فيها ايطاليا بهزيمة منكرة ، وطالب الشعب الايطالى بتعويضه عن خسائره فى اسطوله البحرى وتبلغ ٩٠٠ ألف طن من مجموع الاسطول الذى كانت حمولته تبلغ مليونا ونصف مليون من الاطنان ، وكانت الى جانب هذه الخسائر ، خسائرأخرى لم يغفلها الشعب هى مائة مليار ليرة تحملتها ايطاليا كدين وطنى .

وكان أمرا حتما أن تؤدى هذه العوامل جميعا الى تحول الشعب الايطالى عن مناصرته لبريطانيا وفرنسا وأن تجعله يقف منهما موقفالعداء وهكذا أتيحت الظروف الملائمة للعناصر اليسارية لكى تعمل من أجل التنديد بغدر الحلفاء وتنكرهم لايطاليا ، فتحركت هذه العناصر ونشطت دعايتها ، واتسعت حركة الاضراب ، وتمكنت العناصر الشيوعية من السيطرة على مدن ومناطق بأسرها فى ايطاليا ، بل ان الأمر قد وصل الى حد أن أعلنت الجمهورية فى بعض المقاطعات الايطالية وعمت ايطاليا الفوضى فى جميع أرجائها ، فتحركت الكنيسة ، وأصدر البابا بنوا الخامس عشر أمرا للقس ستورزو فى ١٧ من يناير سنة ١٩١٩ بانشاء حزبشعبى لمقاومة الحركة الشيوعية ، وتحرك فوضوى سابق واشتراكى كان يصدر جريدة فى ميلانو اسمها « بوبولوديتاليا » أى شعب ايطاليا ، واسمه « بنيتو موسلينى » ، ذلك الصحفى الذى سبق أن اشترك فى الحملة على الحكومة لقيامها بغزو ليبيا ؛ وتحرك فى ذات الوقت الشاعر « دانزيو » الذى كان له أثر كبير فى تحويل عطف الجمهور فىايطاليا لمصلحة الحلفاء وضد المانيا ؛ تحرك هذا الشاعر أيضا ليعمل ضد الحلفاء ؛ فجند «دانزيو» جيشا قوامه ثلاثة آلاف رجل ، وضم فيما ضم قدماء المحاربين وأنصار موسولينى واتجه بهذا الجيش الى مدينة فيومى التى رفض الحلفاء منحها لايطاليا فاحتلها وأعلن ضمها الى ايطاليا فى ١٨ من سبتمبر سنة ١٩١٩ . كان رئيس وزراء ايطاليا وقتئذ ويدعى نيتى nitti يعارض هذه الحركة فاعتبر « دانزيو » متمردا وأرسلت الحكومة الايطالية قوات لاجلاء دانزيو عن « فيومى » فنشبت معركة بين الجانبين ؛ آثر «دانزيو» على أثرها الانسحاب حقنا لدماء الايطاليين وتجنبا لاشتعال نار الحرب

الأهلية على أوسع نطاق بين الحكومة والشعب ، ولكن هذه المعركة كان لها أثر بالغ في الرأى العام الايطالى فاستغلتها العناصر اليسارية لكسب أنصار جدد ، مما دفع موسولينى الاشتراكى الى التحرك والعمل لحسابه والمناداة بمبادىء تعصم ايطاليا من الفوضى التى كانت العناصر اليسارية تعمل من أجل أن تضرب أطنابها في البلاد في حين كانت العناصر الوطنية تدعو الى العمل لانقاذ ايطاليا ، وكان السنيور « جيوفانى جليونى » الذى عاد وقتئذ الى رياسة الحكومة يشهد تلك العناصر المتطرفة تلتحم في معاركها دون أن يتدخل أملا في أن ينتهي أمرها بنفور الأمة منها وباقبال الشعب على العناصر المعتدلة التى كانت تهدف الى تمسك ايطاليا بالسياسة التقليدية التى تربطها بفرنسا وبريطانيا على الرغم من موقف الدولتين من ايطاليا .

وأدرك موسولينى بثاقب نظره ما يمكن أن يفيد منه في هذه الظروف فازداد انفصالا عن الطبقات اليسارية حتى أصبح في نظر الطبقة المتوسطة وأرباب الصناعات معقد أملهم في استقرار الوضع بايطاليا ، ثم اتجه موسولينى الى الشاعر « دانزيو » أملا في الانتفاع بما للشاعر من شعبية فأغراه باعادة الكرة للاستيلاء على مدينة فيومى ؛ فقام دانزيو بهذه المحاولة من جديد في ١٢ من نوفمبر عام ١٩٢٠ ، وكان موسولينى وراء هذه المحاولة يشيد ويدعو لأهدافها ، في صحيفته ، ويجمع الاكتتابات لتمويلها ولمدها بالمؤن والذخائر ، ولكن كل هذه الجهود التى بذلت من أجل الاستيلاء على المدينة ذهبت هباء أمام اصرار الحكومة على تلبية رغبة فرنسا وبريطانيا في اخلاء فيومى مرة ثانية ، ممن استولوا عليها ، وتمكنت قوات « جيوفانى جليوتى » من طرد الشاعر ورجاله من المدينة مرة ثانية .

***

وعلى الرغم من أن هذه المحاولة كان لها أثرها الذى أدى الى المزيد من الفوضى ، الا أنها أفضت الى مزيد من النفوذ لموسولينى ولحركته الناشئة فلم يمض عام واحد حتى أصبح لموسولينى قوة يعتد بها ، ففى ٧ من نوفمبر عام ١٩٢١ عقد مؤتمرا في روما ضم ممثلى ألفين ومائتى شعبة لحركته وأعلن فيه أن عدد الأعضاء العاملين في حركته قد بلغ ثلثمائة وعشرة آلاف

عضو ، وكان لزاما على موسولينى وقتئذ أن يوضح موفقه وأهداف حركته؛ وفى هذا قال موسولينى : ان حركته ثورة على الفقر الشديد الذى كانت تعانيه الطبقة العاملة ، وثورة ضد الاضطهاد السياسى الذى كان يعانيـــه دعاة الاصلاح فى ايطاليا ، وأنها كانت أمل أبناء ايطاليا الذين آمنوا بمستقبلها وحاربوا من أجل بلادهم ، أملهم بعد ان خاب أملهم فى حلفاء ايطاليا الذين خدعوها وغرروا بها واستدرجوها بوعودهم الى حرب خرجت منها بخسائر أكثر مما خرجت بغنائم •

ويستطرد موسولينى ليصف تطور التفكير الثورى فى أعماقه خلال حـديث له مـع المؤرخ الألمانى أميل لودفيج .Emil Ludwig فيقول : ان الجوع كان المدرسة الأولى التى تلقى فيها تعاليم الثورة وأنه عندما سـجن والده بسبب ثورته من قبل على الظلم الاجتماعى ، أدرك هو ان الثـورة لابد لها من كفاح ونضال وتضحية ، وقال موسولينى انه أدرك ـ بحكم أن منبته من صميم الشعب ـ أنه لايحس بالمسئولية نحو الشعب ؛ الامن شارك الأمة آلامها ـ وأنه قد شارك والديه آلامهما وشارك الشعب آلامه فاتجه فى أول الأمر اتجاها يساريا فترك مهنة التدريس وآثر عليها العمل بيديه فى المصانع وبين الجماهير ، وفى سبيل رسالته هذه من أجل الشعب دخـل السجن أربع مرات وتعلم كيف يدافع عن نفسه ، وكيف يهاجم خصومه وقال موسولينى : انه أدرك أن الساسة الذين عالجوا من قبله شئون بلاده كانوا أقزاما أمام ضخامة الأحداث ، فرأى أن يتصل بالرأى العـام عن طريق الصحافة فكان صحفيا عنيفا وثوريا ، ولما سأله اميل لودفيج فى أثناء حديثهما عن مدى تقديره للظروف ، وهل ماعاناه وما اختطه لنفسه من أسلوب وسلوك كان هدفا فى ذاته أو وسيلة أجاب قائلا : انى كنت أشعر فى قرارة نفسى بأنها كانت مرحلة تأهيل وتمهيد لأمر جسيم أقدم عليـه فيما بعد ، وكان احساسى فى هذا الشأن واضحا تماما ، ويقول موسـولينى انه أعجب بكتاب « الأمير » لماكيافيل ذلك الكتاب الذى كان والده يقرؤه على أبنائه يوميا ، وأنه أدرك ان لحياة الشعوب فصولا كفصول السـنة ، فصولا تتجدد عبر التاريخ ، ولذلك فان الشتاء لا يفزعه لأنه يعلم أن وراءه

الربيع وفي الربيع له أمل ، وأنه بوحي من هذا الأمل أصدر جريدة سرية ليهيب فيها بالشباب الثوري أن يندفع لتحقيق ثورة اجتماعية وثـــورة سياسية وثورة وطنية • ويقول : ان الثورة في تلك المرحلة كانت مجرد أمل ، وكان البون شاسعا بينها وبين الحقيقة ، وأنه أدرك ان الأمة الايطالية على الرغم من مشاركتها للحلفاء في النصر ، كانت تتجه الى الانحدار • كان موسوليني — على حد قوله — يدرك أن ايطاليا كانت في طريقها الى فقدان كل ثمن للنصر الذي تحقق ، وأنه لهذا كان الشعب يتطلع الى ثورة تتسم بطابع العنف •

ويقول : ان اللبنة في بناء هذا الشعب كانت ذلك الفرد المتغير المتبدل •• الفرد الخاضع لجميع الاحتمالات والظروف والمؤثرات : مـؤثرات الأحياء ومؤثرات الموتى ، ومؤثرات النزوات •

ثم يستطرد فيقول : انه كان عليه ان يدخل هذا كله في اعتبـــاره عندما انتهت قراراته التي اتخذها بوحي من شعوره العميق الذي تملك نفسه ولم يستطع له تعليلا ولا تفسيرا ، ذلك الشعور الذي جعله يدرك الخطر ، ذلك الشعور المقرون بالخيال وبالآمال ، ذلك الشعور الذي يعين عليه أيضا ألا يصطدم بالحقائق وألا يسرح وراء الخيال والآمال الا بالقدر الذي يكفل له الأمن •

وقال موسوليني : ان الحكم لم يكن في ذاته غاية له بل انه وسـيلة لتحقيق أهداف ثورته التي كانت تعتمد أول ما تعتمد على الجهاد والـكفاح وان لم يكتب لها النصر عندئذ ، تلك الثورة التي وصفها بقوله انها كانت رغبة في أن يشترك الجميع في قسوة الحياة وشظف العيش وآلامه ، تلك الحياة التي أراد أن يجعل منها رمزا تلتف حوله النفوس ويلقنه لابنـــاء أمته وهو حب الوطن وأراد أن يحول هذا الحب من عاطفة الى فضـــيلة تتأصل في النفس ويزيدها الكفاح والجهاد على مر الزمن قوة وصـــلابة

وقال موسوليني انه يريد أن يدرب الشعب على الاصرار وعـــلى مواصلة الاصرار ، لأنه مالم تتوافر في الشعب هذه الصفة فانه لن يوفق في تحقيق أي هدف من أهدافه • وأنه يريد أن يمــــزج الاصرار بالصبر

لتحقيق الأهداف ، لذلك فقد كان حريصا على أن يعلم أنصاره الاصرار والصبر في تنفيذ خططه الثورية التى كان يصر على القيام بها ويعد لها فى صبر وأناة •

أما الثورة التى كان يعدلها فلم تكن ثورة سياسيه أى مجرد تغيير فى نظام الحكم ، ولا ثورة سيوعية كالتى قامت فى روسيا ، ولكنه كان يعد لثورة عقائدية منبثقة من صميم احساس وشعور امته •

ويقول موسولينى : ان الفكر الاشتراكى فى ذاته كان ثورة على الأوضاع القائمة فحاربه الاقطاع ورأس المال ولكنه استهوى المحاربين القدماء واستهوى كل من خدع فى آماله ، لذلك فانه أسس ثورته على الفكر الاشتراكى لا على المبادىء اليسارية التى كانت العناصر المتطرفةتريد أن تطبقها نقلا عن روسيا •

كان موسولينى يهدف الى ثورة مبنية على عقيدة تتأصل فى النفوس وتؤمن بتغيير الاوضاع القائمة ، ثورة على الأحزاب لا مع الأحزاب ، ثورة توجه ضد رأس المال المسيطر وضد الرجعية فى شتى صورها • كان موسولينى يهدف بثورته الى أن يجعل الحكم وسيلته لتطبيق مبادئه ، وقال فى هذا الشأن : انه كان عليه متى بدت دلائل قرب نهاية النظام القائم أن يركض ويعدو ليتلقى تركته ، لأن المبادىء التى آمن بها كفيلة باحياء مجد بلاده •

ويقول : كنا ثائرين ضد السلام لأننا لم نؤمن بأن فى الامكان تحقيق السلام ولم نؤمن بجدوى وفائدة أى سلام دائم ، لأن الدعوة الى السلام متى صدرت من الشعوب المحرومة كانت هروبا وجبنا أمام واجب التضحية والفداء ، والحرب وحدها هى الكفيلة برفع طاقات الشعوب الى أقصى الدرجات ، كما أنها تخلق فى الشعوب الاحساس بالكرامة والنبل ، وأنه ما من اختبار يعلو على ذلك الاختبار الذى يضع الانسان فى مواجهةنفسه ليختار الحياة أو الموت ، لأن الحرب وحدها هى الكفيلة بصيانةالحقوق تلك الحقوق التى لاتساوى شيئا اذا ماتركأمرها الى عواطف أوشعاراتأو مصالح تتأثر بالهوى والأثرة والأنانية • وقال موسولينى : انه لهذا درب

أنصاره على أساليب الجهاد وعلى أساليب القتال ، درب أنصاره على أن ينظروا لحياتهم باعتبارها واجبا مقدســـا يتعين تسخيرها لتحقيــق أمجاد الوطن وأن يعيشوا لا من أجل الحياة ذاتها ، بل من أجل احياء مجد وذكرى الأسلاف ومستقبل الأبناء والأحفاد .

طالب أنصاره بأن يشاطروا البشرية عواطفها ومشاعرها كأعضاء فى المجتمع الاوروبى المتحضر ، على أن تكون مشاركة حذرة تدقق فى وجه غيرها بحرص وحذر وتتابع هذا الغير لتتحقق من انفعالاته وترصد تطــور مصالحه حتى لاتخدعهم المظاهر المتقلبة الكاذبة .

وطالب أنصاره بألا يقفوا عند النظريات المادية مهما بلغت أهميـــة الأحداث الاقتصادية لأن تاريخ البشرية يستند أيضا الى مبادىء ومشــاعر ذات قدسية أساسها البطولة وحذرهم تلك الوعود التى تحويها المبـــادىء المادية والتى تبشر بعالم تسوده « السعادة » آليا بتوافر عناصر اقتصـــادية معينة ، وكأن العالم وفقا لهذه النظرية سيحول البشرية الى مجرد حيــاة مادية .

حذر أنصاره من المبادىء الديمقراطية التقليدية التى تترك لأغلبية برلمانية القضاء فى مصير الجماعة ومصالحها ، ونادى بنظام يحقق الأمانى القومية للأمة الايطالية تلك الأمانى التى برزت وتطورت بحـــكم تاريخ الشعب الايطالى وتقاليده وشعوره النفسانى العميق .

قال : ان حكم الشعب لمصلحة الشـــعب بطريق الانتخاب التقليدى ما هو الا خرافة لأنه نظام لايحقق المساواة السياسية . دعا الى توجيــــه الاقتصاد وتسخيره لمصلحة الأمة ولمصلحة المجتمع ، ونادى بأن تحـــكم الأمة على أساس المبادىء التى تعتبر خير ما فى النظم المختلفة ، لتكفل للأمة الحياة والبقاء ، وقال انه لاتوجد أنظمة ثابتة مستقرة صالحة للبشرية فى كل مكان وفى كل زمان ، ونادى باقامة دولة قوية ترعى الحقوق والحريات وتذوب فيها الطبقات وتصبح العنوان الحقيقى للأمة ولا تكون مجرد حارس أو منظم للحقوق ، أو مجرد عنوان سياسى ، بل تكون واقعا معنويا وأخلاقيا

يدعم الكيان والتنظيم السياسى والقانونى والاقتصادى للدولة ، بحيث تكون الدولة هى الأمينة على مصالح الأمة التى تلقتها من الأجيال السابقة كوديعة تدافع عنها وتدعم وجودها فى الداخل وفى الخارج ، وبذلك لا يتمثل فى الدولة الحاضر فحسب ، بل يتمثل فيها أيضا ماضى الأمة ومستقبلها ، وتكون هى الضمير الحى للأمة ، وهى التى تتولى توعية الشعب ورفع شعوره القومى الى مستوى الرسالة وتزيل الفوارق بين الطبقات ، وتنسق بين المصالح وترعى غزوات الفكر فى ميادين العلوم والفن والحق وفى تفهم التضامن البشرى ، وترفع البشر من الحياة البدائية الى أرفع مستويات السلطة والوجود وتنقل عبر الأجيال سيرة من استشهد فى سبيل استقلالها ووحدة وسلامة أراضيها ، ومن أجل عزتها ورفعة شأنها وقال: ان الدولة وحدها هى التى تستطيع حسم الصراع والتناقض الذى خلفه النظام الرأسمالى وهى وحدها القادرة على حل الأزمات وتدارك نتائجها .

وعلى هذا نادى موسولينى بضرورة الايمان بمبدأ قيام دولة قوية منظمة تستند الى أوسع القواعد الشعبية ، دولة تسيطر على الميدان الاقتصادى عن طريق الأنظمة التى تحكم المهن المختلفة وتوجه السياسة التعليمية وتطور الأوضاع الاجتماعية وتباشر الدولة نشاطها واشرافها الى أقصى البلاد وتتغلغل فى أعماق الطبقات ، دولة تستند الى تأييد ملايين من أبناء الأمة يعترفون بفضل نظمها هذه ويحسون بها ويحرصون على بقائها ويتصدون لمن يعمل على حرمانهم من مكاسبهم فى ظلها ، دولة لاتستند الى السيطرة والاستبداد ، بل تستند الى شعب تنظمه دون حجر على الحريات فيه ، فحرية الشعب ضرورية لاشعاره بآدميته ، دولة تحارب الحريات التى تفيد منها قلة وتحارب تلك الأوضاع التى تمكن قلة من استغلال المجموع تحت الشعار المزيف للحريات .

***

وهكذا نادى موسولينى بقيام دولة فاشستية تكون تعبيرا لارادة الشعب الايطالى وانعكاسا لمجده السالف وتمهيدا لسلطان ولسيطرة وعظمة مقبلة ولامبراطورية رومانية جديدة . ولقد زاد موسولينى دعوته ايضاحا فقال:

ان الامبراطورية ليست مجرد توسع فى الأراضى أو فى التجارة أو فى تحقيق المجد العسكرى ، بل هى أولا امبراطورية معنوية وأخلاقيـة ، امبراطورية تقود شعوبا وأمما أخرى دون أن تزيد رقعة أراضيها شبرا واحدا •

وقال موسولينى : انه اذا انعدمت تلك الحوافز التى تعد رمزا للحيوية فان مآل الدولة الى التراجع والانهيار •

***

نادى موسولينى بمبادئه معلنا أنها السبيل الوحيد لاحياء الأمة الايطالية بعد العديد من القرون التى عانت خلالها اهمال الدول لها وتخليها عنها ، بل عانت خلالها ذل الحكم الأجنبى ، وأعلن أنه ما من سبيل لتحقيق هذا الأمل وبناء تلك الدولة وتحويلها الى امبراطورية الا اذا آمنت الأمة الايطالية بالنظام وتنسيق الجهود ، واعتبرت ذلك أملا تؤمن بضرورة تحقيقه كواجب مفروض عليها يحتم عليها أولا وقبل كل شىء البذل والتضحية والكفاح من أجله ، واذا نجحت الأمة الايطالية فى ذلك كتب لها الوجود على صفحات التاريخ •

***

تلك كانت أهداف موسولينى ، وقد أدرك أن عليه أن يسعى للسيطرة على نقابات العمال لتحل المبادىء التى كان ينادى بها محل مبادىء الحزب الشيوعى ، وأدرك أن عليه أن يكسب — فى ذات الوقت — تأييد الطبقـة المتوسطة التى كانت تتطلع فى خوف ولهفة الى منقذ يحميها من الحركة الشيوعية التى بدأت تعم البلاد وتشل مرافقها •

وهكذا شرع موسولينى يقدم للشعب الايطالى فلسفته الجديدة ودعوته الجديدة لتحقيق أمانيه ليحول دون وقوع تلك الفوضى التى بدأت تعم البلاد والتى كانت تستمد القدوة والتوجيه من روسيا السوفيتية ، وبدأت الحركة الشيوعية تجد فى موسولينى خصما قويا عنيدا يقدم للشعب الايطالى فلسفة جديدة ودعوة جديدة تحقق أمانيـه وتحول دون وقوع

الفوضى • فكان من الطبيعى والأمر على هذه الصورة أن تتجه انظار البلاد الى موسولينى ، وظن موسولينى أن الوقت قد حان ليعمل ، ولكنه صدم في أول محاولة قام بها في يونيو عام ١٩٢١ عندما تصدى لرجال حزبه خصومه في معارك سقط في أولاها خمسمائة من رجاله ، وبدأ الشعب الايطالى يشعر أن في دعوة موسولينى وفى حلفه مع « دانتزيو » ؛ ما يرضى كبرياءه كشعب ، وما يبعث فى نفسه الأمل ، فاتجهت الأنظار الى موسولينى ، وبدأ حزبه يتسع ، وانضمت اليه أفواج من العمال والمفكرين وعدد كبير من الطبقة المتوسطة ، ونجح موسولينى فى كسب الرأى العام الايطالى الى جانبه ، ولكنه كان حريصا كل الحرص على اجتذاب الطبقة العاملة الى دعوته ، ولهذا فان أوفر جهوده كانت مركزة في الأوساط العمالية ، وبدأت هذه الجهود تتمر فبلغ عدد العمال المناصرين له فى عام ١٩٢٢ نصف مليون عامل •• وعندئذ رأى موسولينى ؛ بعد أن اكتملت له أسباب القوة أن يوجه ضربته الى نظام الحكم القائم فى ايطاليا •

ان موسولينى يعتبر فى علم الثورة ، صاحب مدرسة ، فقد ابتكر لها أسلوبا تفرد به ، لقد بدأ العمل من أجل الثورة ، بشخصه وبالمبادىء التى أعلنها وكسب لها الأنصار والمؤيدين ، وحول اليه تأييد الرأى العام الايطالى ، وتجلت براعته فى أنه نجح فى ذلك كله دون أن يعرض نفسه لمخاطر شديدة أو هزة عنيفة تعصف بذلك البناء الذى كان موسولينى يضع لبناته الصغيرة فى رفق وحذر ووسط الزوابع والأعاصير التى كانت تجتاح ايطاليا ؛ والتى كان ممكنا أن تدك هذا البناء قبل أن يقوى ويكتمل •

***

وقد أحسن موسولينى اختيار أعوانه ، وأحسن اختيار وقت العمل وعرف كيف ينتظر حتى يشعر الشعب الايطالى بفراغ سياسى يعوزه من يملؤه ، فحينما دقت الساعة كان موسولينى رجلها •• بدأ موسولينى ثورته فى ١٥ من مارس سنة ١٩٢٢ فى مدينة « فيومى » حيث قام أنصاره

بالاستيلاء على مقاليد الحكم ؛ ثم امتدت الحركة الى التيرول الذى كانت ايطاليا قد ضمته لاراضيها بعد سلخه من النمسا وأحل أنصار موسـوليني اخوانهم الايطاليين محل الألمان في مراكز الادارة بتلك المنطقة •

ولم يدرك الحزب الشيوعى وأنصاره براعة موسـوليني في تدبير الأحداث واستغلالها ، فأعلن هذا الحزب عن قيام حركة اضراب شـاملة في البلاد في أول أغسطس عام ١٩٢٢ ، ولم تقم الحكومة اذ ذاك بأى عمل ايجابى لمقاومة هذه الحركة ، بل انه وضح للكافة عجزها عن مقاومتها وشرع العمال في الاضراب وعمت الفوضى البلاد ، وكانت تلك هي اللحظة التي ينتظرها موسوليني فدبر حركة الزحف على روما ، وزحف أنصاره عليها ونجح الزحف ، وأكره الملك على استدعاء موسوليني لتشكيل حكومة جديدة •

وفى ٣٠ من أغسطس عام ١٩٢٢ وصل موسوليني الى روما ، دخلها بمبادئه ، وفرض نفسه بقوة أنصاره ، دخلها بقوة الثورة على الأوضاع التي كانت قائمة ـ اذ ذاك ـ ودانت له الأمور وألقيت اليه مقاليد الحكم فحكم ايطاليا على الصورة التي ستتعرض لها بالقدر الذى يتصل بموقف الغرب من الشرق خلال المدة التي حكم فيها موسوليني •

الفصل الثامن

الولايات المتحدة الأمريكية والحرب العالمية الأولى

« موقف الشعوب من التيارات السياسية التى ظهرت خلا لالحرب ـ الثورة »
« الامريكية ـ واشنطن وجون آدمز ـ وثيقة الاستقلال الامريكى ـ الرئيس ولسن يعمل »
« على تخفيف ويلات الحرب ـ رسائله الى الدول المتحاربة ـ رسالته الى الكونجرس »
« في ٢٢ من يناير سنة ١٩١٧ ـ المبادىء التى نادى بها ـ نظرية الصلح بدون نصر ـ »
« الرد الالمانى ـ الولايات المتحدة تقطع العلاقات السياسية مع المانيا ـ دخول الولايات »
« المتحدة الحرب ـ خطاب ولسن في ١٦ من يوليو سنة ١٩١٧ ـ المجهود الحـربى »
« الامريكى ـ ولسن ومؤتمر الصلح ـ بريطانيا وفرنسا وايطاليا تواجه الرئيس ولسن »
« ـ الدول الغربية تعمل على ايجاد فراغ حول ولسن ـ الاسباب ـ موقف الرئيس »
« ولسن ـ نصائح الكولونيل هاوس ـ ولسن ومعاهدة الصلح ـ ولسن يواجه البرلمان »
« الامريكى ويواجه الشعب الامريكى ـ ولسن وحلفاء الامس ـ خطاب للرئيس ولسن في »
« ٢٧ من اكتوبر سنة ١٩١٧ وتعقيبه عليه ـ ولسن الفيلسوف ـ نهاية ولسن » .

***

مادمنا قد استعرضنا الثورات التى قامت فى أوربا فى نهاية الحرب العالمية الأولى واستعرضنا أوضاع وحالات الدول الأوربية التى هزمت أو خرجت من الحرب مجروحة الكرامة ؛ فانه يتعين علينا أن نعطى صورة سريعة لمختلف التيارات السياسية الكبرى التى ظهرت بشكل واضح خلال تلك الحرب وأصبح لها كيان ودور رئيسى تلعبه فى نهايتها ، وكانت هى بحكم شعاراتها التى ظهرت بها بمثابة منارات أو مراكز اشعاعات تطلعت اليها جميع الشعوب المغلوبة على أمرها التى وجدت فيها صدى لأمانيها ، كما وجدت فيما أدلى به الساسة من التصريحات ، ومن عزمهم على تحويل تصريحاتهم الى أعمال وحقائق ، وجدت هذه الشعوب ومضات أمل قوية تلوح فى أفق حياتهم ، أمل قوى يساند انتفاضاتهم ضد الاستعمار ، ولكن

الى أى مدى تحقق هذا الأمل ؟ هل كان الساسة صادقين فيما أدلوا به من تصريحات ؟ هل تجاوبت هذه التيارات الفكرية والسياسية وأماني الشعوب المهضومة الحق والأمم المغلوبة على أمرها كما كانت تأمل هذه الشعوب وتلك الأمم ؟

لنبدأ حديثنا فى هذا الشأن بالولايات المتحدة الامريكية وليدة الثورة ووليدة انتفاضة كبرى قام بها شعب جمعه تصميم أكيد ووحد بين أبنائه العزم الأكيد للتخلص من التسلط الاستعمارى من أجل الحرية والعدل والمساواة ، انتفاضة كبرى قام بها ضد انجلترا أقوى الدول الاستعمارية آنئذ ، فقد قاوم الشعب الامريكى تلك القوانين الجائرة التى فرضها عليه البرلمان الانكليزى فى ابريل سنة ١٧٧٤ والتى عرفت بالقوانين الخمسة الجائرة التى صدرت اثر الحوادث المعادية لانجلترا التى وقعت فى بوسطن ، وظهر فى امريكا وقتئذ ثوار وقادة ، والتاريخ الامريكى سجل لأمثال « جون آدمز » و « جورج وشنطن » وغيرهما من مواقف البطولة ما يغنى عن كل تعليق ، ومضت امريكا فى صراعها ضد الاستعمار البريطانى الى أن كتب لها النصر وحصلت على استقلالها ، وقد تضمنت وثيقة استقلال امريكا الاعتراف بالحرية والمساواة والاخوة والعدالة بين الكافة ، تلك المبادىء التى نادى بها من قبل الفلاسفة ودعت اليها رسالات الأنبياء والرسل •

واذا كنا قد قدمنا فى هذا الباب بتلك الأسطر القليلة عن ثورة الولايات المتحدة ، فاننا أردنا بذلك أن نشير الى أن هذه الدولة الكبرى انما كانت وليدة ثورة على ظلم ، ثورة شعب ذاق مرارة الاستعمار واكتوى بناره ، ومن ثم فقد كان حريا بهذا الشعب وقادته ؛ وحريا بهذه الدولة أن تقدر تماما ، وتشعر بما كانت تعانيه الشعوب المغلوبة على أمرها والأمم التى جثم على صدرها كابوس الاستعمار الغربى • كان جديرا بشعب الولايات المتحدة الامريكية وبقادته ان يستعيدوا ذكريات آلامهم وقسوة استعمارهم قبل ثورتهم من صرخات الشعوب التى تعانى هذه الآلام •

***

أعلنت الحرب العالمية الأولى فى أثنـــــاء أن كان الرئيس توماس وودر وولسن Thomas Woodrow Wilson, اســـتاذ القـــانون يرأس جمهورية الولايات المتحدة الامريكية ، وكان يرقب أحداث هذه الحرب وتطوراتها ، ويعمل جاهدا على انهائها ، بل كان يعمل على فرض الســلام متى تهيأت له الوسائل لن يقدم الرئيس ولسن على اتخاذ مواقف ايجابية شديدة للحد من ويلات الحرب وتأثيرها فى الدول المحايدة ولا ســـيما الحد من حرب الغواصات بالذات ، أكثر من حصوله على وعد من المانيـا فى عام ١٩١٦ للحد من هذا النوع من الحرب ، وكان الموقف السياسى يحتم آنئذ على الرئيس ولسن التزام جانب الحـذر والحرص لأن مدة رياسته كانت تنتهى فى ذلك العام ، ومن أجل هذا ، فقد قصر دعوته فى عام ١٩١٦ على السلام ، ثم تقدم ولسن الىالانتخابات الامريكية عنالحزب الديمقراطى لتجديد رياسته وكتب له الفوز على منافسه مرشح الحـزب الجمهورى وأصبحت مقاليد الحكم بيد ولسن حيث امتدت رياســـته للجمهورية لمدة أربع سنوات أخرى ، واطمأن بذلك الى امكانياته والى حريته فى مواجهة الموقف العالمى بمبادئه وبفلسفته التى اعتنقها ونادى بها وكانت مبادىء وفلسفة ترمى الى أن تسود الاخوة ويعم السلام العالم بأسره •

وعلى هذا الاساس شرعفى اتخاذ الخطوات الايجابية لفرضالسلام فى العالم كله ، فوجه فى ١٨ من ديسمبر سنة ١٩١٦ رسالة الى الدول المتحاربة دعاها فيها الى السلام ؛ وكانت دعوته فى هـــذه الرسالة باسم الدول المحايدة التى كانت مصالحها تتعرض لخطر الحرب على الرغم من كونها لم تتورط فيها • وقد ردت الدول المتحاربة على رسالة ولسن وفقا لمنطق كل منها ولأسلوبها السياسى ، وكان أسلم هذه الردود وأقربها الى دعوة ولسن من حيث الشكل رسالتى فرنسا وبريطانيا ، وعاد الرئيسولسن فى ٨ من يناير سنة ١٩١٧ وبعث الى الدول المتحاربة رسالة أخرى ضمنها النقاط الاربع عشرة لتحقيق السلام فى العالم ؛ ثم عاد فوجه رســالة الى الكونجرس الامريكى فى ٢٢ من يناير سنة ١٩١٧ ، تلك الرسالة التى اشتهرت وقتئذ بدعوة « الصلح بدون نصر » والتى كانت صـــــورة من

انعكاسات وانفعالات وانطباعات الرئيس ولسن ، ذلك السياسى الذى دون تاريخ الأمة الامريكية ، وسجل ما مرت به من تطورات خلال مراحل كفاحها ، وأفاض فى شرح ثوره هذا الشعب وموقف امريكا من الاستعمار البريطانى ، ذلك السياسى الذى رأى أن القدر اذ مكنه من رياسة الولايات المتحدة ، فانما هيا له الفرصة ليحول العالم المتخاصم الى عالم أفضل ، فأفرغ فى رسالته هذه كل ما كان يجيش فى نفسه من مبادىء وأحاسيس ، أعلن فيها ان الاتفاقيات التى تعقد بين الدول المتحاربة لا يمكن أن تحقق السلام وأن العالم فى حاجة الى هيئة عليا تتمتع بالقسوة التى تمكنها من فرض السلام فرضا ، تتمتع بقوة دونها سائر قوى الدول المتحاربة اذ ذاك ، بل تمتع بقوة لا يمكن أن يتمتع بها أى حلف من الدول يمكن أن يتألف ضد هذه الهيئة المرجوة ، وقال فى رسالته : ان قوة الهيئة التى يدعو الى قيامها يجب أن يتكفل بتوفيرها المجتمعات الانسانية حتى يصبح السلام سلاما دائما وحقيقة واقعة .

وقالت رسالته : انه لكى يسود السلام العالم يتعين ان تنتهى الحرب دون ان تحرز أية دولة من الدول المتحاربة النصر ، أى أن يتحقق السلام بغير انتصار ، وفسر ولسن رأيه هذا فقال : ان معنى النصر فى الحرب هو فرض شروط الصلح على الجانب المهزوم ، شروط الغالب على المغلوب ، وهى شروط يقبلها المهزوم مكرها وفى خضوع ومع تضحيات من جانبه ترهقه ، وذلك هو صلح يترك جرحا لا يلتئم ويخلف مرارة وكراهية فى النفوس ، وذكرى أليمة لا تمحى ، مع أن الصلح فى حقيقته يعرض ولا يفرض ، والصلح الدائم السليم هو الذى ينعقد بين طرفين متكافئين متساويين فى الخير الذى يعود على الجميع وتسوى به المشكلات الاقليمية والجنسية والوطنية على أساس من العدالة ، فالمساواة التى يقوم عليها السلام يجب أن تكون مساواة فى الحقوق لكى تبقى وتدوم ، والضمانات التى يحتاط بها لأنفسهم المتصالحون يجب ألا تكون سبيلا للتفرقة بين الشعوب كبيرها وصغيرها ، قويها وضعيفها . وقال : ان السلام لن يقوم الا على الحق الاجماعى ، لا على القوة الفردية لأية دولة من الدول ، وان

العالم يتطلع الى حياه حرة كريمه لا تستند الى السياسة التى تقوم على توازن القوى بين الدول ، والسلام لن يسود العالم مالم يترك العالم لكل شعب الحق فى اختيار نوع الحكم الذى يرضاه والحكومة التى تحكمه ، وبأنه لا توجد أية سلطة تسمح بنقل الشعوب من يد حاكم الى يد حاكم آخر ، كما لو كانت الشعوب سلعة متداوله . وطالب ولسن بحرية الشعوب وباستقلالها وبتطويرها اجتماعيا وصناعيا فى حرية تامة ، ونبه الى ما يكمن وراء تجاهل عواطف الشعوب واغفالها من الخطر ، ثم استطرد ولسن يعرض آراءه وبرنامجه فى رسالته ، فدعا الى الاعتراف بحق الشعوب جميعا فى تقرير مصيرها بنفسها ، ودون ان تقام أمامها فى هذا السبيل عقبات أو يوجه اليها تهديد أو ارهاب ، كما دعا الى افساح السبيل أمام الامم الصغيرة لتسير مع الأمم القوية والعظيمة ؛ جنبا الى جنب .

لقد كانت رسالة ولسن هذه عرضا شاملا للمبادىء الأربعة عشر التى جعلها دستورا لسياسته الخارجية ، ودستورا للصلح الذى كان اذ ذاك ينوى عقده أو فرضه على الدول المتحاربة ، وانبعثت منه هذه الرسالة كمحاولة لتحديد موقفه من الحرب على أساس مثالى وفلسفى .

* * *

وفى ٣١ من يناير عام ١٩١٧ تلقى ولسن رسالة من الحكومه الألمانيه تقول فيها : انها على الرغم من حرصها على تحقيق السلام الذى يدعو اليه ، واستعدادها لاستجابة رغبة ولسن فى هذا الصدد ، الا انها أمام اصرار بريطانيا وفرنسا على مواصلة الحرب الى النهاية ، وحيال ما تستخدمه الدولتان من جميع الوسائل لقهرها ، فانها لهذه الأسباب لا تستطيع أن تتحمل عبء الامتناع والكف عن استخدام أية وسيلة من وسائل الحرب تمكنها من انهائها على أسرع وجه . وقالت رسالة الحكومة الألمانية : انها كانت تعتمد على الرئيس الامريكى لتحقيق السلام وانهاء الحرب ولكنه لما لم تنجح مساعيه من أجل هذه النهاية ، فانها تجد نفسها مضطرة ــ خدمة للانسانية الى العمل على سرعة انهاء الحرب واستعمال كل الوسائل الكفيلة لتحقيق هذا الغرض ، وان المانيا لهذه الأسباب لتعلن

بأنها غير مقيدة بالتعهدات التى سبق لها الارتباط بها بالنسبة للحكومة الامريكية فى شأن عدم الالتجاء الى حرب الغواصات • وفى ختام الرسالة أبدت الحكومة الالمانية أملها فى تقدير الرئيس ولسن لموقفها وللضرورة التى حتمت عليها هذا الموقف • وكانت هذه الرسالة سقطة من المانيا ، سقطه عسكرية وسياسية ، اذ انه بمجرد ان قرأها ولسن بادر بدعوة مجلس البرلمان فى ٣ من فبراير سنة ١٩١٧ ثم بدعوة أعضاء المحكمة العليا فى ذات اليوم وأعلن ولسن الهيئتين بتنكر المانيا لمواثيقها ولتعهداتها للولايات المتحدة ، وقرر قطع العلاقات السياسية بين الولايات المتحدة الامريكية والمانيا ، وكانت هذه بداية لاتجاه الولايات المتحدة فى طريق الحرب • وقد أعلن الرئيس الامريكى أنه فى حالة تعرض البواخر الامريكية وأرواح الامريكيين للتهديد والاعتداء الذى يعتبر خرقا للقوانين واهدارا للحقوق المعترف بها لسائر البشر ، فانه سيعود الى الكونجرس الامريكى ليطلب اليه ان يأذن له باستخدام الوسائل التى تحمى أرواح أبناء امريكا وبحارتها فى أثناء تنقلهم عبر البحار • وهكذا بدأت مرحلة من التحدى بين الرئيس ولسن والمانيا وقد أوضح ولسن هذا التحدى فى الكونجرس فى السابع من مارس سنة ١٩١٧ فقال : اننى لأتوسل الى الله ان يمنحنى الحكمة والحذر لكى أؤدى واجبى بما يتفق ومصلحة هذا الشعب العظيم الذى أنا خادمه والذى لا أستطيع أن أنجح ما لم أحظ بتأييده وبثقته ، وما لم يرشدنى بنصحه •

وفى هذه الكلمة التى ألقاها ولسن فى الكونجرس طالب الشعب الامريكى بالاتحاد وحذره العناصر المخربة •

وفى ٢ من ابريل سنة ١٩١٧ دعا الرئيس ولسن الكونجرس الى الاجتماع فى دورة استثنائية وطلب التصريح بدخول الولايات المتحدة الامريكية الحرب بجانب الحلفاء واستند فى طلبه هذا الى استحالة الحياد المسلح ، كما اقترح على الكونجرس أن يبادر فيعلن أن الأساليب التى لجأت اليها المانيا ، هى بمثابة حرب ضد شعب وحكومة الولايات المتحدة الامريكية. ودعا ولسن الكونجرس الى اعلان قبوله الحرب التى فرضت عليه والى اتخاذ الاجراءات العاجلة التى من شأنها ان تصبح البلاد فى حالة دفاع

تماما والتى يتسنى بها تطوير قوة البلاد وتسخير مواردها لكى توقف الحكومة الالمانية عند حد وتنهى الحرب •

أعلن الرئيس ولسن خطته وهدفه فى الدخول فى الحرب • وفى السادس من يوليو سنة ١٩١٧ زاد موقفه تحديدا فى خطاب ألقاه على الشعب الامريكى قال فيه : انه على استعداد تام لأن يدعو الآلاف بل مئات الآلاف بل الملايين من أبناء أمريكا ومن شباب أمريكا ذوى السواعد القويه لكى يواجهوا الموت دفاعا عن العلم الامريكى ، وان هذا الشباب سيذهب عبر البحار ليبذل دمه فى سبيل غاية لم يألفها ، فى سبيل ما لم يسبق له التفكير فيه ، فى سبيل السلام ، من أجل انقاذ البشر وتحقيق السلام بين الأمم ، وانه على استعداد للدفاع عنه وتبرير دفاعنا أمام محكمة التاريخ انه هدف سيضيف الى علمنا مجدا سندفع ثمنه من أموالنا وحياتنا ومن دماء أبنائنا ، ومتى انتصرت عقيدتنا التى نشأنا عليها فسنعكس مجدها على شعبنا بأسره ، والويل لمن يقف فى طريق هذه العقيدة • ولقد نجح الرئيس الامريكى ولسن فى حمل أمته على الدخول فى الحرب ، وتجلت زعامته على الولايات المتحدة وعلى الشعب الامريكى تلك الزعامة التى فرضها على مجلس الكونجرس الذى نازع الرئيس ولسن السلطات التى طلبها لنفسه ليتولى قيادة الحرب ، تلك الزعامة التى فرضها ولسن فيما بعد على حلفائه وعلى أعدائهم عند الانتصار •

* * *

ولقد أخذ المعلقون السياسيون على ولسن ما وصفوه بأنه تخبط فى سياسته هذه بين السلام والحرب ، وقالوا ان هذا التخبط كان من شأنه أن جعل الامريكى العادى لا يدرك لماذا دخلت امريكا الحرب ، وعزوا السر فى دخوله الحرب الى ما كانت تعانيه أمريكا من متاعب نتيجة لقطع مواصلاتها بأوربا بفعل حرب الغواصات التى شنتها المانيا على السفن عبر الاطلنطى ، واتهموه كذلك باقحامه امريكا فى الحرب لا لسبب غير خوفه من انتصار المانيا على الحليفتين الغربيتين : بريطانيا وفرنسا ومخاوفه من تمكن المانيا من بسط سلطانها وتوسيع نفوذها بحيث ينتهى هذا الى تهديد

الولايات المتحدة الامريكية ذاتها • غير أنه على الرغم من هذا النقد الذى وجه الي الرئيس ولسن ، وبغض النظر عن هذه الاتهامات ، فان الذى أثبته الواقع الظاهر ، هو أن ولسن التزم مبادئه تلك ولم يتخل عنهـــا حتى نهاية الحرب وعقد مؤتمر الصلح •

***

دخلت الولايات المتحدة الامريكية الحرب وأدت في غمارها ضريبة الدم ، ويكفي لكى ندرك فداحة العبء الذى تحملته الولايات المتحدة فى هذه الحرب أن نعلم بأن القوات الامريكية المحاربة كان عددها فيمارس سنة ١٩١٧ مائتى ألف جندى فوصل هذا العدد خلال الثمانية عشرشهرا التالية أربعة ملايين وثمانمائة ألف رجل ، من بينهم مليونان و ٨٦ ألف جندى يقاتلون داخل الأراضى الفرنسية وحدها كما كان بين هذا العدد مليون وثلثمائة وسبعين الف جندى امريكى فى خطوط القتـــال ؛ وان التعبئة في امريكا شملت أربعة وعشرين مليونا من الرجال ونقلت امريكا الى فرنسا خلال هذه الفترة سبعة ملايين وخمسمائة ألف طن من البضائع والأسلحة والمهمات ، وقتل من الجنود الامريكيين خمسون ألفا فيالمعارك الحربية وحدها وجرح وشوه مائتان وستة آلاف ؛ وبلغت خسائر الجيش الامريكى فى فرنسا وحدها مائة وخمسة عشر ألفا من الموتى ؛ ولكىندرك أيضا فداحة العبء العسكرى الذى تحملتـــه امريكا • نقول ان الجيش الامريكى وحده ، فقد فى معركة «الارجون» مائة وعشرين ألف جندى بين قتيل وجريح • فالحرب العالمية الأولىكلفتالولايات المتحدةالامريكية خلال الفترة القصيرة التى خاضتها اثنين وعشرين مليارا من الدولارات ، علاوة علىالقروض التى أمدتبها فرنسا وبريطانيا وحلفاءها ؛ ويبلغ قدرها عشرة مليارات من الدولارات ؛ كما أنها أقرضت فرنسا وحدها فيما بين ابريل عام ١٩١٧ ونوفمبر عام ١٩١٨ ثلاثة عشر مليارا من الفرنـــكات الذهب ؛ وأمدتها بخمسة ملايين طن من المواد الغذائية ؛ وبما زنته خمسة ملايين طن من المعدات مضافا الى مازنته مليون ونصف مليون طن من الصلب •

ولقد وصف اندريه تارديه André Tardieu الوزير الفرنسى هذه المعونة فقال : ان امريكا تكلفت بتقديم الغذاء لاثنى عشر مليونا من الشعب الفرنسى •

***

وقد كان طبيعيا أن تنتظر امريكا الى أن يتم تسليم المانيا استجابة لشروط الرئيس ولسن ، وتعلن ايمانها بالمبادىء التى نادى بها الرئيس الامريكى ، ثم بعد هذا تعلن الهدنة وينعقد مؤتمر الصلح ، لكى تتبين حقيقة موقف بريطانيا وفرنسا وايطاليا منها •

وانعقد مؤتمر الصلح واشتركت فيه الدول المتحالفة ودعى اليها مندوبون عن المانيا وحضره الرئيس ولسن تحفه دعوته الى السلام، وتحيط به هالة من تلك المبادىء التى أعلنها ونادى بها وقطع على نفسه عهدا أمام العالم باحترامها • حضر الرئيس ولسن مؤتمر الصلح كصاحب دعوة ، وحامل رسالة وحضرت بريطانيا وفرنسا وايطاليا المؤتمر مثقلة بما بذلته من تصريحات ووعود ، مثقلة بالمواثيق الخفية والمعاهدات السرية التى عقدت بينها لاقتسام تركة أعدائهم المقهورين المهزومين •

***

وكان الرئيس ولسن يأمل بحكم المبادىء التى أعلنها والرسالة التى حملها أن يجلس على مقعد القاضى فى المؤتمر ليكون الحكم بين المنتصرين والمهزومين وليجبر الفريقين على احترام المبادىء التى أعلنها ؛ غير أن هذا الأمل لم يكن الا سرابا ، وفوجىء ولسن بتنكر حليفتيه لما كان يهدف اليه فى مؤتمر الصلح ، فوجىء بمقعد عادى وتبين أن المطلوب منه هو أن يجلس على مائدة الصلح باعتباره واحدا من أفراد الفريق المنتصر فى الحرب ، ثم لا شىء أكثر من هذا •• فلا دور ولا رسالة ولا مثل ولا امامة له ولا قيادة ، فقد انتهت امامته وقيادته بانتهاء الحرب وانتصار الحلفاء فيها ، وبهت الرئيس ولسن وأحس بحرج الموقف ودقته ، وأدرك ـ تماما ـ أن الدول الغربية بعد أن استعانت برجال امريكا وبمعداتها وأموالها لتحقق لنفسها الانتصار ، قد أحدثت حول الولايات المتحدة الامريكية

فراغا واسعا عزلتها فيه بحيث لم تعد لها الكلمة ، أية كلمة فى المصير التى كانت تنتظره وترقبه لنفسها كل الشعوب التى خرجت من الحرب مهزومة، أو الشعوب التى سيطر عليها الاستعمار .

***

فقد تركت بريطانيا وفرنسا الرئيس ولسن يدلى بتصريحاته ووعوده وعهوده وتربصتا له حتى انتهت الحرب بهزيمة المانيا ؛ وحتى انعقد مؤتمر الصلح ، وعلى باب المؤتمر وأدت الدولتان تصريحات ولسن وعهـوده ووعوده ؛ ودفنت رسالته الانسانية .. وأدرك ولسن أن الدولتين الغربيتين تمعنان فى العمل على توسيع الفراغ الذى أحدثتاه حوله لأنه أراد أن يطبق مبادئه التى نادى بها فى اثناء الحرب تطبيقا عمليا رأت فيه كل من بريطانيا وفرنسا محاولة من امريكا لتثبيت قدمها فى آسيا وافريقية ومنافستهما فى هذه المناطق ، بل ومن أجل انتزاع السلطان منهما فيها . وتنفيذا لخطة خلق الفراغ حول امريكا قاطعت الدولتان الغربيتان اللجنة الدولية التى شكلها مؤتمر الصلح للتعرف على رغبات الأمة العربية فى فلسطين وفى سورية والأردن ، واصطدمت امريكا بالسياسة البريطانية الفرنسـية فى تركيا حينما بدا أن الولايات المتحدة الامريكية تتجه سياستها الى الابقـاء على الدولة العثمانية على شريطة أن تتولى الانتداب عليها دولة تعمل على تحقيق العدالة والمساواة بين جميع رعايا هـذه الدولة ، وخيل للدولتين ان امريكا انما تهدف من ذلك الى حرمانهما من تنفيذ ماسبق ان تآمرتا عليه فى معاهدة « سان جان دى موريين » من اقتسام الشرق بينهما ، الشرق بما حوى من كنوز أهمها البترول .

***

ونجحت بريطانيا وفرنسا فى ايجاد فراغ حول السياسة الامريكية فى أوربا وفى الشرق ؛ وأصبح الرئيس ولسن فى مـوقف بالغ الدقة والحرج ، فهل يتخلى عن المبادىء التى أعلنها والتى عاهد الشعب الامريكى على تحويلها الى حقيقة واقعة ونافذة ، والتى فى سـبيلها بذلت امريكا ما بذلت من دماء أبنائها ومن أموالها ؟ أو يتمسك بذلك كله ؟

لقد كان على الرئيس ولسن أن يوازن بين تنفيذ هذا العهد الذى قطعه على نفسه لأمته لتنفيذ مبادئه ، وبين مسايرة بريطانيا وفرنسا وايطاليا فى مطامعها التوسعية الاستعمارية على حساب هذه العهود والمبادىء ، ولم يكن أمام ولسن فى مؤتمر الصلح الا أن يختار أحد السبيلين ، فاما أن يتمسك فى مؤتمر الصلح بمبادئه ؛ ومعنى هذا أن يصطدم بحلفائه صداما ينتهى بعودته الى بلاده يجر أذيال الفشل ، ومعناه أيضا أن يتبدد ذلك الحلم الذى داعبه وهو انشاء عصبة تضم أمم العالم وتهيمن على شئونه وتفصل فى مختلف قضاياه وتتحقق فيها المساواة بين جميع الشعوب صغيرها وكبيرها واما أن يجارى فى المؤتمر بريطانيا وفرنسا وايطاليا بعض المجاراة فى سبيل تحقيق ذلك الحلم الكبير بل تحقيق أمله الوحيد ليتوج به حياته السياسية .

ولعل الرئيس ولسن فى موقفه هذا قد تذكر نصيحة مستشاره الكولونيل هاوس الذى كان قد أشار عليه بتجنب الاشتراك بشخصه فى مؤتمر الصلح حتى يظل بعيدا ويبقى سيدا للموقف دون أن يعرض نفسه لمواقف يقع له فيها من الحرج ما وقع فعلا . وعلى أية حال فانه لم يكن بوسع ولسن أن يتراجع أو ينسحب ، وأدركت بريطانيا وفرنسا وايطاليا ما وقع فيه الرئيس الامريكى من حيرة وتردد فعملت على استغلال الموقف الى أبعد الحدود ، وانتهى الامر بتوقيع معاهدة الصلح على تلك الصورة التى أشرنا اليها ، تلك الصورة التى كانت تنكرا ساخرا لحقوق الشعوب والتى أحنقت الدول المهزومة والدول المغلوبة على أمرها ، كما أغضبت الحلفاء المنتصرين فيما بينهم ، وعلى المضض والتألم رضى الرئيس ولسن بما انتهى اليه المؤتمر من نتائج ، لأن احداها كانت موافقة المؤتمر على ميثاق عصبة الامم ... حلمه ... وأمله من أجل السلام ...

***

لقد كان لسلوك الرئيس ولسن ولموقفه فى تلك المرحلة الحاسمة فى تاريخ العالم ، أثر عكسى يرجع الى المبادىء التى كان ينادى بها ، وفى هذا قال الرئيس الامريكى « تيودور » روزفلت ان الرئيس ولسن لا يتصف بالاهلية التى تجعله يتحدث باسم الشعب الامريكى ، وبدأ

الحزب الجمهوري يناوىء سياسة ولسن ويناصبه العداء ، وتلك كانت احدى النتائج التى انتهى اليها الرئيس ولسن وكان أسوؤها أثرا فى نفسه خذلان برلمانه لمعاهدة الصلح التى أبرمها اذ رفض البرلمان التصديق عليها .

***

أما فرنسا وبريطانيا وايطاليا حلفاء الامس الذين انتصروا بفضل الدعوة التى نادى بها الرئيس ولسن والمبادىء التى أعلنها ، أما هؤلاء فانهم تنكروا فى النهاية للرئيس ولسن ، بل تنكروا للولايات المتحدة الامريكية ذاتها وهى التى خاضت معارك الحرب الى جانبهم وقت أن انهارت الجبهة الرومانية وانسحبت روسيا وهزمت ايطاليا فى أعنف وأشد المواقع الحربية ، ووقت أن كانت فرنسا قد أصبحت عاجزة عن تجنيد المزيد من أبنائها ، فى حين كان الاسطول البريطانى قد هوت معظم قطعه الى قاع المحيط بفعل الغواصات الالمانية . لقد تنكر الحلفاء للولايات المتحدة بعد انتصارهم ، وهم الذين وقفوا أمامها فى أثناء الحرب وفى ظلام محنتهم يستجدونها ويتوسلون اليها من أجل أن تقف الى جانبهم وتأخذ بناصرهم .

ان سياسة ومبادىء ولسن لم يخذلها حلفاء الأمس فى مؤتمر الصلح فحسب ، بل انها تعرضت للتجريح وللنقد العنيف من جانب الساسة ، ومن جانب العناصر الاستعمارية فى الدول الغربية ، وأصبح ولسن هدفا تناولته الاتهامات المحرجة لموقفه الانسانى فى الحرب العالمية الأولى ، فقال متهموه ومهاجموه بأنه أراد أن يجعل من المبادىء التى نادى بها انجيلا جديدا يفرضه على الشعوب التى هزمت فى الحرب وعلى الشعوب التى شاركته فى النصر ، كما يفرضه على الاستعمار ، ونسبوا اليه الجهل بحقائق التاريخ وواقعه ، وناصبوا دعوته العداء الى حد أن الرئيس الفرنسى « بول بانليفيه » حذر الفرنسيين اياها باعتبار أنها تنادى بالأخوة والمحبة بين سائر البشر ، لأن هذا الاتجاه فى رأى بانليفيه يمحو من نفوس الشعب حبه للوطن ، ونعوا على ولسن دعوته الى حرية الشعوب والى جمعها تحت لواء هيئة واحدة تنظم أمورها وتحكمها ، واعتبر الحلفاء أن هذا الاتجاه لا يعدو أن يكون ضربا من الوهم فى خيال رجل لا يفهم الواقع ،

ونددوا بما كان قد ألقـــاه من الخطب وركزوا نقدهم فى خطبة كان قد ألقاها ولسن فى ٢٧ من اكتوبر سنة ١٩١٨بمسرح المتروبوليتان أوبرا فى نيويورك ، وقال فيها : انه لا يمكن الســكوت أمام دولة أو مجموعة من الدول تعتمد على قوتها العسكرية لتقرير مصير الشعوب دون أن يكون لها حق تستند اليه فى ذلك سوى قوتها المادية ؟ كما تساءل فى تلك الخطبة عما اذا كان العالم سيترك للشعوب القوية الحق فى الاضرار بالشــعوب الضعيفة وفرض ارادتها عليها وتسخيرها وفقا لهواها ومصالحها ، وعما اذا كانت ستوضع قواعد قانونية عامة تنظم علاقة الدول بعضها ببعض ، وتساوى جميع الشعوب أمام هذه القواعد .

والجدير بالذكر أن ولسن كان يدرك يوم أن ألقى هذا الخطاب أن حلفاءه لم يرتاحوا لما تضمنه من حقائق وبأنه قد خلق لنفسه بما قاله أعداء ، وقد صرح ولسن بهذا المعنى لأحد خلصائه عقب ان ألقى الخطاب، فقال : ان الحلفاء لن يرحبوا بخطابى هذا لأنه تضمن الحقائق التى تغضب الطبقة الاستعمارية فى بريطانيا وفرنسا وايطاليا غير أن العــالم لابد أن يدرك بأنه ليس للولايات الامريكية محاسيب تستثنيهم من تطبيق مبادئها .

***

وانصــــافا للحق نقول : انه عندما كرر مستشارو ولسن الحاحهم عليه من أجل أن يتجنب الاشتراك بشخصه فى مؤتمر الصــلح والسـفر الى أوربا ، صاح ولسن فى مستشاريه قائلا : انى أستطيع أن أعمل وأنا فى مكانى هنا بأمريكا ؟ غير أننى فى هــذه الحالة لن أتمكن من تحقيق المستحيلات التى تنتظرها الشعوب الاوربية منى ، وانى لأعلم – تماما – بأنه ستحدث هناك « مؤامرات (مقالب) وسأكون أنا ضحيتها ، وأعرف أنه لا مفر من ذلك كله ، ولكن على الرغم من هذا فالقضية التى آمنت بهـا ايمانا ملك على نفسى لتفرض على أن أواجه الموقف بنفسى وبشــخصى ثم لا قيمة بعد ذلك لما سيقع لى .

***

لقد وصف كتاب الغرب وساسته موقف وتصرفات ولسن كما فهموها فقالوا : ان الرئيس ولسن أراد أن يحقق الخير للعالم ؛ فأساء الى نفسه وأساء الى العالم ، وكأنما يرى هؤلاء الساسة أن كل عمل ينافي الاستعمار ويناصر الحق والحرية ، انما هو اساءة الى العالم .

ولا شك أنه كان لضعف خبرة الرئيس ولسن بعمق الاساليب الاستعمارية دور مكن حلفاء الأمس من تدبير تلك الخطة (أو المقالب) التي تحدث عنها الرئيس ولسن والتي انتهت باستدراجه الى النزول على ارادتهم وبالاعتراف ببقاء الاستعمار الغربي ؛ بل وبتشديد قبضة الاستعمار وتعزيزه في البلاد التي كانت جزءا من الدولة العثمانية في الشرق العربي ويمكن الحلفاء من الاستيلاء على مستعمرات المانيا .

ولقد كان للخطط التي دبرتها فرنسا وبريطانيا وايطاليا في المؤتمر أثر وانعكاس واضحان على البرلمان الامريكي الذي رفض التصديق على معاهدة الصلح .

وهكذا نجحت بريطانيا وفرنسا وايطاليا في تحطيم كل ما شاده ولسن من آمال كانت الشعوب قد تعلقت بها ، فخسر ولسن بهذا الشعوب التي اجتذبتها مبادئه ، وخسر أيضا البرلمان الامريكي ، وكان لهذه الصدمة السياسية في نفس ولسن أثر بارز ظل يلازمه حتى فارق الحياة ، وعادت الولايات المتحدة الامريكية الى سياسة العزلة من جديد وعلى هذه الصورة تمكنت بريطانيا وفرنسا وايطاليا من فرض ارادتها على الشعوب المغلوبة على أمرها دون أن يكون لهذه الشعوب من وسيله للخلاص الا الالتجاء الى الثورات .

الفصل التاسع

التيارات السياسية في بريطانيا وفرنسا في نهاية الحرب العالمية الأولى

« الحركة الاشتراكية ـ رواد الحركة ـ الحركة الاشتراكية البريطانية ـ حزب »
« العمال البريطاني والحرب ـ الحرب الهجومية والحرب الدفاعية ـ ماكدونالد ـ »
« حزب العمال البريطاني يؤيد الاستعمار ويؤيد الصهيونية العالمية ـ حزب العمال يعلن »
« ان اقصي ماتطمع فيه الدول العربية هو نظام الوصاية ـ الحزب يطالب بوضع السودان »
« والبلاد الواقعة جنوبي مراكش ووسط افريقيا تحت الادارة المشتركة للدول الغربية ـ »
« حزب العمال البريطاني يغلف الاستعمار البريطاني بغلاف أكثر دهاء وخطرا من »
« الاستعمار السافر الباطش ـ حقائق التيارات السياسية البريطانية كانت معروفة »
« للكافة ـ عوامل الفوضي والارتباك والفساد تسيطر على فرنسا ـ اتساع حركات »
« الاضراب والاعتصاب العمال ـ تكتل الاحزاب ضد الحركة الاشتراكية ـ تدهور الاقتصاد »
« الفرنسي ـ الشعب الفرنسي يفقد ثقته بنفسه ـ فرنسا وسياسة العنف في جميع »
« مستعمراتها .. »

***

ان الاعتبارات التى أملت علينا استعراض وضع امريكا وموقفها فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، هى ذات الاعتبارات التى تملى علينا استعراض وضع بريطانيا وفرنسا فى نهاية هذه الحرب والتحدث عن مختلف التيارات السياسية البارزة وقتئذ وعلى رأسها الحركة الاشتراكية وموقف زعماء تلك الحركة من الشرق العربى والاسلامى فى افريقية وفى آسيا ، ولهذا التحديد أهميته فى تكييف تصرفات قادة وساسة الشرق العربى والاسلامى فى الفترة التى تلت الحرب العالمية الأولى وفى التعرف على مبلغ الوهم أو الصدق فى تلك الآمال التى علقها قادة وساسة الشرق على تلك الحركات ، وهل كان فى استطاعتهم أن يدركوا على ضوء الحقائق التى وضحت فى أثناء الحرب وفى نهايتها مباشرة عن اتجاهات الحركة الاشتراكية فى الدول الغربية ازاء الشرق ، ماكان يبرر التعلق بهذه

الآمال التى بعثت التفاؤل فى قلوب الساسة فى الشرق ؟ وهل كان ماعمد الى التبشير به هؤلاء الساسة من آمال تبشيرا صـــادرا عن اقتناع به فى نفوسهم ، سواء أكان اقتناعا خاطئا أم صحيحا اعتمادا على تلك الحركات الاشتراكية أم أن غايتهم من التبشير بهذه الآمال فى الأمة العربية لم تكن تتصل بتحقيق أهداف هذه الأمة ، ولم تكن من أجل دفع الحركة الوطنية الى الأمام •

***

ان الدى يقفز فى الذهن عند ذكر كلمة (الاشتراكية) اســم ماركس Marx, وانجليز Engels, فى حين ان المبـــادىء التى نادت بها الاشتراكية قديمة ، فهى مبادىء تناولتها ونزلت بهـا الأديان السماوية ، كما نادى بها فى مختلف بلاد العالم طائفة من المفكرين الذين تنزهوا عن الهوى ؛ غير أن الاشتراكية كحركة سياسية قد مهد لهـا أول ما مهد الفيلسوف الفرنسى « سان سمون Saint Simon, » بمـا دونه فى مؤلفه الذى نشر عام ١٨١٧ عن الصناعة « مناقشات سياسية وأخلاقية وفلسفية لمصلحة الرجال الأحرار ولمصلحة العمل المستقل » وكان « لسان سيمون » أتباع من بينهم جمـاعة « الســانسيمنيين » الذين ساهموا فى مشروع قنـــاة الســويس • مثل شارل فوريى Charles Fourrier, ولــويس بـــلان Louis Blane, وبـــرودون Proudhon وكلهم من زعماء الفكرةالاشتراكية ••• وقد كانوا أولالقائلين بأن رأس المال وملكية الصناعات الكبيرة ملكية من الأفضل أن تكون للدولة لا الى الأفراد ، واعتبروا أن الدولة هى التى يجب أن تتــولى تمويل الشعب ورعاية الفقراء كما تحدثت عن التأميم ؛ ثم تطورت الحركة الاشتراكية ، وبدأت فى فرض وجودها السياسى فى ثورة فرنسا عام ١٨٤٨ ، تلك الثورة التى نجحت فى تغيير النظام السياسى دون أن تنجح فى تغيير النظام الاجتماعى والاقتصادى ؛ وقدظلت هذه الحركةتتطور الى أنظهر ماركس Marx, وانجليز Engels, فوجدت فيهمـــا من يطـــور المبادىء الاشتراكية ويوجهها التوجيه الذى يتفق ووجهة نظره الخاصــة ، ثم

طورها قادة الرأى من زعماء الفـكر الاشتراكى فى فرنسا وتطورت أيضا فى بريطانيا ، حيث قامت نقابات للعمال واعترف بكيانها القانونى ، وهى نقابات لم تكن قد اتجهت بعد اتجاها اشـتراكيا صريحا ، وظلت المبادىء الاشتراكية تتطور على الصورة التى تفصلها المراجع الخاصـة بهذا الشأن والتى لا يسمح لنا المقام بالافاضة فى الحديث عنها ، فى هذا المؤلف ، تطورت هذه المبادىء فى المانيا وبريطانيا وفرنسا ، وكان تطورها طبيعيا ولم يكن ثوريا ، وكان أبرز من عمل على تطويرها فى بريطانيـا جماعة تـكونت اذ ذاك وعرفت بجمـاعة الـ « فيبيان » Fabians, ثم جماعة أخرى عرفت بجماعة الاتحاد الاشتراكى الديمقراطى ، ثم بدأ حزب العمال البريطانى يظهر فى الوجود ، واشترك فى الدولية الثـانية عام ١٩٠٧ ، وبدأت الحركة العمالية فى بريطانيا تحدد موقفهـا ازاء المبادىء الاشتراكية تحديدا واضحا عندما أقرت المبادىء التى انتهى اليها مؤتمر سـتوتجارت ، وكان من أبرز تلك القرارات القرار الخاص بالسعى لمنع الحرب ، وأعلن حـزب العمال البريطانى برنامجه ، فكان شبيها بتلك البرامج التى أعلنتها سائر الحركات الاشتراكية فى أوربا .

***

ولما أعلنت الحرب العالمية الاولى ، لم يتجه حزب العمال البريطانى ذلك الاتجاه الذى اتجهته الحركات العمالية فى فرنسا لمعارضة الحـرب صراحة ، بل ان حزب العمال البريطانى اتجه للسعى من أجل التخلص من المأزق الذى كان فيه ، فأعلن قادته وجوب التفرقة بين الحرب الدفاعية التى يتعين على أتباعها ، أن يخوضوها دون أن يكون فى ذلك اخلال بقرارات ومبادىء مؤتمر ستوتجارت أو الخروج عن برنامج الحزب وبين الحرب العدوانيـة التى « هى وحدها » يعارضـها الحزب ولا يحق له الاشتراك فيها .

اعتبر حزب العمال أن الحرب العالمية الاولى حربا عدوانية من جانب المانيا وحلفائها ، وحربا دفاعية من جانب بريطانيا وحلفائها ووقف المستر رامزى ماكدونالد يستنكر الحرب ؟ وفى الوقت ذاته يبرر اشتراك بريطانيا

فيها ، ويدعو الى تأييد العمال لها ، وتأييد الحكومة القائمة وقتئذ كان موقفا غريبا ، موقف زعيم اشتراكى عمالى يستنكر الحرب ، ويستنكر الاسباب التى قامت بسببها ، ولكنه يؤيد اشتراك بلاده فيها ويبارك مضيها فى خوضها .

كان حزب العمال البريطانى يقف هذا الموقف ، وكانت حكومة مستر أسكويت Asquith, تحكم بريطانيا ، وهى من حزب الاحرار ، وكان من الطبيعى أن تسعى هذه الحكومة وقتئذ الى ضم حزب العمال اليها لتكفل تأييد الحركة العمالية بأسرها ، ونجحت الحكومة فى مسعاها واشترك حزب العمال فى الحكم بعدد معين من الاعضاء ، ولم يكن من بينه المستر رامزى ماكدونالد ، واستمر اشتراك حزب العمال فى الوزارة التى خلفتها وزارة لويد جورج فى ديسمبر عام ١٩١٦ .

ثم رأى حزب العمال أن عليه – وقد أصبح حزبا سياسيا مشتركا فى الحكم – أن يحدد موقفه من المشاكل الكبرى ، فكان بجانب أهدافه فى السياسة الداخلية حريصا كل الحرص على أن يوضح موقفه من المشاكل السياسية الكبرى وقتئذ ، فأعلن أول ما أعلن عطفه على اليهود حيثما وجدوا ، وعطفه على الدعوة الصهيونية وتحبيذه لانشاء دولة لليهود فى فلسطين ، وعندما تعرض لوضع الدولة العثمانية والبلاد العربية الخاضعة لها ، قال حزب العمال الذى كان ينادى بالحرية ويقاوم الاستعمار ويعارضه : ان الدولة العثمانية والبلاد العربية غير جديرة بالتمتع بالاستقلال وان أقصى ما يمكن أن يكون لها أن تطمح اليه هو ألا تضم كممتلكات الى الدول الغربية على شريطة ألا تتمتع بالاستقلال ؛ وكفاها أن يكون لها كيان سياسى تحت انتدات واشراف ورعاية وتوجيه الدولة الغربية التى تشترك فى تطويرها وفى تقدمها ورقيها . وكلنا يدرك مفهوم معنى الاشتراك فى التطوير والتقدم ، ومما يبرز هذا المعنى وضوحا أن حزب العمال البريطانى الاشتراكى أعلن وجوب ضم البلاد التى تقع جنوب الحدود المصرية من ناحية ، وجنوب الحدود المراكشية من الناحية الثانية ، أى البلاد التى تضم السودان داخل حدوده التاريخية من البحر الاحمر والمحيط الهندى

الى المحيط الاطلسى وما يقع جنوبيه من أراض ، وكان يقصـــد بذلك المستعمرات الالمانية • طالب بوضع هذهالبلاد كلها تحت الادارة المشتركة للدول الغربية لتستثمرها وتستغلها لمصلحتها المشتركة مع أهالى تلك البلاد التى يتعين على الدول الغربية أن تعمل على ترقيتهم وتوجيههم فى طريق الحضارة • ولم يعترف حزب العمال فى برنامجه بأن لمصر أو لأى بلد عربى أو اسلامى الحق فى الاستقلال •

لقد وضح حزب العمال البريطانى موقفه من السودان ، وكان أول الداعين لفصل السودان عن مصر ، لأن النتيجة المنطقية لادخال السودان فى المنطقة التى حددها للاستغلال الغربى المشترك فى فصل السودان عن مصر بل اخضاعه وجعله فى حكم المستعمرة ، ولقد زاد المستر رامزى ماكدونالد فيما بعد هذا الموقف ايضاحا وتحديدا ، كما سيبدو فى تصريحاته فى هذا الصدد عندما نعرض اليها فى موضعها فى مؤلفنا هذا •

***

ان سياسة حزب العمال البريطانى كانت محددة ، وكان موقفـــه واضحا وضوحا تاما ، ولكن بالرغم من هذا ، فان ساسة الشرق العربى عقدوا على هذا الحزب آمالهم دون أن يكون لهذهالآمال من الواقعمايبررها أو يدعمها •

وكان للنهج الذىنهجته سياسةحزب العمال البريطانىخلالالحرب العالمية الاولى وفى الفترة التى تلتها ، أثر بالغ فى تكييف وتوجيه الرأى العام البريطانى الذى بدلا من أن يجد نفسه أمام حزب اشتراكى يهـدد بتصفية الامبراطورية البريطانية وجد أمامه حزبا ينادى بتحقيق العـدالة الاجتماعية وبتطبيق المبادىء الاشتراكية داخلبريطانيا والحرص فىالوقت ذاته على الامبراطورية البريطانية فىصورةمتطورةداخل غلاف أكثر دهاء وأشد خطرا من الاستعمار العسكرى السافر ، وذلك التحـول والتطور اللذين جدا فى الرأى العام قد أفضيا الى وصول حزب العمال الى مقاعد الحكم فى عام ١٩٢٤ ، لا ليكون حكم هذا الحزب بمثابة ثورة من أجل مناصرة الحقوق والحريات ، بل لينفذ برنامجا أعلنه للشعب البريطـــانى

واطمأن له الشعب واطمأنت له المصالح الاستعمارية ؛ هكذا كان الوضع وكانت الحالة في بريطانيا فى نهاية الحرب العالمية الاولى التى تميزت بظهور قوى جديدة وبظهور عنصر جوهرى جديد فى السياسة البريطانية بقيام حزب امتص حزب الاحرار وامتص الحركات الاخرى المناصرة له وأصبح الصراع السياسى محصورا بين قوتين ، هما : حزب المحافظين وحزب العمال ، وظل الصراع بينهما قائما الى وقتنا هذا •

***

لقد أوضحنا هذه الحقيقة حتى يتبين الباحث فيما طرأ من أحداث كيف ولماذا كان موقف حزب العمال وموقف حزب المحافظين من المشاكل الكبرى التي هزت الشرق هزا فيما بعد ؟ •

***

انتصرت فرنسا فى الحرب ولكن انتصارها كان بالنسبة للشعب الفرنسي انتصارا فى حكم الهزيمة • كانت فرنسا فى حداد على الملايين من ابنائها الذين استشهدوا فى المعارك ، فى حزن على الملايين من المشوهين والجرحى ، كانت ترزح تحت عبء قرض فادح بلغ ١٢ الف مليون جنيه وكانت تعانى التدمير والخراب الذى خلفته الحرب فى الجانب الاكبر من اراضيها ، كانت تعانى أزمة فى وسائل النقل والمواصلات جميعا ، ونقصا كبيرا فى الايدى العاملة بسبب ضحاياها فى الحرب وأزمة فى زراعتها وفى صناعتها ، فلا غذاء ولا كساء ولا عمل • لم يجد الشعب الفرنسى فى نهاية الحرب من آثار الانتصار الا شعارات الانتصار ، والا طبقات استغلت ظروف الحرب فأثرت ، ثم طبقات محرومة ــ طبقات ثائرة •

***

وكان الشعب الفرنسى يتابع تطور الحركة الشيوعية فى روسيا ، كما كان يتابع الحركات الاشتراكية فى سائر بلاد اوربا ، ويتطلع الى الاحزاب الاشتراكية الفرنسية والى نقابات العمال لعلها تتحرك وتعمل •

ولكن قوى الحكومة وقوى الاحزاب الاشتراكية تضافرت لصد

الحركة الشيوعيه وابعاد شبحها عن فرنسا ، ولكن هذا الاتجاه لم يكن ليحل مشاكل العمال ومشاكل الموظفين ، وراحت فرنسا تواجه القلاقل والاضطراب وعدم الاستقرار ، ورأت الحكومة أن تحول انظار الشعب عن المتاعب التى يعانيها والمشاكل التى لم تجد لها حلا ، وتحقيقا لهذه الغاية اعلن فورا توقيع معاهدة الصلح والرجوع الى الشعب واجراء انتخابات جديدة لمواجهة الحالة والاوضاع التى جدت ، وكان محور الدعاية فى هده الانتخابات ، هو حماية الوطن والجمهور من الحركات المتطرفة فى ظل برامج اجتماعية متطورة ؛ والزام المانيا بدفع التعويضات التى ستمكن فرنسا من القضاء على ماتعانيه من متاعب مالية وصناعية مما يستتبع القضاء تلقائيا على المشاكل الاجتماعية •

وامعانا منها فى التضييق على العناصر اليسارية ، عدلت الحكومة الفرنسية قانون الانتخابات ووضعت نظام الانتخاب بالقائمة فى كل مقاطعة ولقد ترتب على هذا التعديل انتصار أحزاب الجبهة المحافظة وتراجع الاحزاب اليسارية. حتى المعتدل منها على الرغم من حصولها على اكثرية نسبية ، وكان لهذا التعديل أثر بالغ فى تلك النتيجة لأن أحزاب الجبهة المحافظة حصلت بسبب التعديل على ستين مقعدا كانت الاحزاب اليسارية ستحصل عليها لو لم يتم هذا التعديل ، ولجأت الاحزاب اليسارية الى السلاح الوحيد الذى كانت تملكه فى ظل القانون ، وهو سلاح الاضراب • وبلغ عدد الاضرابات فى عام ١٩٢٠ وحدها ١٨٢٠ اضرابا منظما مما أدى الى شل الاقتصاد الفرنسى ودعا الحكومة الى سن تشريع يحرم الاضراب قبل استنفاد جميع طرق التوفيق ، فأعلنت الاحزاب اليسارية برنامجا يقضى بتأميم الصناعة والمواصلات الحديدية وكل المرافق الاساسية فى الدولة • وامتدت حركات الاضراب الى الموظفين وعمت الفوضى البلاد ، وتدهور سعر الفرنك بحيث أصبح الجنيه الاسترلينى فى ٣٠ من ديسمبر سنة ١٩٢٠ يساوى ٦٠ فرنكا ، بعد أن كان يساوى ٢٥ فرنكا ، وفى عام ١٩٢٢ أصبح الجنيه الاسترلينى يساوى ٦٤ فرنكا ، ثم أصبح فى عام ١٩٢٣ يساوى ٨٣ فرنكا وفى عام ١٩٢٤ صار يساوى ١١٧ فرنكا ؛ وعانت فرنسا الاضطراب

المالى والفوضى السياسية ، وعانت الصراع بين الطبقات ، وكان على الجبهة اليمينية أن تعمل على تدارك الموقف وتخفف من تحديها للحركات اليسارية وبخاصة المعتدلة منها انقاذا لنفسها ، وانقاذا للنظام السياسى الفرنسى .وعلى هذه الصورة تولى بونكاريه Poincarré, الحكم فى عام ١٩٢٤ واتجهت اليه فرنسا لانقاذها من محنتها ، كما اتجهت فى الوقت نفسه الى أسباب هذه المحنة ، الى النظام الحزبى . وقد كان بفرنسا تسعة أحزاب تتصارع على الحكم والسلطان ، وكان في فرنسا من ينادي اذ ذاك بالثورة على الاوضاع ليعاد بناء الجمهورية وتتخلص البلاد من أدران الحزبية والفساد البرلمانى. ومن ينادى بتطوير الانظمة وتعديلها بما يلائم الاحداث والظروف .

كان هناك من يقول بأن النظام البرلمانى أصبح صناعة وحرفة ومصدر رزق للاحزاب ، وبأن الاحزاب الحاكمة حلت محل الملوك فى تسخير البلاد وارهاق الشعب وفقا لهواها ومصلحتها ، وبأن الامة هى المجنى عليها ولابد لهذه الامة أن تثور . ولكن كان هناك من يقول ان فى ثورة الشعب قضاء على النظام الجمهورى .

وهكذا قام فى فرنسا صراع بين الاحزاب لم يخلف وراءه الا نتيجة واحدة ، هى فقد الشعب الفرنسى الثقة فى نفسه ، حتى دهمته الحرب العالمية الثانية بأحداثها . على أنه بالرغم من فقدان الشعب الفرنسى الثقة بنفسه وبحكومته ، فان النزعة الاستعمارية فى سياسة فرنسا ازدادت تأصلا واشتدت صلابتها ، بل ان هذه الصلابة كانت الانعكاس الطبيعى لما كان يعانيه الشعب من صراع داخلى .

الفصل العاشر

الثورة التركية

« انهيار الدولة العثمانية ـ الحلفاء يحتلون البلاد ـ تمرد الاقليات ـ الفناء يهدد »
« الاتراك ـ الصراع بين العناصر الوطنية وانصار الوفاق مع العدو المحتل ـ موقف »
« السلطان ـ مصطفى كمال يحلل موقف تركيا ويحدد اهداف الثورة ـ مصطفى كمال »
« والحماية الاجنبية ـ اتجاه مصطفى كمال الى الامة والجيش ودعوته للثورة ضد »
« السلطان واعداء البلاد ـ مصطفى كمال والخلافة ـ وقوف الغرب في وجه الثورة »
« التركية ـ جيوش الحلفاء تهدد الثورة ـ مصطفى كمال يقبل التحدى وينشد عون »
« العرب والمسلمين ـ الجبهة الداخلية ومصطفى كمال ـ مصطفى كمال والعون الروسي »
« معاهدة قرس في اكتوبر سنة ١٩٢١ ـ مصطفى كمال « وارمينيا » ـ اقتراح طلب »
« الانتداب الامريكى على تركيا ـ مصطفى كمال ومصير السلطان ومصير الخلافة وموقفه »
« من الجامعة الاسلامية ـ عصمت يهزم الجيوش اليونانية ـ اتفاقية مورانيا في اكتوبر »
« سنة ١٩٢٢ ـ معاهدة لوزان ـ مصطفى كمال يواجه مشكلة الخلافة . »

***

استعرضنا فيما تقدم ما حل باوربا فى نهاية الحرب العالمية الاولى وتناولنا الثورات والحركات الكبرى التى قامت فى سائر أنحائها ، فعالجنا الثورة الروسية وعالجنا الثورة في المانيا ، وفى ايطاليا ، وتحدثنا عما طرأ من تعديل وتبديل فى خريطة اوربا بشأن قيام دول جديدة بها ، وتناولنا موقف الولايات المتحدة الامريكية من الحرب العالمية الاولى وتحدثنا عن بروز الاتجاه الاشتراكى فى بريطانيا واضطراب الأمور فىفرنسا والتقلقل فى أحوالها السياسية وننتقل الآن الى الحديث عن الثورة التركية .

***

انجلت الحرب العالمية الاولى كما رأينا عن هزيمة الدولة العثمانية وارغامها على توقيع هدنة قاسية الشروط ، وانفرط عقد قواتها المسلحة وأصبحت تركيا فى مهب الرياح..شعب أفقرته وأنهكتهالكوارث والحكام الذين تسلطوا عليه واستعانوا بأحط الوسائل من أجل الاحتفاظ لانفسهم بسلطان الحكم ومظاهر السيادة ، لا على الاتراك فحسب ، بل وعلى سائر

المسلمين مستندين فى ذلك الى خلافة مهتزة مترنحة ، وفى وقت كانت فيه الحكومة والخلافة تفتقران الى القوة المادية والشجاعةالمعنوية والكرامه لمواجهة الاحداث التى كانت تجرى وقتئذ • فعلى مرأى من الخـــلافه والحكومة كانت جيوش الغرب تحتل البلاد التركية فالفرنسيون فى أطنه وفى أورفه ومراش وعنتاب ، والانكليز فى اضاليا وقونيه واستانبول ، والايطاليون فى مرزفون والجيوش اليونانية فى أزمير • كان العــدو يحتل البلاد ويمتهن كرامة الامة التركية ، وكانت الاقليات تبث فى سائر البلاد روح الهزيمة والتخاذل والاستسلام للاجنبى ، وكان على رأس هذه الاقليات المعادية جماعة عرفت باسم (مافريميرا) وأخرى عرفت باسم (بونتوس) وتضافرت جهود الاقليات باشراف وتوجيه هاتين الجماعتين على نشر الفوضى والخلل فى سائر أنحاء البلاد واشــاعة روح الهزيمة والتخاذل والاستسلام للعدو •

***

كان الشعب التركى يعانى محنة قاسية وأدرك هذا الشعب خطورة الموقف فاتجه الى رأى المستنيرين فيه لانقاذ البلاد ، وتشاوروا فى أصلح الاساليب للعمل ، وهنا لابد أن نقف قليلا لنلقى نظرة فاحصة عـــلى الاتجاهات التى راح يتجهها هؤلاء المستنيرون من قادة الشعب التركى ، تلك الاتجاهات التى ورثتها للشعب سياسة الغرب التى التزمها فى بلادهم خلال العديد من القرون ، ففى سبيل خدمة بلادهم ، اتجه بعض هــؤلاء القادة الى السعى لاثبات براءة الامة أمام الغرب من مساوى الحكم العثمانى والتنصل من تبعات هذا الحكم ، وتأكيد استعداد الاتراك للتعاون مع الحلفاء ولو أدى الامر الى تقسيم تركيا ذاتها الى دويلات تنفصـــل عن تركيا انفصالا كليا ، وتستقل عنها ، أو دويلات تتمتع داخل تركيا بالاستقلال الذاتى •

رأى بعض هؤلاء القادة أنه لاسبيل فى الخلاص الا فى تعـــاون الاتراك مع الحلفاء وتساندهم معهم ومسايرة خططهم • وكان الى جانب هؤلاء من يرى أنه لا سبيل للاحتفاظ بتركيا باستقلالها وصيانة كرامتهـا

الا بمقاومة كل اتجاه يرمي الى تمزيق وحدة الأراضى التركية والوقوف في وجه كل محاولة من هذا الطراز ولاسيما المحاولة التى كانت ترمي الى انشاء دولة « ارمينيا » التى كان انشاؤها يحتم اقتطاع ولايات تركيا لتكون أساسا للدولة المراد اقامتها ٠

وفي غمار هده المحنة راجع الاتراك تاريخهم واستعرضوا أسباب مامر بهم عبر التاريخ من أزمات ومحن ، وتبين لهم أنهم كانوا في كثير من الاحوال ضحية لتلك الاقليات التى كانت تسعى الى اقامة دولة قائمة بذاتها تقتطعها من جسم الدولة التركية ٠ وقد نجح الارمن في الحصول من مؤتمر الصلح على قرار باقامة دولة لهم ، وحذت اليونان حذو الارمن فاعتزمت انشاء دولة يونانية في الاناضول وفي تركيا الاوربية ، وكان أمرا حتما على العناصر الوطنية العليمة بأساليب الغرب أن تصر على الدفاع عن حقوق البلاد كاملة ومواجهة الحلفاء والحيلولة دون تمزيق أوصال دولتهم والوقوف في وجه بريطانيا وفرنسا وايطاليا وحليفتها اليونان ، وكانت هذه الدول قد صممت على تمزيق أوصال الدولة العثمانية والقضـــاء على وجودها ٠

* * *

ويتحدث مصطفى كمال (اتاتورك) عن الوضع فيقول : « كان كل هم الخليفة ، انقاذ حياته وتأمين مستقبله وكان الجيش مجرد اسم وشعار لا وجود لهما من الناحية العملية ، فما بقي من قواته كانت هياكل ودمى أنهكتها الحرب ؛ ولكن قلوبها كانت تنفطر أسى وحزنا للمصير الذى كان ينتظر البلاد ٠

لقد أدرك قادة الجيش التركى ، وأدرك المفكرون من ابناء الامة التركية أنهم يقفون على حافة هاوية مظلمة عميقة لاقرار لها ؛ فاندفعوا في يأس يبحثون عن سبيل الخلاص ٠

ويصف مصطفى كمال هؤلاء القادة فيقول : انهم كانوا حسنى الظن بالسلطان والخليفة الى حد أنهم لم يتبينوا خيانتهم لقضية الوطن وان ولاءهم

للعقيدة الدينية والتقاليد المرعية كان يستبعد عن تفكيرهم وعن أذهانهم أن تكون هناك وسيلة لخلاص البلاد غير الخليفة ، وكان معلوما وقتئذ أن الويل كل الويل لمن يجرؤ على المظاهرة بغير هذا الرأى .

يقول مصطفى كمال : وانه كان فى مفهوم القوات المسلحة أن الدفاع عن وحدة البلاد يقتضى فى الوقت ذاته مسالمة الحلفاء وتجنب الاحتكاك بأية دولة من دولهم ، فكان أى رأى يتجه الى الوقوف فى وجه الحلفاء يعتبر جهلا من صاحبه بحقائق الموقف ومجافاة لاحكام كل منطق سليم ، وقد انقسمت اراء قادة الجيش ممن كانوا يعتبرون فى ذلك الوقت من صفوة الامة التركية ، اختلفت آراء هؤلاء فمنهم من قال بأنه ليس أمام الاتراك للاحتفاظ بسلامة الدولة التركية الا اختيار واحد من سبل ثلاث ، الاول : المطالبة بحماية بريطانيا ، والثانى : المطالبة بحماية الولايات المتحدة الامريكية ، والثالث : تحقيق استقلال الاراضى العثمانية ولو انتهى الامر من أجل هذا الغرض بتقسيم دولتهم الى دويلات مستقلة . ويقول مصطفى كمال : انه ازاء هذه الاتجاهات المختلفة تبين أن السبيل الوحيد الصالح أمام الاتراك هو الثورة ، الثورة ضد الاوضاع السابقة لانشاء دولة تركية جديدة تتمتع بالاستقلال الكامل .

***

ولنستمع الى مصطفى كمال وهو يشرح لقادة تركيا وجهة نظره فى هذا الشأن فيقول فى خطابه لهم : ان أهم هدف ينبغى أن تنعقد كلمة الاتراك على تحقيقه هو انشاء هذه الدولة الجديدة بحيث تكون دولة مستقلة لأن الشعب الذى يحرم الاستقلال هو والعبيد سواء ، ويمضى مصطفى كمال فى خطابه فيقول : ان الحديث عن الحماية الاجنبية للبلاد انما هو اعتراف بتجرد الامة التركية من كل مقومات الوجود واعتراف بعجزها وفشلها وضعفها ، وهل يوجد اعتراف بالضعف والعجز أبلغ وأصرح من المطالبة بالحماية الأجنبية ؟ وهل هناك ما يمكن أن يصم أمة بالضعة والحطة أكثر مما يصمها بها اتجاهها للمطالبة بسيد أجنبى يسودها ويشرف على شئون بلادها ويسيطر عليها ؟

هكذا كان موقف مصطفى كمال ، وذلك كان الهدف الذى رأى أن يجمع أبناء البلاد حوله . وقد اختار مصطفى كمال لنفسه شعاره الذى راح ينادى به وهو « الاستقلال أو الموت » وقال ان هذا الشعار يجب أن يبلغ مبلغ الايمان الراسخ فى قلب كل من يسعى لاستقلال بلاده ويكافح من أجل حريتها ومستقبلها ، وان مضمون الشعار هو الواقع وهو الحقيقة، لأن الوطنى المكافح اذا فشل فى كفاحه لايجد فى انتظاره غير الرق وغير العبودية يفرضان عليه فرضا . ويقول الزعيم التركى ، ان الشعب الذى يخفق فى غايته بعد أن يكون قد واجه الموت فى سبيل استقلال بلاده ليحس مع اخفاقه بالعزاء لايمانه بأنه قدم كل التضحيات التى تقتضيها كرامته ووجوده ولم يدخر فى ذلك السبيل جهدا ، خلافا لما تشعر به تلك الشعوب التى ترضى مختارة بقيود الرق والعبودية .

***

وقد اتجه مصطفى كمال كلية الى تحريك الامة التركية بأسرها لتركز جهودها فى حركة شاملة للثورة ضد حكم آل عثمان والحكومة العثمانية ، وبحيث تقف هذه الثورة فى وجه الاحتلال الاجنبى وتحقق لتركيا الاستقلال ولم يشأ أن يتصدى للخلافة وقتئذ لانه كان لايزال يؤمل فى الافادة مستقبلا من وجودها . ويقول الزعيم التركى فى هذا الصدد ، انه كان شديد الحرص على اخفاء أهدافه النهائية من الثورة بل انه حرص على أن يكون تحقيق هذه الاهداف على مراحل ، وانه كان عليه أن يعمل على تهيئة النفوس والأذهان لما يزمع الاقدام على تحقيقه على ضوء الأحداث والتطورات كان عليه أن يوجه الثورة توجيها حكيما وأن يدفع الشعب الى تتبع مجرى الأحداث وأن يضمن تأييده للحركة الوطنية قلبا وقالبا . ولقد كان مصطفى كمال فى جميع هذه المراحل حريصا على تجنب كل عمل يمكن أن يثير الخلاف بينه وبين أعوانه ، ومن أجل هذا فقد كان يرجىء تنفيذ قراراته الشائكة التى تثير هذا الخلاف ، ويؤجل ذلك حتى تهيىء له الاحداث والظروف مستقبلا ومبررات قوية تفرض تنفيذها دون اعتراض من أحد .

نجح مصطفى كمال فى تكتيل الجهود وراء ، لأن الشعوب التى غلب على امرها ويدوس العدو أراضيها على مرأى منها مهيأة دائما للتعاون مع من يثير مشاعرها ويدفعها للعمل الايجابى للذود عن كرامتها ، على أنه خلال الفترة التى كان دائبا فيها على تكتيل جهود الشعب من أجل حركته ، وقبل ان تقوم هذه الحركة نقول : انه لم يفته فى هذه الاثناء ان يحدد للعناصر الوطنية ولقادة الحركة طريقهم المرسوم للنهوض بحركته ، وفى هذا كان الزعيم التركى يقول : عندما نبدأ الكفاح يصبح متعينا علينا ألا نتخلى أبدا عن قضية بلادنا ، ويكون لزاما علينا أن نواصل التضحية من أجل مثلنا العليا حتى الرمق الأخير وحتى الملاذ الأخير الذى يمكن أن نلجأ اليه فى أرض الوطن ، وانه عندما يحين الوقت لمواجهة أعداء البلاد ينتهى العمل السرى ويتعين علينا الوقوف فى الميادين العامة ليسمع الشعب كل صوتنا لنشركه معنا فى كل حركة وفى كل معركة .

***

ولم تكن خطورة تلك الحركة التى تزعمها مصطفى كمال بخافية على الحلفاء وعلى حكام تركيا وقتئذ ، ولهذا أقالت السلطات فى تركيا مصطفى كمال من منصبه فى الجيش فى ٨ من يوليو سنة ١٩١٩ ، وعندئذ رأى مصطفى كمال أن الوقت قد حان ليخاطب الشعب ويخاطب الجيش والشعب معا ، ويناشد الجميع الثورة من أجل سلامة بلادهم وتأمين مستقبلها وأن الوقت قد حان للقيام بعمل ايجابى عسكرى كان فى رأيه السبيل الوحيد للوقوف أمام مطامع الغرب وسياسته التى تعد للأتراك أظلم مصير .

رأى مصطفى كمال أن يعد الشعب للقضاء على عملاء الغرب داخل تركيا ذاتها ، وفى مقدمتهم الطبقة الحاكمة فى الاستانة ، وشرع فى العمل وراحت الدول الغربية تقاوم الحركة الوطنية مستعينة فى ذلك بالسلطان الخليفة وأعوانه ، وكان مصطفى كمال يواجه هذه المقاومة وفى الوقت ذاته يواجه خطر الدعوة التى ينادى بها — اذ ذاك — فريق من الاتراك من أجل أن يلتزم الشعب التركى الصبر والتأنى ويخلد الى السكينة ، وأن يعتمد على عدالة قضيته التى تستنهض الشعور الانسانى فى الدول الغربية وتحرك .

فيها ضمائرها ، فقد كانت هذه الدعوة سواء قصد أصحابها أو لم يقصدوا تخدم سياسة الغرب ومطامعه ، ومن ثم كانت من العوامل التى لابد من كفاحها ، وكان يواجه وابلا من الفتاوى التى يسخر فيها الخليفة الدين الاسلامى لمناهضة دعوة الحركة الوطنية ، فراح الخليفة يصدرها تباعا ومن حين لآخر ، وكانت كلها تعادى الحركة الوطنية ، وتدعو الاتراك الى الاستسلام والخضوع للمصير الذى يعده لهم الحلفاء الغربيون •

هكذا كان مبلغ الدقة والخطورة فى موقف مصطفى كمال : فالحركة التى يوشك أن يقودها كانت الرياح كلها فى عكس اتجاهها ، وكان لزاما عليه ـ والحالة على هذه الصورة ـ ألا يتخذ أى قرار قبل أن يؤمن سلامة قراره وصحته من حيث التوقيت ومن حيث النتائج •

ولقد راح مصطفى كمال يعالج موقفه هذا ملتزما جانب الصبر على مؤامرات الخليفة التى كان يعاونه فيها ـ عن جهل ـ فريق من رجال الدين أخذوا على عاتقهم اصدار الفتاوى الدينية ضد الحركة الوطنية •

***

وقد تبين الحلفاء براعة مصطفى كمال فى توجيه الامور ، فرأوا أن يحددوا موقفهم من الحركة الوطنية وأن يواجهوها مباشرة ، ومن ثم بادروا باحتلال الاستانة ، وبتشتيت واعتقال من كان بها من زعماء الحركة الوطنية ، وأعلنوا بيانا عقب احتلالها يقول : ان توقيع الدولة العثمانية لاتفاقية الهدنة يفرض على الحلفاء العمل من أجل ارساء قواعد السلام فى الدولة العثمانية وتحقيق الرفاهية والتطور الهادىء للحياة الاجتماعية والاقتصادية لجميع سكانها دون تمييز أو تفرقة بين جنس أو آخر أو بين دين وآخر •

وقال الحلفاء فى بيانهم هذا ، بينما مؤتمر الصلح قائم ، ويعمل على تحقيق هذه الاهداف ، اذا بفئة تضم بعض رؤساء جماعة الاتحاد والتقدم وتزعم لنفسها حق التحدث باسم الوطن وتتجاهل أوامر السلطان والحكومة المركزية ، تقوم بالدعوة الى حمل السلاح بين أفراد أمة قضت عليها الحرب بآثارها المدمرة • واستطرد البيان يقول : انها فئة تعمل

على نهب أموال الامه واثارة الفتنة بين مختلف عناصرها ، فئه لاترمى الى السلام ولكنها ترمى الى اشعال نار الحرب من جديد . ثم يمضى البيان قائلا : انه على الرغم من أن الحلفاء ماضون فى تأدية واجبهم غير آبهين لهذه الاستفزازات ، ومن أنهم جعلوا ادارة الأستانة المحلية بأيدى الاتراك على شريطة الا تعرض حياة المسيحيين فى سائر الولايات التركية لأى خطر وألا يقع أى اعتداء على قوات الحلفاء ، على الرغم من ذلك كله ، فقد مضت تلك الجماعة فى اثارتها للأمة ، بل أمعنت فى محاولة اشراك الحكومة المركزية معها فى اتجاهاتها ، ولهذا فقد أصبح متعينا على الدول الحليفة أن تباشر الاجراءات الضرورية التى تكفل السلام ، ولم يكن هناك بد من احتلال الاستانة احتلالا عسكريا كاملا ، وقد تم تنفيذ هذا الاجراء ولكن مع هذا فان الحلفاء يعلنون بأن هذا الاحتلال مؤقت ، وأن هدفهم منه هو دعم سلطان الحكومة الشرعية فى البلاد التى سوف تبقى تحت ظل هذا السلطان من بلاد الدولة العثمانية القديمة .

ومضى الحلفاء فى تهديدهم فقالوا : ولكن اذا ثبت أن الاتراك لايدركون سماحه الحلفاء ولا يكفون عن الاضطرابات ويقضون على أسبابها ، فان هذا القرار سيعدل ، وان واجب المسلمين وغير المسلمين اليوم هو عدم الاستماع الى الاكاذيب التى يذيعها أولئك الذين يزعمون لانفسهم التحدث باسم الوطن ، فلا يخضعون الا لحكومة الآستانة مركز السلطان .

***

وعلى أثر هذا الاحتلال الذى قام به الحلفاء والبيان الذى أذاعوه ، قام مصطفى كمال بارسال احتجاج الى جميع ممثلى الدول الأجنبية والمحايدة والى المجالس النيابية فى بريطانيا وفرنسا وايطاليا قال فيه : قامت جيوش دول الحلفاء باحتلال الاستانة وألقت القبض على العناصر الوطنية واستهدفت خنق تلك الحركة التى تنادى بتحقيق أمانى البلاد الوطنية ، وفى هذا الاجراء مساس بالبلاد وبحريتها السياسية ، واستطرد الاحتجاج يقول : « لقد عزمنا على الدفاع عن المبادىء المقدسة التى أقرتها الانسانية

والحضارة ، ولقد صممنا على الدفاع عن حريتنا وقوميتنا ووطننا ، ان كفاحنا كفاح مقدس ، ولقد عزمنا آكيدا على القيام به للدفاع عن حقوقنا مؤمنين بأنه ما من قوة تستطيع حرمان دولة من حقها في الحياة وفي الاستقلال ٠ لقد خدعت بريطانيا وفرنسا العالم عندما قبلت الدولة المتحاربة توقيع اتفاقيه الهدنه تأسيسا على مبادىء ولسن ، واننا لنسجل أمام العالم هذه المسئوليه التى سوف تتحملها دول الحلفاء أمام التاريخ ، وان قضيتنا مقدسة ان قضيتنا حق مشروع وطابعها مقدس وذلك هو سندنا الوحيد بعد الله ٠

ولم ينس مصطفى كمال في هذه اللحظة الحرجة أن تركيا دولة اسلاميه ، وأنها استمدت قوتها في الماضى من تأييد العرب والمسلمين لها فوجه رسالة الى سائر العرب والمسلمين قال فيها : اننا سنمضى في الكفاح وسنكون جديرين بتقدير الحضارة والانسانية لنا ، لاننا سنمهد بسبيل التحرر أمام العالم الاسلامى سنمهد السبيل لتحرير الخلافة الاسلامية من المؤثرات الاجنبية الغربية عنها ، سندافع عنها بايمان جدير بمجدها وسندافع عنها ونحقق لوطننا الاستقلال ، والله معنا في كفاحنا المقدس الذى اعتزمنا البدء به في سبيل الحريه والاستقلال ٠

وكان مصطفى كمال حريصا على أن تبلغ هذه الرسالة سائر المسلمين في العالم وكانت سياسته ترمى وقتئذ الى كسب عطف المسلمين ، وبوجه خاص العرب لتأييده في كفاحه ، ولعزلهم عن مساندة بريطانيا وفرنسا ، تلك المساندة التى ظلت قائمة طوال مدة الحرب العالمية الاولى ٠

***

وفي ١٩ من مارس سنة ١٩٢٠ وجه مصطفى كمال دعوة الى عقد جمعية وطنية تجتمع في أنقره وتتحدث باسم الأمة التركية ، جمعية يواجه بها ممالآة السلطان وأتباعه لبريطانيا وفرنسا واليونان ، جمعية وطنية تتحدث باسم الشعب التركى ، وقد استجاب الاتراك الى هذه الدعوة ، وفي الوقت نفسه رأى مصطفى كمال أن يرسم لقواده طريقهم في هذه المرحلة التاريخية التى تجتازها بلاده ، فأذاع عليهم بيانا قال فيه : على القادة أن يؤدوا واجباتهم العسكرية بشرف وأمانة ، عليهم أن يستبسلوا ويستميتوا

في مراكزهم وأن يدافعوا عنها ضد قوات الاعداء الكبيرة شبرا بشبر ، حتى آخر شبر يستطيعون الوقوف عليه من أرض هذا الوطن .

وليكن الجميع في مستوى الامانة الموكولة اليهم والتي تحتم عليهم ألا يقفوا عند واجباتهم فحسب ، بل عليهم أيضا أن يواجهوا الضرورات العسكرية التي تحتم عليهم الابتعاد عن أي مؤتمر خارجي ، والا ينسوا أبدا أنهم في الوقت الذي يقذفون فيه بابناء الوطن الى ساحة المعركة ضد العدو ويعرضونهم للموت في سبيل هذا الواجب ، وفي الوقت الذي يسخرون فيه موارد البلاد من أجل كفاحهم هذا ، فانه يتعين عليهم أيضا ألا ينسوا بأن الامة تطالبهم بأن يؤدوا واجبهم الوطني بالنار والحديد والموت ، وعلى اولئك الذين لا تقوى أكتافهم وعقولهم على تحمل هذا العبء وتلك المسئولية أن يتخلوا ويفسحوا الطريق للاقوياء والامناء ، وسوف يكون مصير هؤلاء الضعاف مصيرا رهيبا حتما . ثم يمضي مصطفى كمال فيقول : « واذا استنفد القائد وسائل الدفاع كافة ، وعرض حياته للموت دون جدوى ، فانه عندئذ فقط يكون له العذر اذا استسلم ، وان كان تاريخ الاتراك يسجل لقادة منهم ايثارهم لفناء جيوشهم امام عدو أقوى على الاستسلام . ثم ناشد مصطفى كمال الضباط والقادة الأتراك أن يستخلصوا مما تقدم العبرة والعظة التي سيسجلها التاريخ عن الثورة التركية لتكون تركة يخلفونها للأجيال القادمة .

ومضى يتحدث عن القيادة الثورية فقال : اذا كان سيكتب للامة النجاح في الوقوف في وجه العدو ، فان الفضل في ذلك يعود الى جهود ونشاط وتفاني عدد محدود من الرجال . ان الخطب يتلاشى أثرها في الهتافات والصراخ ، وحياة الشعوب لا يترك مصيرها لهذا النوع من الكفاح وواجب المسئولين هو أن يدبروا ـ سلفا ـ وسائل الدفاع والحماية .

***

ولقد حرص مصطفى كمال أشد الحرص على تقوية الجبهة الداخلية وفي هذا الصدد كان يقول : علينا أن نهيىء الهدوء والطمأنينة وتعمل على تحقيق الوحدة والتضامن بين الشعب جميعه وتكتيله في سبيل أمل واحد

هو الخلاص ، وقبل أن يتم تحقيق ذلك يتعذر التفكير فى مواجهة الغزو الخارجى ، غير أنه اذا نجحنا فى تحقيق وحدة الشعب وتكتله ، ثم قدر للعدو بعد ذلك أن يحرز نصرا مؤقتا ، واستولى على جانب قل أو زاد من أرض الوطن ؟ فان هذا النصر لن يدوم الا مؤقتا ، مادام أن الأمة قد حققت وحدتها وتمسكت بها وبقيت لها ارادتها قوية للتخلص من احتلال عدوها فهى بذلك كله لابد مكرهة عدوها وفى أى وقت تشاء على الانحناء لها ، وعلى الندم لغطرسته وتعاليه • ان الاهتمام البالغ الذى أولاه مصطفى كمال للجبهة الداخلية فى تركيا ليبدو واضحا من اتجاهه أولا الى تقوية هـذه الجبهة والاطمئنان على قوة بنيانها ، قبل أن يبدأ فى مقاومة زحف الجيش اليونانى الذى نزلت كتائبه فى الاناضول •

لقد تحدث أتاتورك عن الثورة بوصف أنها صراع ، وفى هذا يقول: ان الحياة تعنى الصراع والصدام ، والنجاح فى الصراع يعنى النجاح فى الحياة ، وكل شيء يستند الى القوة ، الى السلطان المعنوى والمادى • وكل المسائل التى تشغل الانسان والاخطار التى يتعرض لها وكل ما يحققه من نجاح ، كل ذلك ماهو الا ثمرة الصراع العام من أجل الحياة • فالصراع بين الاجناس هو الذى كتب صفحات التاريخ ، ولابد أن يدرك كل قائد شعب بأن كل هجوم يدعو الى هجوم مضاد له ، والجهل بهذه الحقيقة واغفال العدة لها ينتهى دائما الى الهزيمة والى الهروب والى الدمار •

ويمضى مصطفى كمال فيقول : ان العوامل التى هـدمت الدولة العثمانية كان من أهمها انتفاضات العالم الاسلامى وانعدام التفاهم بين مختلف العناصر فى تلك الامبراطورية الواسعة ، مما جعل منها دولة متحدة اتحادا مصطنعا داخل حدودها ، ولهذا كفن التاريخ الدولة العثمانية ودفنها ويقول : ان الاساس الوحيد للسياسة الخارجية هو التنظيم الداخلى للدولة وان النجاح رهن بالوصول الى تحقيق التوازن والتوافق بين السياسية الخارجية والتنظيم الداخلى •



ولقد رأى مصطفى كمال فى سبيل الدفاع عن وطنه أن يبحث له عن

حلفاء ؟ ولما كانت الحكومة البلشفية تمد له حينئذ يدها وتعرض عليه تعاونها معه، فقد اغتنم هذا الاتجاه في سياستها رأو دبعثة الى موسكو فى مايو سنة ١٩٢٠ تمهد لاقامة علاقات بين البلدين ، وقد أعدت البعثة مشروع معاهدة صلح وقع بالحروف الاولى فى ٢٤ من اغسطس عام ١٩٢٠ ، ثم تم توقيع الاتفاق النهائى بين مصطفى كمال وروسيا الشيوعية فى ١٦ من مارس عام ١٩٢١ . وقبل مضى نصف عام على توقيع هذه المعاهدة وقع بين البلدين معاهدة أخرى فى ١٣ من اكتوبر سنة ١٩٢١ وعرفت بمعاهدة « قرس » .. وبموجبها سلمت روسيا الى تركيا مقاطعات أردهان وقرس وارتفين ، واستردت روسيا لنفسها مقاطعة باطوم التى كانت تركيا استولت عليها قبل ذلك . وعلى الرغم من أن روسيا مدت الثورة التركية بالعون ، الا أن مصطفى كمال كان حريصا كل الحرص على ألا يتخذ العون وسيلة للسيطرة على بلاده وربطها برباط التبعية لروسيا الشيوعية ، وقد تعرض مصطفى كمال بسبب مسلكه السياسى هذا فى علاقته بروسيا الى التجريح من جانب بعض رجال الدين والى مناوءة محترفى السياسة ، والى مناورات الحلفاء وعرقلتهم لسبيله ، غير أن ذلك كله لم يثنه عن عزمه ، فمضى فى طريقه ولا هدف له الا نجاح ثورته ، وما من شك فى أن سياسة الحلفاء التى كانت تتجه فى اصرار الى انشاء دولة ارمينيا ، وكانت هى من أهم البواعث التى وجهت مصطفى كمال وجهته السياسية فى علاقته بروسيا والارتباط معها ارتباطا وثيقا ، فالحلفاء كانوا يرعون قضية الارمن ، ومن ثم كانوا يتبنون حركتهم لانشاء دولة أرمينيا ، ومن ثم فقد كان حتما على اتاتورك ان يتجه الى مصادقة المعادين لهذه الحركة فقد مكنته هذه السياسة من تصفية الحركة الأرمينية والقضاء على الجيش الذى كان الحلفاء قد ألفوه لاقامة الدولة الارمنية وكان هذا الجيش خليطا من الارمن ومن العناصر الاخرى المؤيدة لقضيتهم ، وقد أرغم على التسليم ، ثم على توقيع اتفاقية جومرو .Gumru فى ٢٠ من ديسمبر سنة ١٩٢٠ ، وبذلك ماتت الدولة الارمنية وهى جنين لم يولد بعد .

***

واذا كانت الثورة قد اتجهت الى روسيا لتستعين بصداقتها فى سبيل

احباط خطط الحلفاء وسياستهم لتحقيق أغراضهم ، فقد كان هناك فريق من أعوان مصطفى كمال وقواده يميلون الى الولايات المتحدة الامريكيه ويسعون من أجل أن يقوم على الدولة العثمانية انتداب امريكى . لا يمس كيان هذه الدولة ، ودأب هذا الفريق على مسعاه الى حدأن اتصل المتحدث باسمه بالسلطات الامريكية ، ثم عاد فطلب ــ نتيجة لهذا الاتصال ــ الى القادة الاتراك أن يبلغوا الرئيس ولسن ويبلغوا مجلس الشيوخ والكونجرس في الولايات المتحدة رغبة الدولة العثمانية في انتداب أمريكا عليها . وفى الوقت ذاته طالب هذا الفريق القادة والزعماء الاتراك بأن يكون هـــذا الاتجاه مقرونا ببيان يصدره هؤلاء القادة والزعماء يوضحون فيه قبولهم اقامة حكومة عادلة تعمل على نشر التعليم وتكفل حرية العبادة وحريه الأديان ، وتطالب بالغاء الامتيازات الاجنبية ، كما تطلب الى حـــكومة الولايات المتحدة الامريكية قبول الانتداب العام على سائر انحـــاء الدوله العثمانيه ، وقد عرض المندوب الامريكى على القواد العسكريين الاتراك استعداده لنقل من سيتحدث باسمهم الى امريكا على بارجه حربية أمريكيه .

ولكن مصطفى كمال قال للعسكريين الذين اتصلوا به في هذا الصدد ان النقاط التى تناولها حديث المندوب الامريكى يناقض بعضها بعضا ، وشرح لهم هذا التناقض ، وبين مدى ما ستتورط فيه البلاد اذا ما اتجهت هذا الاتجاه . وذكر محدثيه بما بذلته الولايات المتحدة الامريكية من المساعى لنيل الانتداب على دولة ارمينيا التى كان مزمعا انشاؤها ، كما نبههم الى ان اثارة موضوع الانتداب على الدولة العثمانية من شأنها ان تســيل لعاب بريطانيا التى لاتقل لهفتها على هذا الانتداب عن لهفه الولايات المتحدة الامريكية . ولكن هؤلاء العسكريين قد تمسكوا فى حديثهم مع مصطفى كمال بوجهة نظرهم ، ولم يقتنعوا برأيه ، بل قالوا فى ســياق حديثهم معه : ان الامل الوحيد للابقاء على الدولة العثمانية هو وضعها تحت انتداب الولايات المتحدة الامريكية وان مصلحة تركيا تعين عليها أن تستجيب لمسعى امريكا فى هذا الشأن بغض النظر عن رأى الاتراك فى الساسة الامريكيين لأن الشعب الامريكى هو وحده الذى يفهم نفسية الشعوب الأخرى ،

وهو الذى يقدر الأنظمة الديمقراطية حق قدرها ، وقد سبق له أن ساعد على خلق تلك الانظمة وعلى تطويرها فى « الفلبين » تطويرا علميا حديثا وان رعاية الولايات المتحدة للدولة العثمانية تكفل لهـــذه الدولة أن تبلغ فى مدى ٢٠ عاما أو ما يقرب من هذه السنوات أعلى مستوى بين الامم ، وقال هؤلاء فى حديثهم للزعيم التركى ان الدولة العثمانية ستكون فى حاجة الى صديق يكون سندا قويا يدرأ عنها الخطر ويؤمن مصالحها ، وفى حاجة الى صديق له الكلمة العليا فى المحافل الدولية ، وردا على ماتبه اليه الزعيم من اثارة مطامع بريطانيا فى الانتداب على تركيا قال هؤلاء العسكريون ، انه على الرغم من اتجاه السياسة البريطانية الى تمزيق أوصـــال الدولة العثمانية والقضاء عليها ، الا ان بريطانيا قد تعدل عن هذه السياسة وتوافق على الابقاء على الدولة العثمانية تحت الانتداب الامريكى ، طالما كان هذا الانتداب هو الوسيلة الوحيدة لابعاد نفوذ فرنسا وايطاليا عن الاناضول ، الا أن مصطفى كمال كان حاسما فى هذه المناقشة ، فأفهم المتحدثين اليـه بأن الحل الذى يعرضونه للابقاء على الامبراطورية العثمانية ، وكل حل فى هذا الصدد يجب أن يكون فى نطاق أمانى البلاد القومية ، وسألهم عما اذا كان قبول الانتداب الامريكى يتفق مع هدف البلاد اذا ماكان هدفها هو الابقاء على وحدتها وسلامة أراضيها وتحقيق استقلالها وتأمين سيادتهـــا وتأكيدها ؟ وفى نهاية الحديث وجه الزعيم التركى نظر محدثيه الى حق الأمة فى أن تكون هى ـ وحدها ـ صاحبة الكلمة الأخيرة فيما عرضـــوه عليه . وقد دعا مصطفى كمال الى مناقشة موضوع الانتداب الامريكى على تركيا فى صراحة وعلانية فى مؤتمر وطنى ، وقد انعقد هذا المؤتمر فى مدينة « سيبس » فى شهر أغسطس عام ١٩١٩ وكان من بين المتحدثين فيه من تحمسوا للانتداب الامريكى وطالب بالعمل على وضع تركيا تحت هذا الانتداب ، فى حين أن البعض طرح الموضوع فى المؤتمر فى صيغة سـؤال هو : هل فى استطاعة تركيا أن تعيش فى المستقبل معتمدة على نفسـها ؟ أو أنها فى حاجة الى دولة تنتدب عليها ؟ ثم ماهى الصورة التى يمكن أن نفهمها لهذا الانتداب ؟ ومن تكون الدولة المنتدبة ؟ ولكن مصطفى كمال طرح الموضوع على صيغة سؤال يبحث عن جواب آخر ، فكان السؤال

يقول : ماحل الموقف للتوفيق بين رغبة الدولةوتمسكها باستقلالهاوسيادتها الداخلية والخارجية ، وعدم التفريط فى ذلك وبين حاجتهـــا الى حليف يعاونها أمام أجانب خطرين عليها ؟ ولقد أثار هذا السؤال مناقشات فى المؤتمر الوطنى الكبير ، نرى ان لنا عذرنا اذا ما توسعنا اليوم فى ايرادها وعرضها نظرا لما تضمنته من معان كانت لها وقتئذ أهميتها البالغة ومازالت لها هذه الاهمية الى اليوم بالنسبة للدول التى حصلت على استقلالها مقيـدا ومشروطا فى الفترة الاخيرة من عصرنا هذا • فقد وقف فى هذا المؤتمر من يقول : انه لاتعارض بين وضع البلاد تحت الانتداب وبين تمتعهـــا بالاستقلال ، فنحن لانلجأ الى الانتداب الأمريكى لامن أجل التخلص من خطر الانتداب الانجليزى • ووقف من يقول : « ان الانتداب لم يمس استقلالنا » ، لاننا سنحقق استقلالنا بقوتنا التى لايمكن التعويل على غيرها لكفالة الاستقلال • فاذا وهنت هذه القوة الثابتة فينا ، فانه من الطبيعى أن يمس الانتداب استقلالنا ، وعندئذ يكون الضرر الذى يحيق بنا ، ماهو الا نتيجة لضعف قوتنا الذاتية • لا نتيجة للانتداب علينا • وتساءل بعضهم ، هل فى وسع تركيا وهى الدولة المهزومة أن تواجه جميع أعدائها ؟ وهـل يمكن أن تسمح لها الدول المنتصرة أن تتصرف على هواها فى شـــئونها الخاصة دون أن تتدخل هذه الدول لتملى رأيها على تركيا ؟ • اننا نواجه تهديد بريطانيا وايطاليا وفرنسا واليونان ، والانتداب الامريكى يهيىء لنا سبيلا أفضل للدفاع عن مصالحنا •

ان الانتداب الامريكى يحمينا من الهلاك •

ووقف البعض يقول : ان الدول الصغيرةالمثقلة بعبء الديونفىحاجة الى من يعاونها على تنمية مواردها وفى حاجة الى أجنبى يساعدهالكىتصبح التنمية والتقدم والرقى فى حياتها حقيقة واقعة • ثم قام فى المؤتمر من يتحدث باسم السلطان والخليفة وحكومته فى الأستانة فيقول : ان امريكا وعدت بقبول الانتداب على الامبراطورية العثمانية فى حدودها القديمة ، ولكن الشرط الذى اشترطته لقبول الانتداب هو أن يكون هذا الانتداب استجابة لرغبة تبديها الأمة التركية وبناء على طلب الشعب •

وقد علق مصطفى كمال على بعض الكلمات التى ألقيت فى المؤتمر فقال : ان البعثات التبشيريه الأمريكية تسعى سعيا حثيثا فى سائر أنحاء الامبراطورية العثمانية السابقة ، فى سوريا وفى لبنان وفى فلسطين لاقرار مبدأ الاستفتاء على الانتداب واختيار الدول التى تنتدب ، وان الامريكيين والبعثات التبشيرية الأمريكية تباشر نشاطها على أوسع نطاق فى الأناضول فقامت بافتتاح خمسة وعشرين مدرسة فى منطقة سيبس وحدها ، وتضم هذه المدارس عددا كبيرا من الأقليات .

وأشاد آخرون بما وصفوه بالمزايا التى يمكن أن تعود على تركيا من وراء الانتداب الامريكى ، وقالوا ان رءوس الأموال ستتدفق على تركيا متى قام عليها هذا الانتداب ، وان هذا السيل من المال سيمكن الدولة العثمانية الجديدة من اعادة بناء ما خربه الحرب دون أن يكون فى ذلك مساس بمستقبل البلاد . وهكذا كان هذا المؤتمر بمثابة معرض كبير لمختلف الآراء والنظريات ، فبدت فيه أمام العناصر الوطنية القوية الصورة الصريحة الواضحة لأولئك المترددين فى تحمل مسئولية وأعباء الجهاد من أجل حرية بلادهم واستقلالها .

***

وانجلى المؤتمر عن رفض الانتداب على تركيا ، وكان من الطبيعى أن ينتهى المؤتمر الى هذه النتيجة ، والى نتيجة أخرى هى : انارة السبيل أمام الزعيم مصطفى كمال بضوء من مناقشات المؤتمر مكنه من تحديد موقفه من هذه المشكلة تحديدا سليما ، وكذلك تحديد موقفه من مناصرى الانتداب والداعين له .

وجدير بالذكر أن بريطانيا كانت تقف للولايات المتحدة بالمرصاد فأفسدت عليها خططها ، لا فى تركيا فحسب ، بل فى سائر انحاء الشرق ولا أدل على ذلك مما وقع فى لجنة « كينج كرين » التى باشرت مهمة التحقيق الذى عهد به اليها مؤتمر الصلح كما جاء تفصيله فى المرحلة الثانية من مؤلفنا .

ولنعرض الآن لجانب دقيق وخطير من تاريخ الثورة التركية وهو علاقة الثورة بالسلطان الخليفة ، فقد كان مصطفى كمال شديد الحرص على أن يهيىء للسلطان الفرصة للاعتراف بشرعية حكومة الثورة بحيث يتم هذا الاعتراف من جانب السلطان الخليفة رضاء واختيارا ودون ارغام أو مناوءة تعرض البلاد الى هزة عنيفة بسبب ما كان للسلطان بوصفه خليفة للمسلمين من مكانة دينية في طول البلاد وعرضها ، لأنه كان من بين الاتراك ذاتهم أغلبية كبرى تؤمن بالمركز الدينى للخلافة أقوى من ايمانها بذات السلطان ، وفى الوقت الذى كان مصطفى كمال يرى هذا الرأى كان لزاما عليه ألا يمكن للسلطان الخليفة من الوقوف فى وجه المطالب الوطنية أو التصدى لتلك الحركة التى تستهدف تحقيق الاستقلال والحرية للبلاد .

وفى ٢٨ من يناير سنة ١٩١٢ أعلن مصطفى كمال أنه اذا ما اعترف السلطان بالجمعية الوطنية وبشرعية حكومة الثورة ، فان تركيا الحديثة فى هذه الحالة تسلم بالخلافة وبالنظام الملكى كأسس غير قابلة للتغيير فى النظام المقبل لتركيا ، وتوافق على أن يظل السلطان الخليفة فى الاستانة ، وعلى أن تتحمل الدولة مرتبات ومخصصات أتباعه وحاشيته ، ولما تلكأ السلطان فى الاستجابة الى هذه العروض ، وعاد مصطفى كمال فأعلن فى ٣١ من يناير سنة ١٩٢١ أن السيادة هى حق الشعب بلا قيد أو شرط ، وأن الشعب وحده هو الذى يملك تحديد مصيره ، وأن السلطتين التنفيذية والتشريعية تمارسهما الجمعية الوطنية التى تمثل الأمة كما تحكم الدولة .

وقد عمد مصطفى كمال الى هذا البيان الحاسم بعد أن حاول قبل ذلك تحديد مكان الخليفة والسلطان فى الوضع المقبل للدولة ولاسيما عند اعداد النظام الاساسى للدولة فى اغسطس سنة ١٩٢٠ ، وعند النص فيه على أن الامة مصدر السلطات ، اذ رئى اذ ذاك أن ينص أيضا فى هذا الشأن على ما يحتفظ للسلطان الخليفة بمكانته الى أن يتم تخليص البلاد من الاحتلال وتمارس تركيا سلطاتها كدولة مستقلة . وقد رأى أعضاء المجلس الوطنى وقتئذ أن ينص على الابقاء على صفة الخلافة مع استبعاد

صفة السلطنة ولقب السلطان ، ولما اعترض البعض على ذلك قيل للمعترضين ان الخلافة تشمل السلطنة وتشمل الاسلام بأسره ، ثم لما اشتد الجدل وطال بعد ذلك ، حول هذا الامر وقف مصطفى كمال فى اجتماع عقده المجلس الوطنى فى الخامس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٢٠ وقال : انه ليس من اللائق للأمة التركية وبالمجلس الوطنى أن يطيل البحث لموضوع الخلافة والسلطنة والخليفة والسلطان فى الوقت الذى تناضل فيه البلاد من أجل حريتها واستقلالها ، واذا كنا حريصين على بقاء ولائنا للخليفة السلطان اليوم ، فلنعلم بأن هذا الخليفة السلطان خائن ، ويعد أداة فى يد أعداء الأمة والوطن ، ونحن اذا احترمنا وجوده واعتبرنا خليفة وسلطانا كنا بحكم هذا الاعتبار ملزمين باطاعة خائن ، وبتنفيذ أوامر خائن يأتمر بأوامر أعداء البلاد ، واذا تكلمنا الآن عن عزله وخلعه كنا بهذا نضيع وقتا فى كلام لا تسمح به الظروف الآن ، فهذا السلطان الخليفة بعيد عن متناول أيدينا ، وهو فى كنف العدو وحمايته • واذا تجاهلنا وجوده واعترفنا بغيره فانه بدوره لن يعترف بوجودنا ، وسيبدأ عندئذ بصراع داخلى يحول الأمة عن أهدافها الى العراك حول مشكلة الخلافة والسلطنة ؛ فهل تريدون أن يعيد التاريخ فى تركيا صراع معاوية وعلى ، اتركوا هذه المشكلة الآن الى أن يحين الوقت المناسب لحلها •

وبينما كان مصطفى كمال يعمل على ارجاء التعرض لهذه المشكلة وحلها ، كان الحلفاء ماضين فى تسخير الخليفة لاصدار الفتاوى الدينية • الفتوى تلوى الفتوى ضد الحركة الوطنية لزعزعة الروح المعنوية فى الشعب التركى • ويقول مصطفى كمال ان هذا الشعب التركى الذى طالما كافح لشرف ومجد الدين فلم يتردد يوما ما فى بذل دمه من أجل الدفاع عن الدين ، هذا الشعب رأى نفسه يساق باسم الدين الى محاربة الأهداف الوطنية التى هى من صميم الاسلام •• واستطرد مصطفى كمال فقال : ان الحلفاء خيل اليهم أن الخليفة سيكبل الشعب التركى فى أصفاد يصنعها من الفتاوى الدينية ، ثم يقدم لهم هذا الشعب مقيدا فى أصفاده ، ليكون على حد تعبيره ــ عبدا ذليلا •

ويمضى مصطفى كمال فيقول : ـ لقد أبينا على روح الاسلام أن تخضع الى مثل هذه القيادة . ويشرح مصطفى كمال موقفه من الدعوة الى حركة الجامعة الاسلامية والجامعة الطورانية وأسباب اخفاق الدعوتين ، والأسباب التى يمكن أن تؤدى الى نجاحهما فيقول : ان هذه الحركات كان يمكن ان تنجح نجاحا حقيقيا لو تهيأت لها الارض الخصبة الصالحة ، اذ لايكفى أن تتوافر الرغبة لحكومة ما فى أن تقيم نظاما يجمع شعوبا مختلفة فى اخاء ومساواة تامة ، وحملهم على نسيان عواطفهم وما بينهم من روابط خاصة ، ان مثل هذا النظام من العسير تحقيقه ، وهو يخضع فى تنفيذه وفى وجوده الى شروط عامة تحكمه ، تلك هى لغة التاريخ ولغة العلم ولغة المنطق ولغة العقل السليم .

وقد ظل مصطفى كمال يكتم أفكاره وآراءه فى هذه الناحية حتى يفيد من كل العناصر ولكن هدفه الحقيقى النهائى . كان اقامة دولة وطنيـــة تركية وكان عليه أن يتجنب كل نزاع داخلى يمكن أن يؤدى الى انقسام الامة بسبب الخلافة حتى يتم له النصر على الجيوش الغازية المحتلة لبلاده .

* * *

انتصر مصطفى كمال على الجيوش اليونانية الغازية وهزمها هزيمـة ساحقة فى الأول من ابريل عام ١٩٢١ ، وقوى مركز الثورة ، ولاحت بوادر النجاح فى طول البلاد وعرضها ، ولكن الغرب كان له بالمرصاد ، فحاول أن يقضى على الثورة سياسيا ، ومن أجل هذا ، طالب بالدخول فى مفاوضات سياسية مع حكومة الثورة ، فأرسلت وفدا لهذه المفاوضات كان على رأسـه بكير سامى بك الذى أمكن للحلفاء استدراجه الى وجهـة نظرهم ، فوقع بالحروف الأولى اتفاقيات من شأنها أن تخل بسيادة تركيا وتعارض أهداف الثورة ، وتفرض شبه وصاية غربية على تركيا ، ولما عاد هذا الوفد الى أنقرة استنكر مصطفى كمال تصرفه واعتبره انحرافا على المبادىء الاساسية للحـكم الوطنى مما أحنق رئيس الوفد فبادر بالانشقاق عن الثورة ، واتهمهـــا بالانحراف عن الطريق السياسى القويم وبجهلها لمقتضـيات الســـياسة الدولية ، وأذاع بيانا تناول فيه الاسلام والحرص على سلامته ومستقبله ،

وربط فيه بين مستقبل تركيا ومستقبل الاسلام ، ونوه بما يمكن أن ينتهى اليه الامر اذا آلت زعامة تركيا وزعامة الاسلام لمصطفى كمال ليصبح مجددا للاسلام ، وقال بيانه : ان ما انتهى اليه فى مفاوضاته انما هو السبيل أمام تركيا لتجدد قواها . وهكذا بات على مصطفى كمال أن يواجه انشقاقا داخليا يهدد الثورة فى الوقت الذى كانت جيوش الحلفاء تحتل البلاد ، وكان الجيش اليونانى برغم الهزيمة التى لحقت به فى أبريل سنة ١٩٢١ مازال داخل الأناضول .

كانت الثورة تواجه فتنة داخلية خطيرة ، تقوم أول ما تقوم على الاعتبارات التى حركتها النزعة الدينية ، فجعلت من موضوع شكل الحكم المقبل أساسا للجدل ، وعارضت فكرة قيام الجمهورية ، وبدأت توجه النقد للتشكيل الادارى للحكومة التى أقامتها الثورة .. وعلى هذه الصورة باتت الثورة مهددة فى صميم كيانها ، ولكن مصطفى كمال عرف كيف يعالج الموقف ، غير أن مرارة هذه المحاولات وأثر الزج بالدين من جانب الخليفة ومن جانب الغرب وعملائهم فى المعركة ، كل ذلك قد خلف جرحا عميقا فى نفس مصطفى كمال بدت آثاره فيما بعد .

***

نجح مصطفى كمال فى تأجيل الحسم فى المواقف الخاصة بالخليفة السلطان ، ارجأ حل هذه الازمة ليواجه العدو المحتل لبلاده ، وعبأ قوى الأمة التركية كلها ليواجه الجيوش اليونانية ، وتم له النصر على هذه الجيوش فى معارك : «افيوم قرى حصار» و «دملوينار» فى ٣٠ من أغسطس عام ١٩٢١ ، ثم استمرت ملاحقة الجيش التركى لفلول الجيوش اليونانية حتى أفناها فى معركة كبرى فى سكاريا فى الثالث والعشرين من سبتمبر عام ١٩٢١ ، وبانتصار الجيوش التركية اطمأن مصطفى كمال لتحقيق أول هدف للثورة ، وهو القضاء على جيوش أعدائها . وكان عليه بعد ذلك أن يمضى فى سبيل تحقيق ما بقى من أهداف ثورته .

وفى ٣٠ من اكتوبر سنة ١٩٢١ وقع الحلفاء اتفاقية مع مصطفى كمال وقد وقعت هذه الاتفاقية بعد أن حدد مصطفى كمال موقف الثورة وقال :

اننا شعب نريد الحياة بكرامة وشرف ، ولا يمكن أن نتنازل أو نتجرد من خصائص الكرامة والشرف ، ولقد اجتمع ابناء الشعب الجهل منهم والمتعلم حول مبدأ واحد وعوه تماما وارتضوا التضحية والبذل من أجله ، وهذا المبدأ هو الاستقلال التام الكامل الذى لا يتجزأ ، الاستقلال السياسى والمالى والاقتصادى والثقافى والعسكرى والقضائى ، فاذا لم يتوافر هذا الاستقلال فى أى من هذه النواحى ، فان الأمة لاتكون قد أصابت النجاح فى تحقيق استقلالها ، وان السلام والهدوء لن يقوما طالما أن الشعب لم يحقق أهدافه جميعا ، ونحن نأبى توقيع اتفاقيات تنص على الاستقلال شكلا ، فى حين أن نكون من الناحية الموضوعة بعيدة كل البعد عن تحقيق ذلك الاستقلال التام الذى ننشده . وبهذا فان مثل هذه الاتفاقيات تجلب على الأمة عدم الاستقرار وتجردها من وسائل التحكم فى مصيرها ، والأمة التى تقبل هذا النوع من الاتفاقيات الشكلية انما تتخلى بذلك عن كفاحها المادى ، وترتضى لنفسها الضياع بحيث يصبح كفاحها الذى بذلته وجهادها الطويل كفاحا وجهادا لا آخر لهما .

ولم يكن أمام الحلفاء الا التسليم بالأمر الواقع ، وتوقيع معاهدة صلح جديدة بدأت باتفاقية بين فرنسا وتركيا . ثم اكملت بتوقيع معاهد اوزان فى اكتوبر سنة ١٩٢٢ .

***

تم لمصطفى كمال تحقيق هدف الثورة الوطنى وبدأ يعمل من أجل تحقيق هدفها السياسى . فبادر فى أول نوفمبر عام ١٩٢٢ وأعلن فصل الخلافة عن السلطنة فى الدولة العثمانية . ولم يتضمن قرار الغاء النظام الملكى والابقاء على الخلافة أى نص يحدد لهذه الخلافة اختصاصات ما أو سلطة بالذات وقرر المجلس الوطنى قيام دولة تركيا الجديدة ، وكانت الامة فى قراره هى مصدر السلطات وصاحبة السيادة . وعند مناقشة هذا النص أبدى بعض أعضاء المجلس الوطنى تمسكهم ببقاء السلاطين فى تركيا ؟ فانبرى لهم مصطفى كمال قائلا : أيها السادة ان سلطان آل عثمان استمد وجوده من القوة التى فرضته على تركيا فرضا لمدة ستة قرون ، والآن فان الأمة

في انتفاضتها ضد هذا السلطان تتمرد على السلاطين وتحل هي محلهم وتسترد حقها الطبيعي ، وقد أصبح هذا الأمر حقيقة واقعة ، ولسنا هنا اليوم في مجال مناقشه حق الأمة ، ولكننا في مجال اقرار الأمر الواقع الذي سوف يتم برغم جميع الاعتراضات •

***

وبينما كانت المداولات تجرى في المجلس الوطني حول مستقبل السلطان والخليفة ، اذ بالخليفة يلجأ لقوات الحلفاء في ١٢ من نوفمبر سنة ١٩٢٢ ، ويضع نفسه تحت حماية بريطانيا فغادر الأستانة على ظهر بارجة حربية بريطانيه •• فأعلن المجلس الوطني تجريده وسقوط حكمه وأحل محله عبد المجيد افندى في مركز الخلافة دون سواها على شريطة أن يقبل سلفا — وجهة نظر الثورة فيما يتعلق بالوضع المقرر والسلطنة ، كما شرط مصطفى كمال على الخليفة الجديد أن يذيع بيانا على الأمة الاسلامية يصرح فيه بتأييده وبرضاه عما اتخذه المجلس الوطني من قرارات ، ولكن عبد المجيد افندى الذى رشحته الثورة للخلافة رأى ان يكون لقبه « خليفة رسول الله » بدلا من اللقب « خليفة المسلمين » الذى قررته الثورة له ، وبهذا فقد انتقل الجدل حول اللقب الى المجلس الوطنى ، ورأى مصطفى كمال ان يضع حدا لهذا الجدل ، فقال ان الذى يناقش الأمر هو الشعب التركى • وليس للشعب التركى أن يتحدث باسم المسلمين فى العالم كله فى أمر يعنى المسلمين كافة ، ولم يجار مصطفى كمال بعض النواب الأتراك فيما ارتأوه من أن المساس بالخلافة سوف يحدث اضطرابات فى سائر أنحاء العالم الاسلامى ، بل انه أصر — بالرغم من هذا — على وجهة نظره ، وأعلن أن الخلافة لا يمكن أن تكون عقبة فى طريق الشعب التركى لتقرير مصيره وتنظيم حكمه الداخلى على الصورة التى يراها الشعب ، وأصبح لزاما على مصطفى كمال وقد انتهى من تحقيق أهداف الثورة الوطنية ومن تحديد شكل الحكم أن يواجه تلك المشاكل التى أثارها عبد المجيد افندى الذى رشحته الثورة للخلافة ، ويواجه معه تلك الطائفة التى كانت تجعل من الدين مصدرا لرزقها ، ثم يواجه أيضا عديدا من المشكلات التى نشأت عن هذه المشكلة •

ونحن اذا تتبعنا آراء مصطفى كمال وتقصينا تصرفاته مما هو مدون في مجموعة خطبه ورسائله ، بدا لنا في موقفه من الخلافة ومن الوضع الديني في البلاد ومن التقاليد التي نسبت الى الاسلام أن عقيدته تأثرت الى حد كبير بموقف العداء الذي وقفه من الثورة السلطان بوصفه خليفة ، وتأثرت بمواقف أولئكم الذين كانوا يتحدثون باسم الدين ويقاومون الحركة الوطنية التي كان يقودها مصطفى كمال ويجعلون من الدين ومن الفتاوى الدينية أداة في يد الاستعمار لمحاربه الثورة الوطنية • لقد كان الاسلوب الذي اتبعه الخليفة وأعوانه الذين اتخذوا من الدين سلاحا لمناهضة مصطفى كمال كل الأثر في تكييف سياسة مصطفى كمال النهائية وتحديد موقفه الأخير بعد أن تكونت في نفسه عقدة شديدة ضدهم جميعا فأبى أن يجعل الدين عنصرا أساسيا في نظام الحكم الجديد الذي أعده للدولة ، بل ان هذه العقدة كانت سببا مباشرا فيما بعد من اجراءات بلغت حد العنف ضد أولئكم الذين حاربوا الثورة باسم الاسلام •

***

لقد توسعنا في وصف مراحل الثورة التركية ، وذلك لأن تركيا كانت احدى دول الشرق ، وكانت دولة اسلامية ، بل كانت الدولة التي اتجهت اليها أنظار المسلمين طوال خمسة قرون باعتبارها مركزا للخلافة الاسلامية ، وكانت تركيا في نهاية الحرب العالمية الأولى تشاطر البلاد العربية والاسلامية محنة احتلال الجيوش الأجنبية لأراضيها ولا سيما جيوش بريطانيا وفرنسا ، وكان الغرب يهدد استقلال تركيا ، كما كان يعتدى على استقلال وكيان الدول العربية والاسلامية ، ولقد قامت في تركيا حركة ثورية كان جديرا بالعرب وكل الشعوب المغلوبة على أمرها أن تركز عليها النظر وتتابع مواقفها وأعمالها • كانت في تركيا قيادة رأى فيها الكثيرون من أبناء العرب رمزا للشجاعة والبطولة ، بل علق الكثيرون منهم أملهم عليها في التحرر من الاستعمار الغربي •

لقد حركت الثورة التركية عواطف العرب والمسلمين ، فتطلعوا اليها من جديد آملين في اقامة روابط جديدة تجمعهم بها • تطلع العرب الى

تركيا الحديثة بقلوب يملؤها الرجاء في أن يجدوا منها مالم يجدوا من تركيا القديمة فتناصر قضاياهم ، على أن العرب وان كانت آمالهم هـــذه في تركيـــا الجديدة قد خابت ، الا انه كان لزاما عليهم أن يفيدوا وأن يلتمسوا العظة من دروس وتجارب الثورة التركية ، فهل أفادوا منها ؟ هل وحدوا صفوفهم وهل اتفقت كلمتهم ؟ هل جندوا قواهم لمواجهة المستعمر الغاصب ؟ لقد كانت الأمة العربية كلها في ثورة ، ولكن هل قامت فيهـــا آنئذ زعامة من نوع الزعامة التي قامت في تركيا وقتئذ ، والتي وصفهـــا مصطفى كمال بقوله « ان التاريخ ليثبت بصفة قاطعة لا يرقى اليها الشك ، انه لابد للمغامرات الكبرى من وجود زعيم ذي مواهب واسعة وقوة وصلابة لا تزعزعها الأحداث ، وهاتان صفتان لا بديل لهمـــا وبدونهمـــا لا يكتب للمغامرة النجاح .

واستطرد يقول : في الوقت الذي يخيل للكافة أن أملها قد ضاع ، في الوقت الذي يعجز فيه أكثر الناس عن مواجهة الاحداث ، وتبـــدو فيه الأمة بلا قيادة تسير أمورها ، وبينما تبلغ الأمور حد الاضطراب وتختل القيادة ، يندفع أناس يزعمون لنفسهم الوطنية المخلصـــة ، ثم يتصرفون على عكس مقتضيات الوطنية والادراك الصحيح ، فهل من الممكن في مثل هذا الوقت ومثل تلك الحال أن يتقدم شعب الى الأمام بدقة ، وفي أمن وبعزم واصرار ؟ هل يستطيع شعب تكون هذه حالته أن ينجح في تحقيق أصعب الأهداف ، في حين أنه مازال يبحث عن الآراء والتوجيهات من هنا ومن هناك ويخضع للعديد من المؤثرات التي تجبره على مراعاة أحاسيس واعتبارات ومصالح ترتبط بالأشخاص ؟ هل سجل التاريخ لأية أمة النجاح في ثورتها والشعب على مثل هذه الحال وفي تلك الصورة ؟ لقد طرح مصطفى كمال هذا السؤال على أعضاء الجمعية الوطنية وترك الاجابة عليه للسلوك الذي التزمه هو خلال مراحل الجهاد والثورة .

***

ما من شك في أن نجاح الثورة التركية قام على توافر كل عناصر النجاح التي هيئت لهذه الثورة وبها نجحت . فلقد أجمع الشعب التركي

كله على الثورة ، واجماع الشعب شرط لازم لقيام كل ثورة ولنجاحها ، كما كانت ثورته قائمة على دوافع وأسباب عميقة قد تأصلت في نفسه ودفعته الى العمل من أجل تحقيق أهدافه ، وكانت أهدافا محدودة استخلصها من تجارب الماضي التي علمته أن ثورة عام ١٩٠٨ و ١٩١٩ كانت مجرد ثورة سياسية ضد الوضع السياسي الذي كان قائما اذ ذاك فاقتصرت على هذا ولم تتعرض لنظام الحكم ولا للنظم الاقتصادية والاجتماعية كما فعلت الثورة التي قادها مصطفى كمال ، والتي استهدفت أول ما استهدفت حماية استقلال البلاد والدفاع عنه واستخلاصه من براثن عدو معتد ، ثم استهدفت تغيير نظام الحكم فكانت ثورة سياسية ، ثم اتجهت الى تغيير شكل المجتمع وتغيير نظامه الاقتصادي وكانت أيضا بذلك الاتجاه ثورة اجتماعية واقتصادية ولقد قيض الله لهذه الثورة في شخص مصطفى كمال قيادة رشيدة نجحت في توحيد كلمة الأمة ونجحت في بلورة مختلف الأهداف التي سعت الى تحقيقها وفي المضي بالثورة وفقا لخطة مدروسة تجنبها الاخفاق ، كما أعدت هذه القيادة لنفسها أسباب الأمن ، وتحصنت ضد الانحراف والزلل على الأقل خلال فترة الثورة التي كان لابد لها خلالها من هذه الحصانة .

***

من هذا الاستعراض للثورات في العالم من ناحيتها النظرية والفلسفية والواقعية ومن تطبيقاتها في نهاية الحرب العالمية الأولى ، قصدنا ان نقدم للباحث تلك العناصر التي تمكنه من الحكم الصحيح على ثورة العرب سنة ١٩١٩ في أنحاء الشرق وتحديد مكانها من الثورات جميعا وتكييف مواقف قادتها على ضوء المقارنة بمواقف من تصدوا لقيادة تلك الثورات ، على أن هذه الثورات ومن قادوها قد عاصروا جميعا أحداثا متشابهة ، وكان في استطاعتهم جميعا أن يتابع كل منهم نشاط الآخر .

الفصل الحادى عشر

ثورة العرب

« نظرة الغرب للعرب ـ الاتراك في نهاية الحرب العالمية الأولى ـ لمحة من الماضي ـ »
« العرب والخلافة ـ الخلافة لاتورث ـ توارث الامامة هدم لقاعدة الشورى ـ غزو التتر ـ »
« الغزو التركى ـ الغلاف الاسلامى للدولة العثمانية مكن الاتراك من حكم العرب ـ »
« الاتراك والخلافة ـ اثر الشيوخ والامراء في انعزال البلاد العربية بعضها عن بعض ـ »
« الامة العربية تدرك واجبها في مقاومة الحكم التركى ـ الفارق بين الدولة العثمانية »
« الاسلامية والخلافة الاسلامية ـ افتقار العرب الى الزعامة القوية المؤمنة برسالتها »
« ـ الحكام العرب يتقاضون ثمن الولاء للدولة العثمانية ـ اثر الحملة الفرنسية في »
« ثورة العرب ـ تنكرمحمد على للعرب ـ ثورة عرابى ـ خطر الوقوف بالثورة فيمنتصف »
« الطريق ـ فشل الاستعمار في تحويل الامة العربية عن اهدافها ـ العرب في نهاية »
« الحرب العالمية الاولى واصرار العرب على النضال ـ قدرة الثورة التركية ـ القادة »
« الاتراك والقادة العرب ـ اساس النجاح في الثورة ـ العرب والزعامة الثورية ـ »
« اساليب الغرب للقضاء على الثورة ـ المفاوضات كاسلوب للاستدراج ـ الزعامة »
« وشروطها ـ الزعامة والوكالة .... »

***

ثورة العرب

فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وبانهيار الدولة العثمانية فى هذه الحرب ، بدأت سياسة الغرب تتجه الى العرب لتحدد لهم حاضرهم الذى ترضاه لهم ، ولتحدد لهم أيضا مستقبلهم الذى لا ترضى أن يكون لهممصير غيره ، وكانت سياسة الغرب تحكمها فى هذا التحديد مطامع الغربالواسعة فى خيرات البلاد العربية ، وما حوت أراضيها من منابع الثورة ، فعلى الرغم من تعارض هذه المطامع وتلك الوعود التى طالما بذلها الغرب للعرب فى أثناء الحرب ، فان الغرب كان يرى أن تحقيق هذه المطامع يعتبر عنصرا جوهريا لبقائه ، ولتغذية وجوده ومده بالقوة التى تعيده من الشيخوخة الى الشباب وتحكمها أيضا الرسالة التقليدية التى اضطلع الغرب بحملها عبر التاريخ من أجل القضاء على تيار الحركات التى تهدف الى بعث القومية العربية حتى يمكن لشعوب الغرب أن تحتفظ بمصالحها وبالمزايا التىتنعم

بها دول الغرب فى بلاد العالم ، فى حين يحرمها أصحاب البلاد ، وبالخيرات التى لا يسلبها من يد الغرب الا نجاح الحركات التحررية العربية وظفرها باستقلال بلادها والتمتع ـ وحدها ـ بخيراتها المسلوبة وبموارد ثرواتها المغتصبة .

***

انهارت الدولة العثمانية ، وظن الأتراك أن بوسعهم أن يعيدوا تكوين دولة جديده تضم العرب الذين عانوا ظلم الأتراك وعسفهم زمنا طويلا ، ولم ينس العرب للأتراك طغيانهم وظلمهم اياهم وبغيهم عليهم ، ولكن أمل الأتراك فى ضم العرب اليهم ظل قائما بعد الحرب العالمية الى حين ، وكان أملهم فى ذلك منعلقا بالخلافة ، فقد سعت الثورة التركية فى أول الأمر الى جمع كلمة المسلمين حول الخلافة فى تركيا المستقلة ، وظل هذا الأمل يداعب الأتراك الى حين ، ولو ان ساسة الأتراك رجعوا ـ اذ ذاك ـ الى الماضى البعيد أو القريب لما عاشوا بهذا الأمل يوما ما .

ولسنا فى مقام عرض تاريخ العرب ، غير أننا نعود فى شأنهم الى الماضى ليسهل علينا أن ندرك ما انتهى اليه أمر العرب على مر الزمن ، وليتسنى لنا ان ندرك كيف كانت حالهم فى نهاية الحرب العالمية الاولى ، ثم لنعرف الأسباب العميقة لثورتهم .

***

كان العرب فى عهد الرسول عليه السلام أمة واحدة ، وقد نجم أول خلاف بينهم عقب وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ، وكان هذا الخلاف بسبب الخلافة ، وأدرك عمر الفاروق الخطر الذى يهدد الأمة العربية من جراء تشاحنهم على الخلافة ، فبادر بمبايعة أبى بكر الصديق وبذلك جنب الأمة العربية خطر الشقاق والخلاف ، وما يتبعهما من تصدع كيانها والقضاء على وحدتها . وبعد وفاة أبى بكر الصديق بايع العرب عمر بن الخطاب ، ثم بايعوا من بعده عثمان بن عفان .

والخلافة والامامة الكبرى أو امارة المؤمنين طبقا لما رواه الماوردى وابن خلدون والامام ابن حزم وأيده فى عصرنا الحالى « فرج السنهورى » هى أعلى المراتب والولايات وأعظم المناصب فى الدولة ، وهى رياسة عامة

فى أمور الدين والدنيا وخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من شأنها أن تحمل الامام مسئولية عظمى ، وتلقى عليه التبعة فى المحافظة على الدين وعلى أصوله ، كما تعين عليه حسن اختيار بطانته وأعوانه وعماله وحماية الحرمات ومنع الجور والظلم ونشر العدل والأمن لينصرف الناس الى حياتهم وأعمالهم امنين مطمئنين ، كما تفرض عليه ان يعنى أتم العناية بموارد الأمة ومصارفها فى غير جور ولا تقصير وفى غير اسراف أو تقتير ، وأن يحمى الديار ويحصن الثغور وأن يشحن المواقع الهامة بذوى الكفاية من الجند ، وان يهيىء لهم العدة الكافية ، وعليه أن يعمل جاهدا على اعلاء كلمة الله ، وان يجاهد فى سبيل الله الاعداء المغيرين والمتربصين الذين لا تؤمن غوائلهم ، وعليه أن يمد الدولة بالمعونة الدفاعية ، بل انه لحق على الامام أن يبادر بها وأن يصلح بين طوائف المسلمين ويقدم اليهم ما يحتاجون اليه من مختلف المعونات .

وقد انعقدت الخلافة أول ما انعقدت بالبيعة ، وهى بيعة أهل الحل والعقد والولاة والقضاة والعلماء والرؤساء وسائر وجوه القوم من ذوى المكانات - فى عشائرهم وفى أسرهم - فكانوا من أجل هذا مسموعى الكلمة ، لما أوثروا به من الثقة وحسن الاختيار ، وكانت هذه الطريقة ، هى الأصل والأساس فى قيام الدولة العربية الكبرى الاولى التى لم تقم الا على البيعة ، والتى كانت تجدد البيعة فيها كلما حزب أمر ، وكان يقوم بها كل من كان يدخل فى الاسلام فى أثناء حياة النبى صلى الله عليه وسلم . وانعقدت الخلافة لأبى بكر ببيعة أولى الحل والعقد من المهاجرين والانصار ، ثم تطور الأمر وانعقدت الخلافة بالاستخلاف وهو أن يعقد الامام الخلافة فى حياته وفى أثناء ولايته الخلافة لآخر من بعده ، على أن يكون من تعقد له أكثر القوم احرازا لشروط الامامة من غيره ، وان يبقى أهلا للخلافة من وقت الاستخلاف حتى موت المستخلف ، وهذا الحق لم يثبت للامام المستخلف الا لأنه يندرج فى ولايته ، فقد نصب لينظر فى مصالح المسلمين الحاضرة ، فاذا قام بهذا فانما يقوم به نيابة عن أهل البيعة بما منحوه من الولاية الشاملة ، ومن هذا النوع كانت خلافة عمر بن الخطاب .

التى عهد بها اليه أبو بكر وقال فى عهده مخاطبا العرب « انى استعملت عليكم عمر بن الخطاب ، فان بر وعدل فذلك علمى به ، وان جار وبدل فلا علم لى بالغيب ، والخير أردت » ولكن الاستخلاف كانت تأتى بعده بيعه تؤيده وتسنده • وباجماع الاراء الفقهية لم يكن من شأن البيعه ولا الاستخلاف جعل الخلافة وراثية ، وكانت الحكمة فى ذلك واضحة وهى تجنيب العرب شر الشقاق والفتنة على الصورة التى كادت تقع عند وفاة الرسول ، والتى جنب عمر بن الخطاب العرب شرها وقتئذ ببيعة أبى بكر •

لم يخل تاريخ العرب من حوادث الانقسام والفرقة فيما بينهم ، وكان مصدرها دسائس اعدائهم للاطاحة بسلطانهم ، ولكن قوة الاسلام وحيوية العرب ؛ وفتوة أمتهم وشبابها حالت دون نجاح مؤامرات خصومهم فأخفقوا فى النيل منهم •

***

غير أنه على الرغم من اجماع الفقهاء على أن الخلافة لا تورث ، فانه قد طرأ فى هذا الشأن تحول ، فأصبحت الخلافة تنعقد بحكم الاستيلاء وبحكم الغلبة ، أى بغير بيعة ودون استخلاف ، وعن طريق فرضها لمن يستطيع ذلك بقوة السلاح والجند أن يرغم بسيفه العرب على عقدها له ارغاما ، وتلك خلافة تدت تقوم على الأمر الواقع ، وعلى عصيان المبادىء التى قررها الدين الاسلامى ، خلافة حرص أصحابها على استخلاف ورثتهم وأبنائهم من بعدهم ، وبذلك ابتلى العرب بما ليس من الدين فى شىء ، بل بما كان منافيا لاحكام الدين ، لأن الخلافة لا تنعقد الا لمن كان أهلا للامامة بشريطة أن تبقى له أهليته لها ، ثم تصير لمن هو أهل لها حين يخلو منصب الامامة ، وتحول الخلافة الى ملك يورث لم يكن بمثابة هدم ـ فحسب ـ لقاعدة الشورى التى هى أساس النظم الدستورية ، بل ان هذا التحول أدى أيضا الى افساح المجال أمام خصوم العرب الذين وجدوا السبيل عندئذ الى اضعاف دينهم وافساد امرائهم وسلاطينهم ، وبهذا دب فى أوصال الدولة العربية على مر الزمن الضعف والانحلال ، وتفرق العرب

برغم ما بينهم من روابط الجنس واللغه والدين ، وبمرتة العرب وبفساد سلاطينهم وامرائهم زالت وحدتهم ، وفقدوا على مر الزمن استقلالهم وحريتهم ، وفقدت الخلافة المظاهر الاساسية التى كانت تكفل القوة للدولة العربية ، فتدهورت السلطة المركزية للخليفة وتدهور سلطانه الدينى على سائر المسلمين الذين كانت الانقسامات الدينية قد فرقتهم ، وانتهى الأمر بتفتيت الدولة العربية الموحدة ذاتها ، فقامت للعرب فى الأندلس دولة من الأمويين فى الوقت الذى كانت فيه الخلافة العباسية قائمة فى بغداد ، وقامت فى المغرب وفى مصر دولتان للفاطميين .

وهكذا تفرق العرب فى ذات الوقت الذى كان فيه الغرب يعمل على توطيد كيانه وتوحيد كلمته وتعزيز مركزه ، وبعد أن أخذ عن نظام الخلافة الاسلامية نظاما استند اليه البابا لجمع السلطة الدينية والدنيوية فى يديه ، وأصبحت هذه السلطة سند الكنيسة وجزءا لا يتجزأ من سياستها .

***

تفرق العرب ولم يبق للدولة العربية من مكانة الا تلك المكانة التى كانت تستند الى قيام ولاة وأمراء أقوياء على رأس مختلف البلاد العربية، ولكنها كانت مكانة وسلطنة على حساب مكانة وسلطان الخليفة ووجوده الذى أصابه الضعف والتضاؤل تدريجيا ، حتى انتهى الأمر بهؤلاء الأمراء والولاة والسلاطين الى الانفراد بالسلطة تاركين للخليفة من مظاهر الحكم مجرد الدعاء له فى صلاة الجمعة ، ولا شىء غير ذلك .

وقد افضت هذه الحال الى زوال تلك الوحدة التى كانت تجمع العرب جميعا وتحميهم من طمع الاجنبى ، فتعرض العرب الى عدوان الغرب عليهم بالحروب الصليبية ، ثم الى غزو المغول لهم .

ولما سقطت بغداد أمام غزو التتر فى عام ١٢٥٨ م نزح عنها الخليفة العباسى ولجأ الى القاهرة ، ولم يعد يمارس فيها غير السلطة الدينية التى أصبحت أداة فى يد المماليك ليستمدوا منها السند فى حكمهم وسلطانهم على أبناء مصر ، وأصبحت الدولة العربية تركة يتوارثها الطامعون وتتنازعها المطامع،

وهبط العرب من مستوى أصحاب الرسالة الى درك الرعايا لسلاطين وأمراء تمردوا على الخلافة وتناحروا فيما بينهم ، وآل اليهم حكم العرب فحكموهم لمصالحهم ومصالح أسرهم ، لا لمصالح العرب .

***

ولقد قام بين هؤلاء الحكام جميعا صراع على الحكم والسلطان ، وكان لابد لهـذا الصراع من أثر ينعكس على الحكم والسلطان وعلى الأمة العربية كالشأن فى كل الشعوب عندما تفقد الثقة فى قادتها وحكامها ، ويبدو لها واضحا انصرافهم عن العناية بقضاياها الكبرى ، وبذلك دب الضعف والتخاذل فى معظم انحاء الدولة العربية ، مما أطمع فيها أول ما أطمع الاتراك الذين بدت قوتهم عندما بدءوا ينافسون العرب فى حكم المسلمين وتولى شئونهم ، وسيطر الأتراك والسلاجقة على جانب من الدولة العربية ، وكان لابد لأولئك الاتراك الذين كانوا قد خرجوا حينئذ من الظلام الى النور وبدءوا يشعرون بما تشعر به الدولة الفتية من القوة والشباب ، وأن يفرضوا وجودهم فى الدولة العربية وبين العرب لا كأتراك بل كمسلمين يعملون من أجل رفع شأن الاسلام والدفاع عن المسلمين ، وقد تقبل العرب الاتراك فى هذه المرحلة من تاريخهم بسبب ما كان للأتراك من قوة الدفع والحيوية التى كانت قد ضعفت بين الحكام العرب لطول العهد بانحراف الحكم فى الأمة العربية عن الرسالة والمبادىء التى أرسيت فى عهد الدولة العربية الأولى .

***

وهكذا بدأ التسلل التركى الى داخل الدولة العربية وأصبح للأتراك من الحماس الدينى ما كان من قبل للعرب ، بل ان الاتراك اندفعوا بحكم وحدة الدين الى تبنى قضايا الاسلام والدفاع عن الدين ، فكانت الوحدة الدينية بين العرب والاتراك هى سند الآخرين فى فرض سلطانهم على العرب الذين كانوا يعيشون على تراث الماضى ، وعلى الأمل فى استعادة مجد الدولة الاسلامية على يد الأتراك ، وهكذا مهدت تصرفات الحكام العرب الطريق للأتراك لكى يتسلطوا على العرب ، وكان التركى وقتئذ

يمثل دما جديدا وجنسا كان يبدو أنه أقوى حيوية وأشد مراسا وأصلب عودا ، وانه بحكم حداثة عهده بالحضارة اقل انحلالا وأقل ضعفا معنويا من أولئك الحكام العرب الذين كانوا يتولون أمر الأمة العربية ، غير ان الأمر تطور بالنسبة للأتراك الذين كانوا يطمعون فى تكوين دولة جديدة يكون لهم فيها الصدارة والزعامة ، ومن ثم فقد سيطروا على بلاد العرب وانتزعوا لقب الخلافة لأنفسهم ، واذا بالعرب يتبينون بعد فوات الأوان انهم بالنسبة للأتراك قد أصبحوا شعبا مغلوبا يلقى من غالبه معاملة المنتصر للمهزوم ، وأصبح لا مناص للعرب من أن يعيشوا تحت سلطان تركيا ، ويخضعوا لقوانينها ويقبلوا الأتراك كسادة يأتمر العرب بأوامرهم .

***

ولم يحاول الأتراك أن يندمجوا فى الأمة العربية برغم وحدة الدين ، بل انهم ضربوا بينهم وبين هذه الامة سياجا سميكا حتى تمكنوا من استغلال العرب والانتفاع بخيرات بلادهم كسادة لهم . ولقد غلفت الدولة العثمانية الغازية اخضاعها وغزوها للعرب بغلاف الخلافة الاسلامية ، فمن هذه الخلافة استمدت لنفسها شرعية حكم المسلمين ، ومن هذا اللقب ، استمدت حقها في خضوع المسلمين لها ، ومنه اتخذت لنفسها منزلة السيطرة المشروعة على سائر المسلمين ، وكان من اليسير على العرب أن يتبينوا خروج الدولة العثمانية عن واجبات الخلافة ، ونكوصها عن التزاماتها نحو العرب والمسلمين ، ولكن الحكام العرب والشيوخ العرب وأمراءهم لم يكن لهم من مصلحة شخصية فى الكشف عن هذه الآثام . فكان من الطبيعى والحال على هذه الصورة ان تنعزل البلاد العربية بعضها عن بعض ، وأن تضعف الروابط بينها ، وان ينتهى الأمر فيصبح العربى فى بلده غريبا عن العربى فى البلد الآخر ، لا يحس احدهما بآلام الآخر ؛ ولا يتخلف بلده وراءه لينهض بالدفاع عن عربى فى بلد آخر ، وليؤدى حق العروبة أينما كان ، هذا الحق فى انتظار الوفاء به . وبهذه القطيعة وبتلك الروح الانعزالية لم يدرك العرب فى الشرق حق اخوانهم العرب فى الاندلس عليهم أيام محنتهم ، فلم يخفوا لنجدتهم ، فلقد كان حريا بساسة الدولة العثمانية

أن يدركوا أيام محنة العرب فى الأندلس أن أسباب هده المحنة ستكون ذاتها أسباب محنة مثلها للدولة العثمانية وان هذه الدولة هى التى هيأت الأسباب لمأساة عرب الأندلس ، وهى التى تعدها بنفسها لنفسها يوما ما ، كان حريا بساسة الدولة العثمانية أن يفطنوا الى أن تسلطهم الظالم على العرب واضعافهم لهم قد كان من أهم الاسباب التى حالت دون انقاذ الدولة العربية فى أسبانيا ، وساعدت على تقدم الغرب فى الاندلس ، وعلى محاولة دوله لغزو مراكش والجزائر وتونس المرة بعد المرة • كان جديرا بهؤلاء الساسة الأتراك أن يدركوا – سلفا – أن الحكام العرب فى شتى البلاد سيقفون من الدولة العثمانية حينما يهددها الغرب ، الموقف الذى رسمته هى لهؤلاء الحكام وألزمتهم اياه حيال العرب فى الأندلس وحيال كل بلد عربى •

واذا كان هذا هو موقف الحكام العرب ، فان الامة العربية قد أدركت بعد أن تكشف لها خداع الدولة العثمانية للعرب وانصرافها الى بناء مجد عثمانى بحت يقوم على الفتح والبطش ، أدركت أنه لا خلاص لها مما وقعت فيه ولا سبيل الى استعادة مجدها الا بمقاومة الحكم التركى ، وسيطر على العرب هذا الشعور بعد ان تبين لهم ان الخلافة التى جعلت المسلمين يدينون بالولاء للدولة العثمانية لم تكن غير نقاب خادع للاستعمار العثمانى •

***

لا ريب فى أن الخلافة كان لها أثر فعال فى دعم دعوة الأتراك التى كانت تقول ان الاتراك ليسوا بأجانب عن العرب ، وان الدولة العثمانية حلت محل العرب فى قيادة المسلمين داخل دولة اسلامية ، وبدلا من أن تكون هذه الدولة الاسلامية عربية ، أصبحت دولة عثمانية ، فهى على أية حال اسلامية ، وكانت هذه الدعوة لتخدير العرب ولمنعهم من الثورة بدافع قوميتهم ، وبدافع تاريخهم ، والتمرد على السياسة العثمانية وضد الجنس الطورانى • وقد كان من اليسير على قادة العرب وعلى شيوخهم ورؤساء العشائر فيهم ، كما كان من اليسير على رجال الدين العرب أن يدحضوا هذا البهتان وان يوضحوا للعرب الفارق الكبير بين الدولة العربية الاسلامية

وبين الدولة العثمانية الاسلامية والفرق بين الخلافة ؟ حين كان يتولاها العرب وبعد أن انتهت الى ميراث يتوارثه آل عثمان ، ولم يكن بالعسير على هؤلاء القادة العرب ان يوضحوا للعرب والمسلمين خروج آل عثمان عن واجبات الخلافة نحو العرب والمسلمين ، ومن ثم كان فى امكانهم أن يدعوا العرب الى العصيان والى الثورة ، لأنه كما قلنا لابد لقيام الثورة ولنجاحها من زعامة سوافر لها • فالزعيم الثائر هو القدير على تحريك الشعب ضد العادين على الشعب ، كان كل ذلك ممكنا لو توافرت للعرب تلك القيادة الروحية والدنيوية ، ولكن العرب لم يجدوا سبيلا الى زعيم يلهب شعورهم ويقودهم فى ثورة ضد حكم آل عثمان • فافتقار العرب الى هذه الزعامة لم يمكنهم من هذه الثورة الكبرى ، ومن استعادة أمجادهم ، وكل ماحدث فى ظل الحكم التركى انه كانت تقوم بين الحين والآخر فى مختلف بلاد العرب انتفاضات منعزلة لأفراد تؤيدهم جماعات ، وكان مردها الى ظلم يحيط بهم أو عسف يصيبهم ، ولكنها بصفة عامة كانت حركات محلية ، ولم تكن حركات شاملة مما كان يسهل على الأتراك القضاء عليها •

***

ومن العوامل التى عاونت الاتراك على تثبيت حكمهم ، انهم استحدثوا للعرب رياسات من أمراء وشيوخ سواء كانوا من أصل تركى أو جركسى أو رومى واعتنقوا الدين الاسلامى ، أو كانوا شيوخا من شيوخ العرب ذاتهم ، فأصبح هؤلاء حكاما محليين ، وعمل الاتراك على فرض الطاعة على العرب لهؤلاء الحكام المحليين الذين كانوا فى أغلب الاحيان من عملاء السلطان العثمانى ، وهم الذين عاونوا السلطان فى عزل العرب بعضهم عن بعض وحالوا دون اتجاه العرب الى القيام بأية حركة ترمى الى تحقيق وحدة تجمع شملهم وتوحد صفوفهم ، وقد كانت هذه الوحدة تشكل أكبر خطر يخشاه الاتراك ، وكان من الطبيعى أن يحاول أولئك الحكام فرض الولاء لأنفسهم على العرب الى جانب الولاء العام لسلطان الدولة العثمانى باعتبارها مركز الخلافة الاسلامية ، وقد نجحت الدولة العثمانية فى خطتها هذه ، وساير أولئكم الرؤساء التخطيط العثمانى لحكم العرب

ونقاضوا الثمن سلطة ونفوذا ، وبهذا تمكن الأتراك من حكم العرب دون أن يواجهوا من حكامه انتفاضة قوية وشعورا عربيا شاملا يعمل لحساب العرب ، حتى جاءت الحملة الفرنسية بقيادة الجنرال بونابرت الى مصر ، فكانت هذه الحملة أول محك لثورة العرب ضد العدوان الغربي ، اذ تكتلت قوى العرب وتوحدت صفوفهم لمقاومة هـــذا الغزو ، ثم تأكدت للعرب قدرتهم على هذه الثورة حينما ثاروا ضــــد الحملة الانجليزية الأولى .

وقد أدرك العرب بعد ذلك أن في امكانهم ، وقد بدأت الشيخوخة تدب في أوصال جسم الدولة العثمانية أن يثوروا ضدها ، وأن يستعيدوا أمجادهم لو توافرت لهم الزعامة ، وذلك لأن الأمة العربية بالرغم من المحنة التي أصابتها ، وبالرغم من مرور قرون على فقدانها لاستقلالها ، وعلى تبعيتها للدولة العثمانية ، فانها كانت تشعر في أعماقها بأن القـــوة وحدها هي التي كانت تحول دون استعادتها لمجدها واقامة الدولة العربية . فخضوع الأمة العربية للحكم التركي لم يكن الا نتيجة لغزو الأتراك من ناحية ، ثم لتغرير قادة العرب بالعرب ، وكانت الخلافة من بين أســـاليب التغرير والتضليل .

***

بدأ العـــرب يدركون مدى الانحراف الذي انتهت اليه خلافـــة آل عثمان ، وبدءوا يدركون أنهم اذا ثاروا على هذا الحكم ، فان ثورتهم لا تكون تمردا على سلطان الخلافة ، وانما تكون من أجل حقهم المشروع ولا سيما أن الحكم العثماني للأمة العربية طوال مئات السنين لم يكن ليجعل الأمة العربية تنسى عروبتها وأصـــالتها ، أو يغيب عنها تاريخها المجيد العريق ، فوسائل الاضطهاد وطرق التنكيل والتعذيب التي قاساها العرب على أيدي الأتراك ، لم تصرف العـــربي عن التطلع الى اليوم الذي تقوم فيه دولة عربية كبرى يتزعمها زعيم عربي ، ولعل هذا الشـــعور العميق الذي لازم العربي أيام الحكم العثماني كان من أهم العوامل التي

احتفظت للأمة العربية بشخصيتها وبتقاليدها ولغتها فى ظل هذا الحكم ، فلم تذب شخصية هذه الأمة فى شخصية الدولة الحاكمة .

ولقد كافح العرب وجاهدوا للابقاء على هذا الشعور ، ولم يدخروا جهدا فى تغذيته من حين لآخر حتى لا تسى الأمة ماضيها التليد ، فكان احساس العرب بقوميتهم دائم التجدد ولم يكن من الممكن لهذا الشعور ولتلك الأحاسيس ان تتبلور ما لم تتوافر للعرب الزعامة كما قلنا ، وكانت أعين العرب فى كل مكان تتجه فى هذا الشأن الى بلدين ، مصروسورية ، آملين أن يبرز من احداها ذلك الزعيم والقائد الذى يتولى قيادتهم ويكتل جهودهم ثم يدفعهم الى انتفاضة كبرى فى حركة شاملة تستهدف الخلاص من الحكم العثمانى ، فلما ظهر محمد على تطلعت اليه أعين العرب والمسلمين كافة على الصورة التى شرحناها فى المرحلة الأولى من مؤلفنا ، الا أن محمد على تخلى كما قلنا عن الرسالة التى كانت تنتظره ، تخلى عن العرب والمسلمين ، وآثر ان يظل تركيا .

تطلع العرب فى كل مكان الى قادة وزعماء ، فلم يجدوا الا شيوخا وأمراء وحكاما فضلوا التبعية للباب العالى مقابل جاه ومزايا مادية صرفتهم عن التطلع لتحقيق أهداف العرب .

***

وبدأ العرب يشعرون بمسيس حاجتهم لتنظيم أنفسهم وضم صفوفهم حتى يتسنى لهم القيام بالعمل الايجابى ، وبدأ يظهر بين العرب فى مصر وسورية وفى لبنان قادة وأصحاب رأى تزعموا ثورات ضد الحكم العثمانى وضد الغزو الغربى الذى بدا خطره واضحا بعد أن نجحت فرنسا فى احتلال الجزائر ، ولم يجد الشعب العربى الجزائرى من يأخذ بيده ويعاونه فى كفاحه ضد الاستعمار الفرنسى ، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل هذا الشعب يكافح وحده خلال تلك الفترة ضد غاصبى بلاده .

***

توالت الأحداث فى العالم العربى ؟ توالت المآسى واتسع نطاق

المظالم فيه وبقدر ما كان يشتد ضغط هذه المظالم وتلك الأحداث ، بقدر ما كان يشتد احساس العرب ، ويعمق شعورهم بحاجتهم الى الزعامة التى يمكن أن تقودهم ليرفعوا عن كاهل أمتهم نير المظالم ويستعيدوا لها أمجادها ، فالثورة المعتملة فى نفوسهم لم تكن لتجدى فى كثير أو قليل ، وكان لابد من أن تشتعل وتتحول الى عمل ايجابى ، ولا سبيل الى هذا التحول غير الزعامة القوية الرشيدة ، فالزعيم وحده هو الذى يستطيع أن يجمع الشعور الثورى السلبى فى الأمة ويصنع منه شعورا ايجابيا اجماعيا وثورة واقعية .

***

كان كل ما يحيط بالعرب يوحى اليهم بالثورة ؛ وكان من بين هذه البواعث نجاح الثورة على الباب العالى فى لبنان ، فانهذه على الرغم من أن زعامتها كانت زعامة طائفية ، وعلى الرغم من أن الغرب كان يساندها ، فان نجاحها كان فى رأى العرب دليلا على امكان قيام ثورة ضد الحكم العثمانى تجبره - على الأقل - على ترك جانب من حقوق الثائرين المغتصبة والنزول عنها لأصحابها .

***

ثم انبعثت الثورة العرابية ضد الحكم التركى ، وكانت اولى ثورات العرب المنظمة الشاملة التى اعتمدت على ذاتها ، وقامت استجابة لرغبة الشعب وحاجته ، استجاب لها الشعب حينما قامت ، وكانت الثورة العرابية ثورة وطنية هدفها التخلص من الحكم الاجنبى ، كما كانت ايضا ثورة اجتماعية قامت لترفع الظلم عن كاهل الفلاح المصرى والطبقات الكادحة ، غير انه على الرغم من أن هذه الثورة قد توافرت لها السمات الكاملة للثورة ، كما توافرت لها اسباب النجاح ، فانها انتهت بالفشل على نحو مافصلناه فى المرحلة الثانية من مؤلفنا ، وذلك بسبب أن زعماءها وقادتها قد رضوا بانصاف الحلول لتحقيق الأهداف التى من اجلها قامت الثورة ، ولم يدركوا انهم بهذا المسلك قد وقفوا بثورتهم فى منتصف الطريق ، ومن ثم حفروا للثورة قبرها بايديهم ، فالثورات تموت حتما اذا ماوقفت فى منتصف الطريق ، ومن اجل هذا فقد فشلت ثورة عرابى فشلا عسكريا وسياسيا ، ولم تنجح فى تحقيق اهدافها الوطنية والاجتماعية .

ولكنه بالرغم من هذا الفشل ، لم ينجح العدو ولا الحاكم المستبد في القضاء على روح الثورة بين المصريين .

كما نجح الاستعمار الفرنسي في غزو تونس وارتضى حكام تونس وقتئذ الحكم الفرنسي وتعاونوا معه ، ولكن ثورة الشعب العربي في تونس ظلت متوقدة لا تخبو نارها الا لتعود فتشتعل ، وهكذا بقيت روح الثورة تسود العالم العربي ، تغذيها الأحداث ويقويها عدوان الغرب ومظالم الحكم العثماني في البلاد التي كانت لا تزال تحت هذا الحكم ولم يحتلهـــا الاستعمار الغربي بعد ، وبالرغم مما بذله الاستعمار بعد احتلاله للبلاد العربية من جهود لاستمالة العملاء ، فانه لم ينجح في تحويل الأمة عن السعي لتحقيق أهدافها والتطلع الى ذلك اليوم الذي توفق فيه الى القيادة الصالحة التي تمكنها من تحقيق هذه الأهداف .

كانت الأمة العربية ما زالت في حاجة الى عناصر واعية تعرف كيف ومتى تعمل . ظل العرب في صراعهم وكفاحهم ضد الاستعمار الغربي متمثلا في فرنسا وايطاليا وبريطانيا ، ظلوا يكافحونه في مصر وفي تونس وفي ليبيـــا وفي الجزائر وفي مراكش ، ويكافحون ضـــد حكم الدولة العثمانية في سورية ولبنان وفلسطين والعراق وشبه الجزيرة العربية ، ولم تنصرف الأمة العربية أبدا عن التطلع الى ذلك اليوم الذي تتحقق لها فيه الحرية والاستقلال .

ثم خدع الاستعمار العرب ومناهم برد حقـــوقهم لهم في الحرية والاستقلال وبذل لهم الشتيت من الوعود والعهود والمواثيق ، وبهـــذا كله أغراهم فوقفوا في صفه خلال الحرب العالمية الأولى يســـخرهم في سبيل تحقيق أغراضه من هذه الحرب ، واستغل من أجل النصر فيهـــا كل طاقات العرب وموارد أرضهم ، ولما تم له النصر تنكر لهم جميعـــا ووقف منهم موقف العداء فأمعن في البطش بهم فزاد شعور العرب بمرارة الحكم الأجنبي والتسلط الاستعماري على بلادهم ، وازداد احساسهم بذل التبعية ، واشتد سخطهم عليها وانتهى مؤتمر الصلح عقب الحرب العالمية ومرجل الثورة يغلي في نفوس العرب .

ولما قامت الثورة التركية ونجحت وأصبحت مثلا واضحا على ما يمكن أن تحققه ثورة أمة توافرت لها الزعامة الصالحة ، ولما كانت بواعث الثورة تجيش في صدر الامة العربية بحيث أصبحت على أتم استعداد للتضحية والبذل والفداء والفناء في سبيل تحقيق حريتها واستقلالها ، فقد أجمعت على القيام بالثورة ، وكان من بين أبنائها اذ ذاك من ناضلوا الاستعمار التركي والاستعمار الغربي ، وعانوا في هذا السبيل النفي والتشريد ، ولكن الظروف لم تهيىء لهم الوصول الى مراكز القيادة في شعوبهم ، بل طوردوا واستبعدوا من بلادهم وحيل بينهم وبين العودة الى أوطانهم . كان من هؤلاء المجاهدين من كافح من أجل قضية بلاده وهو في برلين ، ومنهم من كان يفعل هذا وهو في باريس أو في امريكا .

ولعل مما يبعث الأسى والألم في قصة كفاح هؤلاء الأبطال طريدى الاستعمار وخصومه : أن الحكام المحليين في بلادهم كانوا دائما هم العقبة في سبيل عودتهم الى أوطانهم ، مما مكن لبعض العناصر في بعض البلاد العربية من أن تفيد من جهاد هؤلاء المجاهدين المستبعدين ، وأن تتخذ من كفاحهم الوطني لبنات تبني بها لنفسها مكانة المكافحين المناضلين في أوطانهم ، فبرزت هذه العناصر وطفت على السطح وتقدمت الصفوف ، واعتقدت أمتهم أنهم أهل لثقة الشعب وجديرون بقيادة الأمة وتوجيهها الوجهة التي تكفل لها تحقيق أهدافها وحريتها واستقلالها .

***

نعود فنقول ان العرب كانوا يرون المثل أمامهم فيما حدث بالبلاد التي هيأت لها الظروف فرصا لتحقيق أهدافها ، فلقد نادى الشعب التركي بالاستقلال أو الموت ؟ ونادت أيضا الأمة العربية بالاستقلال أو الموت ، ولقد أجمع الشعب التركي أيضا على النضال ، فالصورة من هذه الناحية صورة واحدة لم تختلف في الشعبين التركي والعربي ، ولكن هل كانت الصورة فيهما واحدة من ناحية الزعامة ؟ ذلك ما سيبدو لنا في استعراضنا لهذه الناحية من الصورة . فالشعب العربي وكل أمره في

توجيه وقيادة اندفاعه الثورى الى قادة ارتضى زعامتهم له وقبل وكالتهم عنه ، ليكون دورهم فى الكفاح امتدادا لكفاح وجهاد زعماء استشهدوا وأفنوا حياتهم وبذلوا أموالهم فى سبيل الدفاع عن قضية الأمة العربية ، وأصبح هؤلاء القادة الذين ألقت اليهم الأمة بمسئولية القيادة فيها معقد الأمل ومحط الرجاء ، وكانت العبرة ماثلة أمام أعينهم فيما حققته ثورة مصطفى كمال فى تركيا ، فرأوا النصر الذى يحققه اجماع الأمة كلها على الجهاد ، وكانت أمامهم العظة صارخة فيما عرفوه من عنصر المساومة فى سياسة الغرب ، ومن عنصر الاستدراج فى هذه السياسة حتى تغرى أصحاب الحقوق بالرضا بأنصاف الحلول فتقضى بذلك على الاندفاعات الثورية فى الأمة الثائرة ، وكانوا يعرفون ما سمعوه من زعماء الاتراك فى أثناء جدلهم وحوارهم حول وعود الغرب ، وكيف كان العزم وكانت الصلابة فى تصميم مصطفى كمال على النضال والكفاح . كان ذلك كله ماثلا أمام أعين هؤلاء القادة العرب ، فهل التمسوا منه العبرة ؟ ثم الى أى مدى كان تجاوبهم مع عواطف الأمة وشعورها وأمانيها الوطنية ؟ والى أى حد كان انفعالهم بثورة الشعب ، هل عاش هؤلاء القادة العرب الثورة ؟ هل عاشوها وعاشوا من أجلها ؟ هل أحسوا انها ثورتهم قبل أن تكون ثورة الشعب ؟ وأخيرا كيف كان مبلغ طاقة وكلاء الأمة فى ثورتها على حمل الامانة فى هذه الوكالة . لقد كان حريا بالقادة العرب أن يحتذوا بقادة الثورة التركية فى نظرتها لمفاوضات الغرب ليتحصنوا ضد هذه المفاوضات ، كما تحصن ضدها الاتراك الذين رفضوا الدخول فى أية مفاوضات مع الدول الغربية المحتلة لبلادهم ، على الرغم من أن جيوش هذه الدول فى الاناضول كانت وقتئذ أضعاف ما كان لبريطانيا من قوات فى مصر والعراق وفلسطين ، كما كانت اضعاف ما كان لفرنسا من قوات فى سورية ولبنان وشمالى افريقية ، ومع هذا كله فلم تلن لمصطفى كمال قناة ، ولم يستدرج الى المفاوضات مع الدول التى تحتل بلاده .

ان النظرة الدقيقة لما مر بتاريخ العرب فى تلك الحقبة من الزمن لتؤكد تماما ، انه بالرغم من الاندفاع الثورى الأصيل فى

الشعب العربى ، وعلى الرغم من تصميمه على الموت فى سبيل استقلال بلاده ، فان موقف الزعماء العرب فى المفاوضات ، قد مكن الاستعمار من أن يعرف ــ سلفا ــ الحدود التى تعالج فيها مستقبلا قضايا العرب ، وعلى هذا الأساس تمكن الاستعمار من تحديد مصير الثورة فى كل بلد عربى ، وكان العون فى ذلك التحديد هو مواقف الزعماء أنفســـهم ، ودون أن يدركوا أنهم يقدمون هذا العون .

وقد أدرك ذوو البصيرة من أبناء الأمة العربيـــة أن ثورتهم التى فشلت لن تنتهى بل ستظل ثورة كامنة فى النفوس تعود للظهور وللعمل متى توافرت لها مقومات الثورة كاملة ، ومتى توافرت لها الزعامة الصالحة كما بدأ العرب يشعرون بأنه لا يكفى لنجاح ثورتهم ان يجمع الشعب عليها ويصمم تصميما أكيدا على تحقيق أهـــدافه ، بل لابد له من أن يطمئن الى اخلاص وتصميم زعمائه على خدمة قضيته ولو كلفهم هـــذا الاخلاص حياتهم وأموالهم ، ودون أن يخشـــوا فى ذلك التشريد والحرمان .

***

وكان لزاما على العرب أن يفرقوا بين القيادة السياسية للثورات ، والتى يتولاها ساسة محترفون ، وبين القيادة الثورية التى يتولاها زعماء أقوياء مخلصون ، والتى تبين للعرب أنها هى الشرط الأســـاسى لنجاح ثورتهم وتحقيق أغراضهم بصرف النظر عن الطابع الخاص لتلك القيادة ، سواء أكان طابعا مدنيا ، أم كان طابعا عسكريا .

كما أدركوا كيف ان الظروف فى الماضى وقفت فى وجه عنـــاصر كان من الممكن ان تتولى القيادة الثورية ، فى حين هيأت هـــذه المكانة لساسة تولوا القيادة ، وكان ممكنا أن تدفعهم الأحداث فيتقمصوا شخصية القادة ، ويتشبعوا بالروح الثورى ، ولكن الواقع أثبت فى النهاية أنهـــم كانوا دون مستوى الثورة ، فلم يرقوا الى مكان الرسالة الثورية والزعامة الثائرة التى تمشدقوا بها .

تبين للعرب أن هناك ضوابط أصـــيلة تحدد حقيقة موقف وعقيدة

وسلوك الزعيم الذى يصلح لقيادة الأمة فى ثورة تنتهى الى نصر يحقق لها السيادة الوطنية ، ويبدل ويغير فى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بما يتفق وآمال الشعب وبما ينصف الطبقات العاملة .

ولقد ظل الأمل فى قيام الثورة يراود نفس الأمة العربية ، فى حين كان العدو يرقب ويدرس بما له من امكانيات كبيرة . تطور هذا الشعور فى مختلف طبقات الشعب أملا فى تعرف حقيقة القوة الكامنة فى كل فرد وفى كل جماعة ليقوى على مواجهة الثورة وليقوى على مواجهة الزعماء ولكى يحدد موقفه على ضوء هذه الدراسة ، فاذا دلته دراسته على أنه يواجه زعماء وطنيين على استعداد للموت والفداء ، كيف موقفه ، وقدر الثمن الذى سيطالب بأدائه اذا ما وقف فى وجه مطالب الأمة ، واذا تبين أنه يواجه مجرد ساسة فى صورة زعماء كيف موقفه تبعا لذلك .

فطبيعة الصراع الذى ينشب بين الثورة وبين الاستعمار أنه يرمى من جانب الثورة الى تحقيق أهداف الأمة واستخلاص حقوقها ، ويرمى من جانب الاستعمار الى السعى لوأد الثورة والتخلص منها اذا تهيأت له السبيل لذلك ، والى العمل على تحويل الثورة عن أهدافها واضعاف قوة اندفاعها ، وان هذا الصراع ليبدو واضحا فى كل المفاوضات التى جرت بين الاستعمار وبين قادة وزعماء الثورات والساسة الذين تقمصوا صورة الزعماء وتحدثوا باسم الثورات فى الشرق العربى والاسلامى .

***

ومن طبيعة الاستعمار أن يلجأ دائما الى سلاح المفاوضة عندما يواجه الثورات ، ومتى تبين له أن القضاء على الثورة بالنار والحديد يكلفه ما لا طاقة له به . والمفاوضة تكون غالبا أمرا محتوما لأن الأوضاع والمشكلات التى يخلقها الاستعمار عندما يحتل بلدا لا يمكن أن تصفى بين يوم وليلة ، ولا يمكن للاستعمار أن يفرط فى مغانمه منها مالم تلحقه هزيمة تامة ساحقة ، بل انه حتى عند هذه الهزيمة تكون المفاوضة بين الثورة المنتصرة والمحتل المهزوم أمرا حتميا . ولكن هناك على أية حال فارقا بالنسبة لموضوع المفاوضة ذاته ، فالقيادة الثورية الواعية الأمينة هى التى

تنحصر المفاوضة فى تنظيم جلاء المستعمر ورد الحقوق الى الشعب ، أما القيادة الفاشلة فهى التى تسمح للمفاوضات أن تتناول حقوق الشعب ، ومن ثم تجعل هذه الحقوق موضوعا للمساومة ، وبهذا يهيىء المفاوض للمستعمر السبيل لايهام الشعب الثائر بكسب حقوق نزل له عنها المستعمر ، وايهام الأمة بأنها حققت فى المفاوضات أهدافها ، وذلك بوضع عبارات وألفاظ فى وثائق المفاوضات تتضمن التسليم الشكلى من جانب المستعمر بحقوق الشعب ، فى حين يضمن المستعمر الوثائق نفسها صيغا وعبارات تمكنه من استرداد واستعادة الاوضاع التى تمس حقوق البلاد وسيادتها ، فكأنما أعطى باليسار ما أخذه باليمين .

ولقد أقدم على هذا اللون من المفاوضات ساسة ارتضوا مهادنة الاستعمار وسولت لهم أنفسهم تسخير كفاح الأمة وجهادها لمصالحهم ، ومن هذا يتبين بجلاء الفارق بين القيادة الثورية والقيادة السياسية ، فالقيادة الثورية تحرص دائما على مكاشفة الأمة بحقيقة الموقف وبما يعترضها من صعوبات وما يقتضيه من تضحيات ، ثم ما يقابل هذا كله من الثمن ، كما أنها تراعى أبدا المصالح العليا للأمة ، ولا تنتهى الى قرار الا اذا اطمأنت تماما الى انه يخدم المصلحة العامة .

والقيادة الثورية تسعى دائما الى تحويل أمل الامة الى حقيقة والى واقع ملموس ، كما أنها تحاذر أبدا حتى لا تقع فيما قد ينصبه لها المستعمر من فخاخ لاستدراجها الى المساومة على حقوق الأمة مساومة قد يبدأ بها المستعمر ولا غرض له فيها الا احداث الشقاق والفرقة والتصدع فى وحدة صفوفها والقضاء بهذه الوسيلة على الثورة وعلى زعماء الثورة . وان التاريخ ليسجل للاستعمار سعيه الدائب المتواصل خلال تلك الحقبة الزمنية التى نتناولها فى هذه المرحلة من مؤلفنا للتحكم فى الثورات التحررية واحباطها بجميع الأساليب والوسائل ، فلكم اتخذ فى سبيل ذلك العديد من المواقف لمواجهة الحركات الوطنية فى صورها المختلفة باجراءات وأساليب سنتناولها كما نتناول موقف الحركات الوطنية من الاستعمار فيما يلى من فصول وأجزاء هذا المؤلف .

في أبواب هذا المؤلف تحدثنا عن زعامة الشعوب والأمم بالقدر الذى تقتضيه الاحداث ، وسيتجدد هذا الحديث كلما دعت اليه المناسبة فى كل فصل من فصول المؤلف ، غير أنه نظرا لقوة الارتباط فى تاريخ البشر بين القيادات الشعبية والأحداث وبين الزعامات ومستقبل الأمم ، ونظرا لما للزعماء من أثر واضح فى تحديد مصاير الشعوب والدول ، فقد رأينا ان نفرد للزعامة هذا الحديث القصير .

لقد عرفت الزعامة منذ النظام القبلى ، ومنذ ان تكونت فى العالم مجتمعات بشرية لكل منها مصالح واهداف مشتركة بين أفراده الذين أصبحت عليهم واجبات بالنسبة لمجتمعهم ، كما أصبح لهم قبله حقوق ، فكان طبيعيا وقد تعددت هذه المجتمعات ذات المصالح المتشابكة والمتعارضة أن تقوم فى كل منها قيادة ترعى مصالح مجتمعها ، وتتحمل العبء فى حمايته وفى الدفاع عنه ، وكانت هذه القيادة تقوم على أساس من ثقة المجتمع فى الزعيم والشعور بقدرته على النهوض بالاعباء التى يعجز غيره عن النهوض بها والايمان بقدرته على الابتكار والخلق والتنظيم والتنفيذ .

***

وان القيادات الزعامية منذ أن كانت ، هى التى سطرت صفحات التاريخ ، وهى التى غيرت مجراه فى شتى مراحله ، وهى التى حددت أبوابه وفصوله ، بل هى التى قررت مصاير الشعوب وأدارت دفة السلام ودفة الحرب .

وان الأمم التى توافرت لها الزعامة الصالحة عرفت طريقها الى المجد والرخاء والسيادة ، وهذا على العكس من الأمم التى حرمت هذه الزعامة فحرمت المجد والسيادة والرخاء . وليست سير عشرات الزعماء الذين تحملوا أمانة قيادة الأمم والشعوب ببعيدة عن ذهن القارىء ، وهى زعامات لم تنفرد بها أمة أو جنس دون الآخر ، بل عرفها العرب وعرفها الرومان واليونان ، وعرفتها سائر الشعوب العريقة فى تاريخها ولازمت كل نظام من

أنظمة الحكم ، بل ان إتجاه الأمم الى الزعامات التى تقودها كان السر فى استحداث نظم الحكم التى فى ظلها تنشأ هذه الزعامات ويتسع لهـــا كنفها ، وكان من بين هذه النظم : نظام الجمهورية الرياسية فى التاريخ الحديث الذى ينتخب فيه رئيس الجمهورية بطريق الانتخاب المباشر وهى الصورة العصرية لنظام المبايعة والشورى •

عـــلى أن أثر الزعامة الحقيقى لا يبدو ـ جليا ـ فى سير الحياة العـــادية للشعب ، وانما يبـــدو حين تلم بالشعب ملمة ، أو تنزل بالأمة كارثة عامة لتعصف بحريتها وتنال منها على أى وجه من الوجوه ، فعندئذ وحينما يهتز كيان الشعب ويحدق به الخطر يبدأ دور الزعيم ، وتبـدو خطورة العبء الذى يضطلع به لدرء الخطر وانتشال الأمة من كبوتهـــا والدفاع عن قضيتها •

***

ان الزعامة ـ فى طبيعتها ـ هى قيادة المجتمعات الانســـانية فى مراحل تطورها قيادة تنير الطريق امام المجتمع ، كما تكون له بمثـابة المحرك القوى الذى يحركه ويلهب شعوره ، وللزعامة دائما ســمات نفسية ومواهب ذهنية وخصائص خلقية ، لا يمكن ان تتوافر للانسان العادى ، ومن شان هذا التكوين النفسى والخلقى والذهنى ان يربط شعور صاحبه اتم الارتباط بشعور أفراد مجتمعه بحيث ينفعل تماما بآمال امته وبآلامها ، وبحيث يخفق قلبه بخفقات قلوب أبنائها ، كما أن هذا التكوين بطبيعته ـ يؤهل الزعيم بالعديد من الامكانيات الذاتية التى ينفرد بها ، فتؤهله بالقدرة على تحرى الحقائق فى كل الامور ، وعلى تفهم الأسباب الجوهرية للمشكلات والسبيل الى حلها ، وتؤهله بالقدرة الخارقة على تحويل احلام الشعب وأمانيه الى حقائق والى واقع ملموس ، وبالقدرة على تبين الاسرار والقواعد الخفية التى تحكم تصرفات الافراد والجماعات ، وتوجه سير الأحداث فى العالم ، ومن ثم فقد كانت للزعيم موهبته الخارقة التى بها يعالج فى يسر ودون عناء اشد المشكلات تعقدا امام الانسان العادى ويدبر الحلول اللائمة لها والتى لا يرقى الى ادراكها غير الذين خصهم القدر بمميزات الزعامة ، وهو بهذا يجد فى نفســه القدرة التى تمكنه من مواجهة الصعاب بالغة ما بلغت شدتها ، وتحويل صعوبتها الى سهولة • ثم ان ملامح الزعامة الأصيلة تتضح تماما فى قدرة الزعيم على التمييز بين الصعب من الامور وبين المســـتحيل منها مما

يجعله قادرا — تماما — على اتخاذ أشـــد واخطر القرارات فى أحرج المواقف دون تردد أو احجام وهو مدرك كل الادراك آثار قـــراراته ونتائجها .

***

وهذه الخصائص والمواهب الزعامية لا تطرأ على حياة الانســـان ولا يكتسبها ، والزعامة لا تتأتى للانسان بمجرد الاجتهاد والتحصيل ، فذلك هو المستحيل بعينه ، والصـــحيح هو أن المواهب الزعامية تولد مع صاحبها الموهوب وتنمو فى نفســـــه مع الزمن . والأحداث والمواقف العصيبة والحرجة هى التى تتولى كشفها ، وهى التى تشير اليها ليراهـــا صاحبها فى نفسه ، وليراها المجتمع فى صاحبها . فالفضل فى اكتشـــاف الزعيم يرجع دائما للشـــدائد والمحن والاحداث التى تلم بالأمم وتنزل بالشعوب .

ان دور هذه الشدائد والأحداث لا يقف عند حد الكشـــــف عن المواهب الزعامية ، بل يظل دورها قائما فى حياة الزعيم بعد أن تضعه على المسرح ، فهى التى تشير الى مدى طاقة هذه المواهب على الاســـتمرار فى الصمود والثبات أمام الأحداث .

***

تناولنا فى الحديث عن الزعامات الشعبية فى العالم مقومات هذه الزعامة فى ذات الزعيم وفى نفســـه وفى خلقه وفى طبيعتـــه وتكوينـــه ، وهذه الصورة المثلى للزعامة ، تفرضها — كما قلنـــــا — على الشعوب حاجة الشـــعوب اليها . بقى أن نشـــير الى الغذاء الذى يكفل للزعامة بقاءها بعد أن تقوم الى الزاد الذى يمكنها من المضى فى الاضطلاع برسالتها بعد ان يلقى اليها الشعب بالرسالة التى هى جديرة بحملها ، فان ذلك الغذاء وهذا الزاد انما هما بيد الشعب وحده ، وانهما على تعدد الوانهما تجمعهما عبارة واحدة هى : الجبهة الداخلية . فكما أن الزعامة تفرض على الزعيم واجباته نحو الشعب ، لكى ينهض بها فانها أيضا تفرض على الشعب واجباته لكى يطرد هذا النهوض ومن أجل ان يستمر الزعيم فى اداء رسالته نحو الامة ، ولابد فى سبيل هذا الواجب من ان يحمل افراد الشعب جميعا الوية رسالات صغيرة تندفع فى موكب تخفق عليه راية الرسالة الكبرى التى يحملها الزعيم ، فلا بد من ان يعمق الايمـــان

بالمسئولية بالتفانى فى العمل بحيث يسود هذا الايمان ويغمر جميع المستويات فى الشعب.

***

ولقد أشرنا فى أكثر من فصل من فصول مؤلفنا الى حرص الغرب دائما على مراقبة مجريات الأمور فى الشرق ، لكى يتسنى له أن يحول دون وصول الموهوبين بقدرات الزعامة الى مراكز القيادة والتوجيه فى الشعوب ، لعلم الغرب بأن تبنى مثل هؤلاء الزعماء حيثما كانوا لقضايا العرب يعتبر خطرا دائما على مصالح الغرب ، ومن الطبيعى أن هذا الخطر يملى على الغرب العمل من أجل التخلص من هذا الطراز من الزعماء مستعينا فى ذلك بكل الوسائل ، ومن بين هذه الوسائل الالتجاء الى قوة السلاح عند الاقتضاء . وليست حرب السويس التى شنتها بريطانيا وفرنسا على مصر الا صورة واضحة لما يمكن ان يقدم عليه الاستعمار من المغامرات فى سبيل أن يتخلص من زعيم قوى يرى الغرب فى زعامته الخطر كل الخطر على كيانه وعلى وجوده فى الشرق ، كما يرى فى دعوته التحررية ما يهدد المصالح الاستعمارية فى العالم كله .

ولكى يباعد الاستعمار بين الشعوب والزعامة القوية ، فقد حرص دائما على تشجيع الشعوب الخاضعة لنفوذه وسلطانه على ان يتبنى قضاياها ويتحدث باسمها وكلاء ونواب عنها ، لا زعماؤها . ومرد هذا الحرص هو ان الغرب يعلم أن من طبيعة الوكالة والنيابة أن يكون من ينهض بهما مجرد وكيل يتحدث نيابة عن آخرين يقوم بتمثيلهم بموجب تفويض منهم ، وتنحصر مهمته فى نطاق محدود معين ، ويكون حديثه فى ذلك لحساب وباسم غيره ، وليس من شروط الوكالة ان يكون الوكيل أو النائب مؤمنا بقضية موكله وبمعنى آخر لا يمكن ان تنقل الوكالة ايمان الموكل بقضيته الى صدر الوكيل ؛ فدور الوكيل هو مجرد ترديد رأى الموكل ونقل وجهة نظره ، فان أخذ بها الخصم فبها ونعمت ، وان رفضها أصبح على الموكل أن يدبر من جديد حلا لقضيته ، وان يواجه الموقف بمعرفته وتحت مسئوليته .

على ان وجه الخطورة في الوكالة السياسية أنهـــا ليست محدودة باطار قانوني ، فهي بذلك ليست كالوكالة المدنيـة التي لا تجيز للوكيل الخروج عن حدود الوكالة ، وتحتم عليه أن يقدم حسابه عن وكالته . خلافا للوكالة السياسية التي لا تلتزم بقيد من القيود ، فاذا اقترن عقدها بمـــا يقيدها بقيت الوكالة وسقطت القيود ، ثم انه لا ســـبيل لالغاء الوكالة السياسية الا بانتزاع ثقة الأمة من الوكيل ، والى ان يتم هذا الاجراء فانه يكون في وسع الوكيل أن يتحدث باسم الأمة ، ويعبر عن قضية لا يؤمن بها ، وفي ذلك ما فيه من الخطر على مصالح الشعوب وحريتها واستقلالها .

الفصل الثاني عشر

الاستعمار والعرب في نهاية الحرب العالمية الأولى

« العرب وانهيار الدولة العثمانية ـ الغرب يضع المخطط الذي يؤمنه من خطر »
« القومية العربية لاطول فترة ممكنة ـ نظرية الغرب تقول ان الشرق فقد السلطة »
« السياسية المركزية وفقد الزعامة ـ فترة مابعد الحرب العالمية الاولى ابعد اثرا في »
« تاريخ العرب من الحقبة التى امتدت منذ الفتح العثمانى من ١٤٥٣ الى ١٩١٩ ـ الغرب »
« يدرك خطر المبادىء التى نادى بها على مصالحه ـ خطر الوعى الوطنى ـ خطر الوحدة »
« عناصر الوحدة السياسية والوحدة القومية ـ تعريف الفيلسوف الفرنسي ارنست رينان »
« للوحدة ـ الغرب يدرس طبيعة تطور الوعى الوطنى ومدى فلسفته من العرب ـ »
« الغرب يرى أن الثورات عدوى ـ سياسة الغرب ازاء العرب متعددة الجوانب والالوان »
« ومتفقة في الهدف ـ الغرب يخشي وحدة العرب الخاضعين لمستعمر واحد ـ الماريشال »
« ليوتى والجنسيات الاسلامية ـ الماريشال ليوتى يحذر سياسة العنف وينصح بالعمل »
« السياسي ـ الغرب يقدر ـ سلفا ـ فشله في القضاء على القومية العربية وعزلها عن »
« الرابطة الاسلامية ـ العربى المسلم والعربى المسيحى يضمهما في راى الغرب اطار »
« سياسي مؤلف من القومية العربية والرابطة الاسلامية ـ الغرب والعناصر الوطنية »
« المتعصبة ثم العناصر الراقية المختارة ـ زعم الغرب ان العرب في حاجة الى حمايته ـ »
« الغرب والحركة الاشتراكية في الشرق ـ الغرب واللغة العربية ـ الغرب وخطر »
« الروس على العرب ـ موقف العرب من سياسة الغرب ـ » .

***

تناول الاستعمار بالدراسة والبحث موقفه من الحركات الوطنية فى سائر أنحاء العالم العربى والاسلامى ، وذلك بعد انهيار الدولة العثمانيـــة وزوال الخلافة الاسلامية ، ومن ثم زوال تلك الرابطة المعنوية التى كانت تجمع المسلمين .

وبقي على الغرب عندئذ ، أن يأمن خطر بعث القومية العربية كحركة ذاتية وقوة دافقة يمكن لتيارها ان يجرف أمامه كل ما يعوق نهوض العرب ، قوة تستنهض العزائم وتلهب الشعور ، وتذكر العرب بأمجادهم ، وتكون

بمثابة انطلاقة قوية للأمة العربية لكى تضطلع بدورها الذى يفرضه التاريخ عليها •

ولقد نبهنا الى أن الغرب فطن الى مقومات القوميه العربية والى بواعثها والى التربة التى تصلح لنموها والظروف التى تساعد على انبعاثها لقد درس الغرب ذلك كله ليحول دون قيام هذا الخطر ثم انتهت دراسته الى وضع مخطط يؤمنه الى أطول فترة ممكنة من خطر القومية العربية ، وقلنا فى التمهيد الذى قدمنا به الجزء الثانى من مؤلفنا عن مرحلة عدوان الغرب : ان سياسة الغرب قد نجحت فى نهاية الحرب العالمية الأولى فى تحقيق هذا الهدف ، وتمت له السيطرة على جميع البلاد العربية وكفل ولاء حكامها له وطوى الزمن دعوة القومية العربية ، وسكتت الاصوات التى كانت تنادى بها ، واختفى طيف هذه الدعوة ، اختفى من التاريخ منذ ذلك الحين بحيث لانجد لها أثرا يملى على المؤرخ حديثا عنها ، الا حينما نلتقى بها فى نهاية المرحلة الثالثة من مؤلفنا •

وبما أننا نقدم للقارىء الجزء الأول من تلك المرحلة الثالثة التى تتناول ثورات العرب وجهادهم ، وبعث قضيتهم ، ولكى يسهل عليه تتبع الأحداث وتعرف مختلف الصور والأساليب التى طبقها الاستعمار وواجه بها القومية العربية والحركات الوطنية ، فقد رأينا أن نجمل - سلفا - فى هذا الباب ما انتهت اليه دراسة الاستعمار وما أعده من خطط لمواجهة العرب • والجدير بالذكر أن هذه الدراسات تولتها الحكومات وتولتها المؤسسات ذات النزعة الاستعمارية ، وتولتها الجامعات فى حلقات دراسية ، وان ما نقدمه فى هذا الشأن انما هو خلاصة ماسمح بنشره فأحيط به الرأى العام الغربى من آراء قادة الاستعمار وفلاسفته وساسته أمثال الماريشال ليوتى Lyautey, والجنرال فيجان Weygand, وكامبون Cambon, ورينيه بينون R. Pinon, والكونت دى سانت أولير Saint-Aulaire, والمستشرق ماسنيون Massignon, وغيرهم فى فرنسا وايطاليا وبريطانيا •

***

انتهت دراسة الغرب الى نظريات وآراء سجلها تؤكد أن العرب قد فقدوا في مراحل تاريخهم السلطة السياسية المركزية التى تشرف وتهيمن على قضاياهم ومصالحهم وتدافع عن ديارهم دفاعا كاملا شاملا ، كما فقدوا الزعامة والقيادة التى توجههم وتبصرهم بعواقب اغفالهم لحقوقهم وللمكانة التاريخية التى كانوا جديرين بها ، وقالت هذه الآراء ان سقوط الدولة العثمانية قد أعاد للعرب حريتهم المعنوية والدينية والسياسية ، تلك الحرية التى كانت أسيرة الدولة العثمانية والخلافة العثمانية ـ ونتيجة لاسترداد هذه الحرية اندفع العرب تلقائيا ـ الى العمل للتحرر من كل استعمار والسعى الى تحقيق الوحدة بينهم ، وقالت آراء الغرب ان الجمود الذى أصاب العرب ، لابد أن يزول فى يوم من الأيام ان عاجلا أو آجلا لأنهم بحكم تاريخهم وبحكم تطورهم سيسلكون ـ حتما ـ الطريق الذى ينتهى بهم الى الحرية والاستقلال والتكتل وتحقيق الوحدة بينهم من جديد وان الحقبة التاريخية التى تلى الحرب العالمية الاولى ، ستكون أبعد أثرا فى تطور قضايا العرب من تلك الحقبة التاريخية التى مر بها العرب منذ الفتح العثمانى لبلادهم فى عام ١٤٥٣ حتى نهاية الحرب العالمية الاولى فى عام ١٩١٩ ٠

***

وقالوا ان على الغرب أن يستعد لوجه جديد تطل به قضايا العرب ، لأن طابع قضايا العرب كان حتى الحرب العالمية الاولى ، طابع الخضوع لسلطان الدولة العثمانية بحكم الولاء الدينى للخليفة العثمانى ، أما الآن فقد تعين على العرب أن يستعيدوا كيانهم القومى بعيدا عن الولاء السياسى والدينى للدولة العثمانية التى اختفت ٠

***

وقالت آراء الغرب ان المبادىء التى نادى بها الغرب خلال الحرب العالمية الأولى ستكون هى ذاتها الأداة التى تحرك العرب وتلهب شعورهم القومى ، كما وأن سيطرة الغرب على العرب ستحرك شعورهم الوطنى

وتحرك فيهم المبادىء القومية فى صورة جديدة منفصلة عن الاعتبار الدينى وستؤدى ـ حتما ـ الى ثورة العرب •

***

ثم تعود هذه الآراء فتقول ؛ فى الوقت نفسه : ان ايقاظ وتحريك الشعور القومى بين العرب لن يوفر لهم القوة التى هم فى مسيس الحاجة اليها ليواجهوا بها الغرب ؛ فتوافرها لا يمكن أن يتأتى للعرب الا عن طريق تحقيق الوحدة بينهم ، والوحدة هى الخطر الحقيقى الذى يهدد مصالح الغرب ، بل يهدد حياته ووجوده فى الشرق ، وأكدت هذه الآراء أن تحقيق هذه الوحدة احتمال قريب الوقوع فى كل لحظة لو تراخى الغرب فى مقاومتها • وذلك لأن الأمة العربية كان لها بحكم التاريخ كيان ،

وكان لها وجود بحكم توافر العناصر الأساسية التى تكون الأمم وهى الأرض والجنس واللغة والدين ، بل ان آراء الغرب ذهبت فى هذا الشأن الى القول بأن الوحدة بين العرب قريبة ، وأن تحقيقها بينهم أقرب منه فى أية جماعة من الشعوب الأخرى وذلك متى توافر للعرب الوعى القومى لأن وحدة الآمال والأهداف تجمعهم ، وهى وحدة تفضى حتما الى تحقيق الوحدة السياسية والوحدة القومية • فان لوحدة الآمال ولوحدة الأهداف أثرا وشأنا يجعلانها أهم من وحدة الجنس واللغة • فوحدة الأهداف والآمال هى التى مكنت كلا من سويسرا والولايات المتحدة من تكوين وطن وأمة ودولة ، فى حين نرى دول أمريكا اللاتينية على الرغم مما بينها من وحدة فى الجنس واللغة والدين وهى العناصر الطبيعية التى تمكنها من تكوين أمة واحدة ووطن واحد ودولة واحدة ، قد عجزت عن تحقيق الوحدة السياسية والقومية بينها •

***

ولابد لنا من الوقوف قليلا امام هذه النظريات والآراء التى انتهت اليها سياسة الغرب ، لانها فى تقديرنا جوهر قضية العرب ، وجوهر قضية الوحدة من حيث المبدأ .

وقد عالج هذا الموضوع الفيلسوف الفرنسى « ارنست رينان » Ernest Renan • فقال ان الأمة ليست مجرد كائنات حية ، بل انها أولا

وقبل كل شيء روح ومبدأ معنوى ... يستند في وجوده الى ميراث مشترك من الماضى ، ميراث هو عبارة عن ماض طويل متصل من التفانى والتضحيات والفداء • ومن الآلام والكوارث والمحن ••• ماض مشترك من الأمجاد ••• ومن سير الأبطال والأفذاذ ... لأن ذلك كله ذخيرة مشتركة يخلفها الآباء والأجداد للأبناء جيلا بعد جيل ، فيعتزون ويفخرون بها ويركنون اليها ليجنوا منها العظة والعبرة والسيرة الطيبة والقدوة الحسنة كلما حلت بهم الشدائد ، لأنها جهاد مشترك متواصل تسنده التضحيات وتدعمه الآلام ، ولأن التضحيات والآلام المشتركة أقوى سند للوحدة القومية ؛ كما انها ترتب الواجبات والالتزامات ••• وتحتم البذل والجهاد المشترك على الدوام • فالأمة فى رأيه ـ ليست ـ مجرد جماعات منعزل بعضها عن بعض ، بل جماعات تشترك فى الشعور بالتضامن مستندة الى مابذلته من تضحيات فى الماضى ثم الى الاستعداد للبذل والفداء مستقبلا ••• شعور مشترك يربط ماضيها بحاضرها وحاضرها بمستقبلها ••• فمتى توافرت هذه الشروط وحدت الجماعات وقامت الأمة •••

ويقول « رينان » لن تتحد الشعوب ذات الجنس الواحد واللغة الواحدة والدين الواحد لتكون أمة واحدة الا اذا توافر لها هذا الشعور ، وبصورة تمكنها من التجدد دائما لأن تجددها ودوامه هما التعبير الأكيد عن الرغبة فى مواصلة الحياة من أجل تحقيق أهداف مشتركة • ومتى توافرت الحياة المشتركة واقترنت بالمصالح المشتركة ، امكن التطلع باطمئنان الى مستقبل كل وحدة تتم بين الشعوب ، لأن هذه الوحدة تعلو على الحدود الاقليمية للبلاد ، واقوى من الحدود السياسية للدول فهى تجتاز هذه الحدود وتحطمها لتكون من الدول أمة واحدة •

والامة الواحدة او الوحدة لها دورة للنمو والتطور تخضع فيها لجميع مراحل وقوانين التطور الطبيعى والتاريخى ، وعليها أن تواجه كل ماتصطدم به من عراقيل وعقبات فى مختلف مراحل نموها •• وعليها أن تؤمن بوجودها وتؤمن بواجبها فى صيانة هذا الوجود والدفاع عنه ، ولن يتم هذا الا بخلق الشعور القومى وتقويته وربطه بالحقائق التاريخية المتصلة بوجوده لأن الترابط الروحى عنصر من عناصر قيام الوحدة ثم بقائها ، بل أنه لايقل أهمية عن المشاركة والترابط فى المصلحة المادية •

***

ولقد كان الغرب يعى هذه الحقائق ويدركها تماما ، ويدرك أن العرب بطبيعة تطورهم التاريخى قد نجحوا فى الماضى فى اقامة دولة تميزت عن سائر الدول بطابعها الجماعى والتضامنى الذى جمع العرب ، كما إمتاز

العرب بحضارة خاصة بهم انفردوا بها ، وأنهم لهذا وبحكم تاريخهم أقرب من أية جماعة أخرى الى تحقيق الوحدة بينهم .

أدرك الغرب أن اتجاه العرب الى الكفاح والجهاد ضد الغرب من شأنه أن يخلق الجو المناسب والملائم لظهور وبلورة الوحدة ، وكان على الغرب أن يؤمن نفسه من هذا الخطر الذى يمكن العرب من تهديد مصالحه ، بل ومن تهديد وجوده فى آسيا وافريقية نظرا لوقوع البلاد العربية فى الطريق الى آسيا وأفريقية ، ولما كان للعرب من القدرة على بسط نفوذهم الروحى فى مناطق شاسعة عبر آسيا وأفريقية .

وكانت سياسة الغرب تحتم عليه ألا يكف عن البحث والدراسة من أجل التحقق من أمرين : الأول ـ طبيعة تطور الوعى الوطنى ومدى تغلغله داخل الحدود السياسية لكل بلد من بلاد العرب . والآخر ـ اتجاهات هذا الوعى الوطنى ومدى اندفاعه نحو تحقيق الوحدة الشاملة بين العرب ، وذلك لأن الغرب كان يرى أن نطور الوعى الوطنى وتغلغله داخل الحدود السياسية فى البلاد العربية ، يفضى ـ حتما ـ الى ثورات ضد سيطرة الغرب ، ومن أجل الحرية والاستقلال ، ثورات تدفع الوعى الوطنى من شعب الى آخر ، كما كان يرى أن الاستقلال فى البلاد العربية بمثابة عدوى تتفشى ، فاذا تحقق الاستقلال لبلد عربى انتقلت عدواه الى بلد عربى آخر وهكذا الى أن ينتشر بين سائر العرب ، وأن الخطر الأكبر الذى يهدده هو تحقيق الوحدة بين العرب ، بحيث تكون لمصلحة العرب وهى وحدة لن تتم الا متى استقلت الشعوب العربية وتحررت من ربقة الاستعمار .

***

وعلى هذه الصورة رتب الغرب مختلف مراحل تطور قضايا العرب ومستقبلها .

رأى الغرب كل هذه الآراء ، ثم وضع القواعد الأساسية لمخططه الاستعمارى ، ازاء العرب ، ذلك المخطط الذى التزمت بهبريطانيا وفرنسا

وايطاليا متضامنة فى هدا الالتزام ، ثم واجه العرب بسياسة متعـــددة الجوانب والألوان ، ولكنها متفقة فى الهدف . فمن الناحية المادية كان المخطط الاستعمارى يهدف الى تفتيت أمة العرب فى جماعات سياسية منعزلة كل منها عن الأخرى حتى وان كانت فى الأصل وحدة سياسية واحدة ،

فقام الغرب بتفتيت المجموعات السياسية الاقليمية التى كانت قائمة فعلا بين العرب وكانت تخضع لمستعمر واحد ، وقد بدأ التطبيق العملى لهـذه السياسة الاستعمارية كأوضح مايكون فى سورية ولبنان وفى العراق وشبه الجزيرة العربية ومصر والسودان وشمالى أفريقيا وغربيها ، وكان فى تطبيقه لسياسته حريصا على القضاء على الوحدة المادية والسياسية والتاريخية التى كانت قائمة فعلا بينها ، ولم يكتف فى هذا الشأن بعزل العرب بعضهم عن بعض بل عمل كذلك على فصل المسلمين بعضهم عن بعض ، كما أنه لم يكتف بالغزو المادى فأضاف اليه نوعا من الغزو المعنوى والغزو النفسى الذى كان دوره اضعاف الوعى الوطنى وقتل الشعور الوطنى .

وفى هذه النظريات والآراء الاستعمارية يقول الماريشال ليوتى : انه على الغرب أن يجعل العربى المراكشى أجنبيا عن العربى الجزائرى ، أجنبيا عن العربى التونسى وعن العربى الليبى ، والعربى المصرى ، أجنبيا عن العربى السورى ، وعن العربى العراقى . بل ان الماريشال فى هــذا الشأن قد ذهب الى أبعد من ذلك فنادى بضرورة خلق جنسيات جديدة بين العرب تتميز بالخلاف فى المذاهب الاسلامية فى كل بلد عربى ، ونادى بضرورة ابراز هذه المذاهب وتطويرها بحيث تتحول العرب من القوميـــة العربية والرابطة الاسلامية الى طوائف اسلامية متنافرة متخاصمة .

كما نبه ليوتى ، الغرب الى الخطر الكامن فى خضوع مجموعة من بلاد العرب الى سيطرة وحكم دولة غربية واحدة وبالذات فى أية بقعـــة من آسيا وافريقية ، لأن وحدة الاستعمار ـ فى مثل هذه الحال ـ قد تكون بدورها وسيلة تؤلف بين قلوب العرب فى هذه المستعمرات وتمكنهم من تحقيق وحدة بينهم فى ظل هذا المستعمر الواحد ، وبهـذا الرأى كان الماريشال ليوتى يعارض قيام أية وحدة بين العرب حتى ولو كانت وحـدة

من ذلك النوع الخاضع للاستعمار الذي يرحب به المستعمر ولا يضار به استعماره • وحذر ليوتي الغرب من خطر الاقدام على أي أمر يؤدي الى عكس النتائج التي يسعى الى تحقيقها ، وكانت سياسته تقوم على محاربة استقلال العرب ، ومحاربة وحدة العرب ولكنه في الوقت نفسه ، حذر الغرب الالتجاء الى الوسائل العسكرية العنيفة ، بل انه نصح بالعمل السياسي لأن العنف كان في رأيه يفضي ـ حتما ـ الى المقاومة التي من شأنها أن تكون مصدرا يمد العرب بالقوة حتى لاينتهي أمرهم الى الفناء • ويقول ليوتي : ان هذه المقاومة هي التي يمكنها أن تدفع العرب ـ تلقائيا ـ الى تطوير قضيتهم والسعي الى تحقيق استقلالهم ، كما نبه الغرب الى ان نجاح العرب في تحقيق اهدافهم يوما ما رهن بالسياسة التي يتبعها الغرب ازاءهم وان المسئولية في تحقيق هذا النجاح اذا تحقق يوما ما تقع على سياسة الغرب تجاه العرب •

***

ولقد تطورت بحوث الغرب بالنسبة للوسائل الواجب اتباعها في مقاومة خطر القومية العربية واتجاه العرب الى تحقيق استقلالهم ووحدتهم ورأى الغرب أن أول ما يجب اتباعه في هذا الشأن هو عزل العرب تماما عن الرابطة الاسلامية •

***

ولا يفوتنا أن نشير الى أن هذه الآراء وتلك البحوث الاستعمارية كانت سابقة على تطبيق الغرب لسياسته ، كما أنها لم تكن مستخلصة من الأحداث التي تناولتها الآراء والبحوث فحسب ، بل وعلى أساس افتراض وقوع أحداث كان ساسته يفترضون وقوعها ، ثم يفترضون كل ما يترتب على وقوعها من آثار ونتائج ، ثم على ضوء هذا كله يضعون الآراء والنظريات الاستعمارية التي أسلفناها ، فهم حينما افترضوا بذل مساعيهم لعزل العرب عن الرابطة الاسلامية وجدوا أنه لكي يكتب لهذه الخطة النجاح لابد من الدعوة الى القوميات الوطنية ، وأن من شأن هذه الدعوة أن تدفع الوعي الوطني وتطوره ـ تلقائيا ـ بين العرب ، ولكنهم رأوا أن هذا الوعي الوطني

لا يمكن أن يقف ـ مستقبلا ـ موقف العداء من الاسلام كما كانوا يرغبون بل هداهم البحث والدراسة الى ان الرابطة الاسلامية ستظل سندا للقومية الوطنية تعضدها وتشد من أزرها ، ومن ثم انتهى بهم البحث فى هـذا الشأن الى أن هذا الاتجاه لا يمكن أن يضعف من عقيدة العرب ، بل ان وعيهم الوطنى والسياسى سيقوى ويتعزز •

ولقد لمست فرنسا أكثر من أية دولة استعمارية أخرى خطورة المشكلة التى يواجهها الغرب فى كل محاولة بذلها لفصل الوعى الوطنى والقومى عن الرابطة الاسلامية ، وأدرك من تصدى لهذه المشكلة من المفكرين منذ نهاية الحرب العالمية الأولى أن كل خطة يضعها الغرب فى هذا الشأن مآلها ـ على طول المدى ـ الى فشل محقق ، وجاهروا بعجز الغرب عن القضاء على الوعى الوطنى والرابطة الاسلامية معا ، بل عجزه حتى عن مجرد عزل الرابطة الاسلامية عن الوعى الوطنى والقومى • وحذروا الساسة ونبهوهم الى أنه من العسير عليهم تجاهل هذه الحقيقة التى سيصطدم بها الغرب اذا أصر على هذا الاتجاه ، تلك الحقيقة التى ظلت عبر التاريخ العماد الأساسى للقومية العربية لأن القومية العربية حتى بالنسبة للمسيحيين من أبناء الشرق قد جعلت العربى سواء كان مسيحيا أو مسلما يذوب فى تلك التقاليد والتعاليم التى أرست قواعدها الدولة العربية الأولى ، والتى كان من شأنها ان انتظمت شئون العرب كافة فى اطار موحد

ولقد صح ما توقعه أولئكم المفكرون وأدركت فرنسا على مر الزمن استحالة القضاء على الوعى الوطنى والرابطة العربية والرابطة الاسلامية بين العرب فى شمالى أفريقيا •

***

ونحن اذا استعرضنا مواقف الغرب المختلفة أمام الحركات الوطنية فى الشرق العربى واذا راجعنا السياسة التى التزم الغرب تطبيقها بدا لنا كيف كانت وما زالت سياسة الغرب الاستعمارية تنهج فى كفاحها ضد حرية الشعوب ، ومن أجل الابقاء على استعمارها فى الشرق • لقد زعم الاستعمار فى أول الأمر أن الحركات الوطنية ليست الا انفعالات سطحية فى الشعوب

سيجد لشعور أولئكم المتعصبين الذين لا يعترفون بما للمستعمر من الفضل فيما يهيىء لهم الغرب من الحضارة ، وكان يجد له أعوانا يستميلهم هذا الزعم من الطبقات الحاكمة التى لم يكن يعنيها غير مقعد الحكم ومن الطبقات الرأسمالية والاقطاعيين وفئة من الساسه والذناب المأجورين ، ثم زعم الاستعمار لنفسه الحق فى الدفاع عن الأوضاع الاقتصاديه والسياسية والاجتماعية التى أقامها فى الشعوب المطالبة بحريتها بوصفها النظم المشروعه باعتبارها وحدها كفيلة بتطوير الشعب التطور الملائم ، تلك النظم وتلك الأوضاع التى كان من شأنها فى الواقع أن تؤيد وجوده ، فلم يكن دفاعه عنها الا دفاعا عن وجوده .

وزعمت سياسة الاستعمار فى مقاومتها للحركات الوطنية : أن صلابة العناصر الوطنية المتمسكة بحق بلادها فى الحرية تعتبر عقبة أمام الطبقة الراقية المختارة من أبناء البلاد الذين لايميلون الى التطرف فى وطنيتهم والذين يعملون على أن يكون تطور بلادهم تطورا هادئا وبطيئا حتى لا يصطدم بمصالح الأوروبيين ونفوذهم وربطتهم بالغرب صلة الود والولاء ، هؤلاء — بالذات — كان المستعمر يرى فيهم عدته وساعده الأيمن كان يوليهم مراكز القيادة فى حكم البلاد ، وكان يغمض عينيه عن مواقفهم الوطنية المصطنعة التى يبدون فيها أمام الشعب ، لأنه يعلم تماما أنه يستخدم فى النهاية لمصلحته كل نجاح يحققونه لأنفسهم ، فازدواج موقف هذه الطبقة ازدواج متنافر للغاية ، لم يكن يرى فيه الاستعمار ما يمس مصالحه بل كان يرى أن هؤلاء هم خير من يعمل من أجله .. وأنهم لذلك أولى — دائما — برعايته وبحمايته فهم فى رأى المستعمر أو أنهم فى زعمه العناصر الوطنية المتطورة المعقولة والمتحررة من التعصب ، والقديرة — فى رأيه — على حكم البلاد وعلى تطوير الشعب واعداده لتحمل مسئولية الاستقلال والحرية .

لقد كان الاستعمار وما زال ، يطمئن الى هذه الفئة من أبناء الشعوب فى الشرق فهى طبقته المختارة التى تفتن فى خدمته وفى الوقت نفسه تتقن دورها حينما تواجه الجماعات الوطنية بحماس وطنى تتصنعه لتجارى

به اندفاعات الشعب وعلى المستوى الذى تكون عليه تلك الاندفاعات من حيث القوة والعنف •

***

لقد افتن الاستعمار فى أساليبه السياسيه لمهاجمة الحركات الوطنية فى البلاد التى يحكمها ، فدأب على اتهام هذه الحركات ـ أبدا ـ بما هى براء منه ووصفها دائما بما يناقض طبيعتها وهدفها ، أملا فى التقليل من شأنها وصرف المواطنين عنها ، كان وما زال يتهم الحركات الوطنيه بأنها حركات لم يقصد زعماؤها بها الا حجب المشاكل الحقيقية التى يعانيها الشعب ، ولم يرد القائمون بها الا صرف أنظار أمتهم عن تلك الحاجات والضروريات التى حرمها أبناؤها بسبب ضغط الطبقات المستغلة فيها ، وتوجيه انظار الشعب نحو أهداف أقل أثرا فى حياتهم ، وحتى يحجب قادة هذه الحركات الوطنية تلك الأهداف الضرورية فى حياة الشعوب ، وراء أهداف سياسيه تعتبر بالقياس الى حاجات الشعوب أهدافا كمالية • لقد تعرض ـ دائما ـ قادة الحركات الوطنية فى الشرق الى اتهام الغرب لهم بأنهم يوجهون وعى الشعوب الى المطالبة بالاستقلال حتى لايتجه هذا الوعى الى حقه فى رفع مستوى معيشة الشعب وحتى ينخلى عن القادة والموجهين من اتجاه شعوبهم الى المطالبة بتحقيق الرخاء لهم ! •

***

ويمضى المستعمرون فى مزاعمهم وفى حججهم ، ويذهبون فى ذلك شتى المذاهب فيقولون : انه لم يعد فى العالم مكان للحركات الوطنية المتعصبة فقد طواها تطور الزمن ، واصبح العالم كله يعيش فى عصر تكتل الجبهات والقارات ، ويزعمون بأن الشرق وافريقية سواء أراد الغرب أو لم يرد يدخلان فى نطاق مصالح الغرب ويعتبران قاعدة من قواعد الدفاع ضد التوسع الشيوعى السوفيتى ، كما يعتبران وسيلة للاحتفاظ بنوع من الاستقلال عن الولايات المتحدة الامريكية ، وفى هذا يرى ساسة الغرب أن الشرق وافريقية قد أدمجا فى مشكلة شاملة ترتبط بمصيره اقتصاديا وسياسيا •

ان الغرب لم يتحرج في المغالطة المكشوفة التماسا لما يؤيد بقاءه ..
لقد غالط في حججه وفي منطقه ، الى حد أن زعم ان استقلال البلاد في افريقية وفي الشرق من شأنه أن يفضي الى وقف تطويرها اقتصاديا واجتماعيا فقال دعاة الاستعمار : ان الاستقلال لا ينفع ولا يفيد مادام ان كيانه الاقتصادى ضعيف وبناءه الاجتماعى لم يتم بعد ومستوى معيشته منحط ، وتساءل الاستعماريون ماقيمة الحرية ، وما قيمة الحياة النيابية في بلاد يخيم عليها الجهل وينقصها النضوج السياسى وتعوزها الخبرة الفنية في جميع شئونها .

.. وهكذا يمضى الغرب في مزاعمه وفي فلسفته الاستعمارية ليقنع الشعوب المنكوبة باستعماره بضرورة حاجتها الى وجوده ، وبأنه لاسبيل الى حمايتها من المطامع الدولية حولها غير سبيل واحد ، هو ان ترتضى هذه الشعوب حماية الغرب ورعايته لها ، وليقرر في روعها بأن اى استقلال يمكن ان يتاح لها بعيدا عن هذه الحماية وتلك الرعاية انما هو استقلال زائف موقوت .

وفي كل حال وفي كل موقف فان الغرب ثبت دائما على عقيدته ورأيه في انه اذا استطاع الاستعمار ان يتخلص من الاندفاعات والحركات المنبعثة عن القومية العربية ، استطاع التخلص - تماما - من مشكلة الحركات الوطنية في الشرق وفي افريقية ، اذ ان الغرب في مثل هذه الحال ، لن يواجه الا بلادا منفردة ومنعزلة .

***

.. لقد واجه الغرب اتجاهين للحركة الوطنية ، اتجاها كان يؤيده أولئكم الذين يعملون على هدى المبادىء التى دعا اليها المغفور له جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده ، تلك المبادىء التى كانت تدعو الى اعادة تكوين المجتمع الاسلامى في العالم بأسره بحيث يصبح مجتمعا قويا متحدا قادرا على استعادة أمجاد الاسلام عن طريق بعث العقيدة والحوافز الوطنية القائمة على القومية العربية كأساس ، وعلى دفع المسلمين كافة للوقوف كتلة

متحدة فى وجه العالم الغربى بوصفها القوة الوحيدة القادرة على رد عدوان الغرب •

وكان ساسة الغرب يرون أن هذا الاتجاه أو أن هذه الدعوى ستهوى المتعصبين من المسلمين وتجتذب مفكريهم الذين يدركون ما يمكن أن يكون عليه الاسلام من قدرة على الاتحاد والوقوف فى وجه الغرب متى أمكن تحريك شعور الجماعات الاسلامية للتصدى للغرب بعاطفة الدفاع عن الاسلام ، كما كان هؤلاء الساسة يؤكدون أن مثل هذه الدعوة تعتبر اخطر ما يهدد الغرب ، وأنها كانت الخطر الذى يحرص الغرب دائما على تفاديه ، وعمل أبدا على منع تجنيد قوى الاسلام ضده •

أما الاتجاه الثانى الذي كان على الغرب أن يواجهه فانه يتمثل فى الحركات الوطنية المستندة الى التأييد الشعبى الذى لايخفى عطفه على الحركات الاجتماعية ذات الطابع الاشتراكى ، وتستند هذه الحركة الى القوة التى تستمدها من تعاطف الجماهير المهضومة الحقوق والمحرومة من المزايا الاجتماعية والاقتصادية •

ولقد ربط ساسة الغرب بين مبادىء هذه الحركة المتطورة وبين الاسلام ، ذلك ان الاسلام فى رأيهم يستوعب سائر المذاهب والنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وان تعاليم الاسلام وفلسفته تشملها جميعا • ثم يقول هؤلاء الساسة ان الدعوة الى الأخذ بهذه النظم والمذاهب وان كانت ذات طابع مدنى حديث ، الا انه نظرا لأن القائمين بها مسلمون ونظرا لأنها من روح الاسلام وفلسفته ، فانها ستكون فى النهاية مرتبطة به أشد الارتباط ، وسيسيطر عليها كل السيطرة ، ومنه ستستمد قوتها وبقاءها •

ومن ثم فان تلك المذاهب والنظم المتطورة لا مفر لها من الاخلاص والخضوع فى النهاية الى ذلك المصدر الروحى الذى سوف تعتبره مركز انبثاقها ، وسيعمل قادة هذه الحركة على استخلاص خير هذه النظم وأنفع تلك المذاهب للمجتمع العربى والاسلامى وأنسبها لطبيعة أهله ، وعلى أية صورة ، وبأى أسلوب وبأية دعوة طبقت بها هذه المذاهب وسادت هذه

النظم ؛ فانه فى النهاية لابد ان يلتقى الغرب بالقومية العربية ، لان تطبيق هذه المذاهب ما هو الا تطبيق للنظرية وللفلسفة الاسلامية ، سواء أقام هذا التطبيق على دعوة ذات لون اقتصادى أم على أخرى ذات لون اجتماعى ، اذ أن المجتمع العربى عندئذ سيشعر أن بنيانه قد قام على تعاليم وأسس استمدها واستوحاها من روح الاسلام وشرائعه ، هذا الشعور الذى بعث فيهم قوة فتية قد تفضى بدورها الى بعث القومية العربية .

ولمكافحة هذه الحركات الوطنية سوف يبحث الغرب عمن يمكن أن ينشق عليها ، غير انه سوف يجد أن العقول التى استمالتها تعاليم الغرب ما زالت قليلة العدد ، كما أن أصحابها يتميزون بالخوف والتردد ولا يجرءون على الانفصال صراحة عن المجتمع العربى والاسلامى، وانهم يطلبون لمجرد ظهورهم فى مظهر المساند للغرب حماية وتأييدا من الغرب أمام خصومهم ، وسوف يعمد الغرب الى مهاجمة اللغة العربية باعتبارها الاداة الثقافية للعرب والمسلمين ، والوسيلة التى بها تسيطر القومية العربية على سائر الشعوب الاسلامية ولا سيما فى أفريقية ، ومن شأن انتشار العربية خلق وعى سياسى بين الشعوب العربية يجعلهم فى موقف العداء للغرب ولا سيما ان للغة العربية فى نظر المسلمين فى شتى انحاء العالم قدسية خاصة ، جاءت من كونها اللغة التى أنزل بها القرآن .

ومن أجل ذلك فقد حمل ساسة الغرب دعوة ترمى الى حمل الشعوب الاسلامية فى انحاء العالم على ان تتخذ لنفسها لغة وطنية خاصة تتميز بها ؛ وما من شك فى ان الهدف من هذه الدعوة كان اضعاف وحدة اللغة التى تربط الشعوب العربية والاسلامية .

كما حارب الغرب القومية العربية والاسلام ؛ فدعا الى فصل العقيدة الدينية عن شئون الحكم ؛ لانه كان يعلم أثر القومية العربية والاسلام فى السياسة ، ومن ثم فقد كان هدفه من هذه الدعوة هدم نظرية التضامن والترابط القائمة بين العرب والمسلمين ، ليحل محلها النظرية الوطنية الانعزالية التى يسعى الى غرسها فى مختلف الجماعات العربية والاسلامية

***

غير أن الغرب في الوقت الذي كن يقوم فيه بهذه الدعوة ، كان يدرك مدى الخطر الذي تنطوي عليه دعوته للتحرر الوطني ، الا انه كان يجد نفسه مضطرا لمواجهة قضية استقلال الشعوب التي يحكمها ، وهي قضية تفزعه ، ومن ثم فقد اتجه الى دفن هذه القضية وهدم أركانها بشتى المزاعم فزعم أن الاستقلال السياسي للشعوب التي يحكمها ينطوي على خطر تسلط الطبقة الجاهلة ، التي سماها بالدهماء ، على شئون الحكم والسياسة اذ يتيح لها السبيل الى الوجود في عالم لم تهيأ له بعد ، وهو عالم السياسه ومتى تحركت هذه الجماعات ، فانه يتعذر وقفها ، وان النهايه الحتمية الخطيرة التي يجب أن يحسب المستنيرون مغبتها في بلاد تدين بالاسلام ولا سيما اذا نحيت عنها العناصر المتطورة والطبقات المتوسطة ، مما ينتهي بشئون الحكم ليد شعب جاهل تسيطر عليه طبقة من المتعصبين .

وعلى هذا مضى الغرب في سياسته ، فلم يفتأ يحاول اقناع العناصر الوطنية بأن الاستقلال الذي يطالبون به لن يجلب لهم خيرا ، وانما سيكون مبعث شر وخطر على مصالحهم .

وبينما كان الغرب يخاطب العناصر الوطنية وقادة الحركات الوطنية في الشعوب المحكومة بهذا الاسلوب ، كان يبدي رثاءه ـ سلفا ـ للطبقات الفقيرة المتخلفة في الشعوب المحكومة نظرا لما يجلبه الاستقلال على هذه الطبقات ـ حسبما يرى الغرب ـ من شرور ومآس ، فراح يعمل من أجل أن تناشده العناصر الفقيرة الجاهلة ان يبقى سيدا ووصيا عليها . وفي هذا الصدد زعم ساسة الغرب ان المبادىء العصرية قد وصلت فعلا الى كل مكان وصلت حتى أقصى الواحات والى أبعد اركان البلاد العربية ، ولكنها لم تصل على حقيقتها ، وانما نقلت مشوهة ومحرفة .

***

وفي هذا الصدد أيضا ، قال ساسة الغرب كثيرا ، وزعموا كثيرا ليقرروا وليضللوا . قالوا ان العرب والمسلمين يتوهمون أن في رحيل الأجنبي عن بلادهم حلا كافيا لجميع مشاكلهم ، اذ تصبح بلادهم مستقلة ويحكمون انفسهم حال انهم لا يدركون ان حرمانهم من الخبرة ومن رأس

المال الأجنبي ومن المستشارين الأجانب في شئون المال والحكم ؟ كل ذلك من شأنه أن يعرض بلادهم للفوضى بسبب حرمانهم من العناصر الفنيةالتي تحل محل الاجانب ، الأمر الذي يفضي بتلك البلاد الى التعرض لاستغلال من نوع جديد ، لإن فوائد استقلالها ومزاياه ستكون وقفا على طبقة خاصة ، في حين يحرم سواد الشعب من ذلك كله ، وينتهي الى مصير أسوأ مما كانت عليه قبل أن تمنح بلاده الاستقلال . واذا ما زعمت هذه الشعوب بأن من حقها ان يستغل ابناؤها خيرات بلدها ، فان هذا الزعم مجرد وهم ، لانها لاتدري من الذي سيكون المستغل لها بعد استقلالها ، فربما كان المستغل لها بدلا من الأجنبي ، أجنبيا آخر ، لأن هذه البلاد بثرواتها الطبيعية الوافرة لابد أن تثير مطامع الدول .

***

ويقول الغرب انه لو فرضنا أن عصر الاستعمار السافر سينتهي الى زوال ، فمن المؤكد أنه سيحل محله نوع آخر لا يقل عنه شرا ، وهو الاستغلال الاقتصادي والتجاري الذي لا يمكن لهذه الشعوب أن تتجنبه .

وتأسيسا على هذه المزاعم في سياسة الغرب ، يرى ساسته أنه يتعين على الشعوب التي يحكمها ان تتحضر وان تتطور ، في أمانيها السياسية وفي مفهومها للوطنية ، على ان يكون ذلك كله داخل نطاق التعاون مع الغرب بوصف ان هذا هو الوسيلة الوحيدة لكفالة أمنها ولرفاهيتها .

وقد حرص الغرب على تنفيذ هذه السياسة في سائر البلاد العربية والاسلامية ، فاذا لم تجد استجابة في بلد من هذه البلاد ومنيت فيها بالفشل لم يكن ذلك مدعاة لليأس والقنوط ، وانما كان فيه حافز على الاصرار والتمسك بها والدعاية لها في البلاد الأخرى ولا سيما في شمال أفريقية وبصفة خاصة في تونس ومراكش ، نظرا لما للغرب من مصالح جوهرية في أفريقية تدعو الى تمسكه بتحقيق هذا الهدف السياسي في تلك المنطقة

***

لقد ادعى الغرب ان المستقبل السياسي والاقتصادي للشعوب الصغيرة أمسى أشد تعرضا للاخطار مما كان عليه حاله من قبل ؟ وانه على الرغم من

هذا فان تلك الشعوب لا تكف عن التحدث عن التحرر السياسى والتمتع بالحكم الذاتى ، فى حين أنها تعمل لتمكن مختلف القوى الدولية من أن تضع فى قدميها قيودا اقتصادية أشد خطرا على حريتها وعلى مستقبلها من وضعها القائم الى جانب وجود الغرب فيها ، وان ذلك الوضع أنسب لتلك الشعوب لكي تذيب مصالحها ومستقبلها فى وحدات اقتصادية وجغرافية أوسع مدى وأكثر قوة وأقدر على حمايتها من التسلط والسيطرة التى سيعمل الغير على فرضها على تلك الشعوب •

وقد مضى الغرب فى كفاحه للوطنية الى أبعد الحدود وبأسلوب أكثر وضوحا ، فأعلن أن الاتحاد السوفيتى يهدد العرب ويعبث بمصالحهم ، لأنه يعمل على التسرب الى العالم العربى والسيطرة عليه ، وان هذه غاية طالما سعى السوفييت الى تحقيقها ، فاذا ماتم ذلك لروسيا مهد الطريق امامها للسيطرة على الشرق وعلى أفريقية ، وبهذا سيكون من شأن التعصب الاسلامى ومن شأن الدعوة الى القومية العربية أن يجعلا من العرب والمسلمين ــ مختارين أو مكرهين ــ حلفاء للعالم الشيوعى بدلا من ان يساندوا سياسة الغرب ليقطعوا السبيل على تيار المذهب الشيوعى •

وقال ساسة الغرب : بأن ليس للعالم العربى ان يختار ــ فى هذا الصدد ــ لأن مصيره مرتبط بالعالم الغربى ، برغم أنفه وسواء أراد العرب أم لم يريدوا ، وان على العرب أن يؤمنوا بتأييد الغرب لهم ، وعلى هذا الأساس فالتحالف مع العرب وبين الغرب أمر حتمى ، وعلى العرب أن يسلموا للغرب بالمزايا والحقوق والأوضاع التى تمكنه من الدفاع المشترك عن مصالح الغرب والشرق العربى ، وانه فى هذا النطاق وحده يسمح الغرب للعرب أن يتكتلوا وأن يتضامنوا تحت الوصاية والحماية الغربية ، لا من أجل أن يجعلوا من أنفسهم كتلة قوية فى ذاتها يعتد بها لاصحابها ، بل ليكونوا حاجزا فى وجه التيار السوفيتى ، وفى ظل هذا الوضع وحده كان الغرب وما زال على استعداد لان يمكن الاسلام والقومية العربية من تحقيق أمنية طالما داعبت أحلامهم ، وهى قيام وحدة ولو كانت وحدة جزئية تجمع بينهم • على ان يتقاضى الغرب ثمنا لذلك لايقل عن

تنازل الشرق العربى والاسلامى تنازلا ولو جزئيا عما يطــــالب الغرب بالتنازل عنه •

***

أما فرنسا فقد كانت حريصة على أن تدمغ نزعنها الاستعمارية بطابع خاص ، فهى بالاضافة الى كل هذه الاعتبارات والمبررات والحجج التى يختلقها الغرب لتأييده ، راحت تزعم أن الحركات الوطنية فى شـــمالى افريقيا لاتقوم الا بتأييد من الشرق العربى الذى عمل على خلق المتـــاعب فى شمالى افريقيا ، بتأييده للزعماء المتطرفين فى شمالى افريقيا وتجاوبه مع ابناء هذه البلاد ، كما راحت تقنع العناصر الوطنية فى تلك البلاد بحـــل يستند الى النظريات الحديثة التى كان الغرب قد بدأ فى الدعاية لها بـين العرب والمسلمين ، وهى كلها تهدف الى الحد من النفوذ الوطنى فى هذه البلاد لمصلحة سلطة أعلى يشترك فيها ويسيطر عليها الغرب •

لقد زعمت فرنسا انه لو تم الاعتراف للمسلمين فى افريقية بالحقوق السياسية التى يتمتع بها المسيحيون واليهود ، فان ذلك سينتهى بوقـــوع مظالم سياسية واقتصادية واجتماعية من حيث الواقع ، وانه لذلك يتعـــين ان تنظم هذه الجماعات فى تنظيمات سياسية واجتماعية خاصة بهم ، وتتميز بطابع خاص ، وتحقق من حيث المبدأ المساواة فى الحقوق ، وأن تقـوم سلطة فى تلك البلاد تعلو السلطة الوطنية ، مهمتها الحرص على احترام الحقوق المعترف بها ، لمختلف الجماعات والاقليات فى البلاد ، ومنـــع اصدار أى تشريعات ترمى الى بث التفرقة العنصرية والدينية بين هـــذه الجماعات • وذهبت فرنسا الى القول بأنه سيكون لكل جماعة أســـاس جنسى وتاريخى وثقافى يختلف باختلاف الجماعة دون التقيد بالاعتبارات الجنسية التقليدية وان هذا النظام لكفيل بتأمين مصالح الأوربيين والمسيحيين واليهود فى افريقية •

***

تلك كانت النظرية الاستعمارية الغربية فى جملتها عند تطبيقها فى البلاد العربية والاسلامية ؛ وهى نظرية جمعت بين استعمال الضـــغط

والاكراه والقوة الى محاولة تقديم الترضيات ومحاولة الاستجابة الى المطالب والأمانى الوطنية ، ولكن بقدر وفى نطاق الحدود التى تسمح بهـا الدولة المستعمرة .

وهكذا عمل الغرب على عزل الحركات الوطنية فى البلاد العربية والاسلامية ، لتصبح حركات منفردة ومنعزلة ذات أهداف محددة ، وبذلك يتمكن الغرب من السيطرة على تلك الحركات ومواجهتها ، والقضاء عليها عند الاقتضاء .

***

ولكن هل استسلمت الامة العربية ؟ هل نامت عن حقها الطبيعى ؟ هل خضعت لمشيئة الغرب الذى لايريد لها الحرية ولا الاستقلال الا بالمفهوم الذى يفرضه على عقول أبنائها فرضا ؟

هذه أسئلة نترك الجواب عليها لكفاح العرب .

عندما سيطر الغرب على الشرق العربى والاسلامى خيل له أن ما حل بهذه البلاد من نكبات كفيل بأن ينسيها حقها فى الاستقلال والحرية ، وفات الغرب أن تعاليم العرب لا تسلم بأن الحرية والاستقلال وقف على شعب معين أو على جنس بالذات ، بل تؤكد ان الله سبحانه وتعالى خلق الشعوب سواسية والافراد سواء ، لا فارق بين شعب وشعب ولا فرق بين فرد وفرد .

فات الغرب أن الوطنية شعور عميق فى النفس لا يمكن خنقه ؛ ولا يمكن ازالته بأية صورة ؛ فاته أن وجود جنوده فى الشرق لن يحول — كما توهم — دون قيام الحركات الوطنية بل انه يبعث على اثارة الوعى الوطنى فى البلاد .

وكان على الغرب أن يكتشف أنه — على عكس خبرته التى ادعاها — يواجه مقاومة متزايدة تحول حياته الى جحيم ، وتشيع الفوضى فى الشرق وتحمل الغرب أعباء مالية كبيرة فى سبيل الابقاء على سيطرته ونفوذه .

وكان على الغرب أن يدرك خطأ سياسته ، وأن الشرق لا يمكن أن يبقى على ذلك الهوان ، الذى أراده له الغرب ، وأن لغة القوة والارهاب يمكن أن تؤخر الانفجار فى الشرق ، ويمكن أن تؤجل ثورته وتؤجل حريته ، ولكنها لا يمكن ان تمنع وقوع ذلك كله ان عاجلا أو آجلا .

وكان على الغرب أن يلمس أن موقفه فى الشرق يتحول من سيىء الى أسوأ ، وأن مشكلته أصبحت معلقة بالزمن الذى يمكنه الصمود خلاله أمام الوعى فى الشرق ، وأمام الحركات الوطنية ، وبالامكانيات التى يستطيع بها الصمود أمام شعوب الشرق .

***

ان الاستعمار كان يعمد ـ دائما ـ الى البحث عما يطيل فى عمره فى الشرق لأطول زمن ، وكان كلما عمد الى وسيلة لتحقيق هذه الغاية تبين له فى النهاية انها موقوتة الأجل وقصيرة الأمد أمام كفاح الشعوب من أجل الخلاص من الاستعمار ومن أجل التحرر ؟ وفى هذا الشأن كان الغرب يضطر بين الحين والحين ، ومن أجل كسب الوقت ، الى تمكين الشعوب من بعض حريتها ، والسماح لها بحريات مجزأة مع الزمن ، أملا منه فى تفادى مصيره فى الشرق ، وحتى لا يعجل بهذا المصير ولكى يتيح لنفسه فرصة البقاء والتربص فى الشرق انتهازا للفرص التى قد تمكنه من استرداد ما انتزع منه قهرا .

***

لقد كان من وسائل الغرب كى يبقى فى الشرق ما زعمه لوجوده فى هذه المنطقة من حرصه على مد العون الفنى والمالى للشعوب العربية .

ان الاستعمار أتيح له أحيانا أن ينجح فى كسب التعاون من جانب عناصر كانت تقف منه موقف الصلابة والشدة ، فما زال بها حتى استمالها الى جانبه بعد أن ثبط عزائمها ومن ثم أخذ يعزز مكانتها ويساندها ويرفع قدرها بين أبناء أوطانها فيسلم على أيدى هذه العناصر لأوطانهم ببعض الحقوق التى كان قد سلبها واغتصبها ، لكى يعلى من شأن قادتهم الذين

استمالهم في صفه ، وليبقي على وجودهم ، ويفيد هو من وراء هذا الوجود ولم يكن الاستعمار بهذه الوسائل كلها وبتلك الجهود التى بذلها ، لم يكن بقادر على أن يؤيد وجوده فى الشرق ، وانما كان بذلك كله يطيل فترة احتضاره ويمد فى سنوات النزع التى كان يسلم خلالها الروح •

فان تيار القومية العربية والبعث الوطنى بين العرب كان يجرف أمامه شعور الجميع فى استماتة وبساله ، للمطالبة بسيادتهم كاملة وباستقلالهم تاما ، بحيث لا يتوقف نضالهم من أجل هذه الغاية ، قبل أن تتحقق لهم على أكمل وجه ، وما من شك فى أن القادة والزعماء السياسيين قد بدا لهم أنه قد أصبح أمرا حتما عليهم أن يقيموا الوزن كل الوزن لأماني شعوبهم فى الحرية والاستقلال ، بعد أن أصبح الشعب العربى قادرا على تفهم قضاياه تماما ، وبعد أن توافر له الوعى التام لادراك الصورة الحقيقية لسياسة الغرب فى الشرق ، والصورة الحقيقية لقادة الشرق وزعمائه •

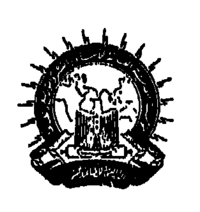
وحبذا لو أدرك الغرب الحقيقة التى لامفر منها ، وحبذا لو فطن ساسته الى أن كل عقبة يقيمها الغرب فى سبيل تحرر العرب ، لن تؤدى فى نهاية الأمر الا لزيادة اصرار هذه الشعوب العربيه على استرداد حقوقهم المغتصبة ، واستخلاص حريتهم المسلوبة •

ان للامة العربيه كفاحا ضد الاستعمار وجهادا باسلا من أجل حريتها سنفصله وسنوفيه حقه ــ ما وسعنا الجهد ــ فى هذا المؤلف ، وعندئذ سنرى كيف أن هذه الأمة استمرت فى كفاحها ضد الاستعمار الغربى وكيف صبرت وصابرت فى نضالها ، واستعذبت فيه التضحيات ، وكيف عقدت نيتها على الجهاد أبدا ، وعلى المضى فى سبيلها ــ برغم ما يحاك لها من المؤامرات وما ينصب لها من شراك ــ حتى تنعم بذلك اليوم الذى يتحقق فيه علم الحرية والاستقلال والوحدة فوق بلاد العرب •

وسنرى ، كيف أن كل حاكم فى الشرق سيدرك أنه متى ما تعارض مسلكه السياسى مع أمانى وحقوق الامة العربية ، فان مصيره هو متعرض ــ حتما ــ الى أسوأ ما تتعرض له المصاير بالغا ما بلغت الوسائل التى يحتمى بها ، ومهما طال الزمن •

(تم الكتاب)

فهرس



مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤

العدد ٦٣ الثمن ٢٠ قرش